lixus.magazine@gmail.com : البريد الالكتروني
www.lixus-magazine.net : الموقع الالكتروني

العدد 27
غشت - شتنبر 2018م

مجلة ليكسوس
ⵜⴰⵏⵓⵖⵍⵉⵜ ⵏ ⵍⵅⵓⵙ

مجلة إلكترونية متخصصة في التاريخ والعلوم الإنسانية
موكادور ميديا للصحافة والنشر - شراكة وتعاون
الترقيم الدولي المعياري للمجلة: ISSN: 2605-6259

▪ملف العدد: تاريخ العلاقات الروسية المغربية

العلاقات الروسية - المغربية:
مجهودات الوزير ميخايلوفيتش كورتشاكوف الديبلوماسية

▪محتويات العدد:

▪تاريخ الهند الاسلامي: رسائل أميرة هندية إلى سيدة إنجليزية تحكي قصة عن صداقة طويلة.
▪تاريخ الأديان: شخصية إبراهيم عليه السلام: قراءة في المصادر اليهودية والدراسات الحديثة.
▪التاريخ الوسيط: مذهب الخوارج بالمغرب خلال القرن الثاني الهجري
ـ القوس الجنائزية بالغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي
▪التاريخ المعاصر: الشرعية القانونية للوجود الإسباني بالمغرب
▪تاريخ الجنوب المغربي: إسهام قبائل إحاحان في الحركات السلطانية إلى سوس
▪قضايا التراث المخطوط: المكتبات والتوثيق الرقمي للتراث العربي المخطوط
▪التراث المادي: السمات العسكرية لقصبة دبدو المرينية بجهة الشرق
▪قراءة في كتاب: درس الاجتماعيات: من التخصيص إلى التنفيذ

عطلة صيفية سعيدة

المدير المسؤول: محمد أبيهي
مجلة ليكسوس منشورة على شبكة أنترنيت الأرشيف
مدرجة ضمن قائمة دوريات بيانات HumanIndex دار المنظومة DAR ALMANDUMAH

حمل جميع أعداد المجلة من خلال زيارة الموقع التالي: www.lixus-magazine.net

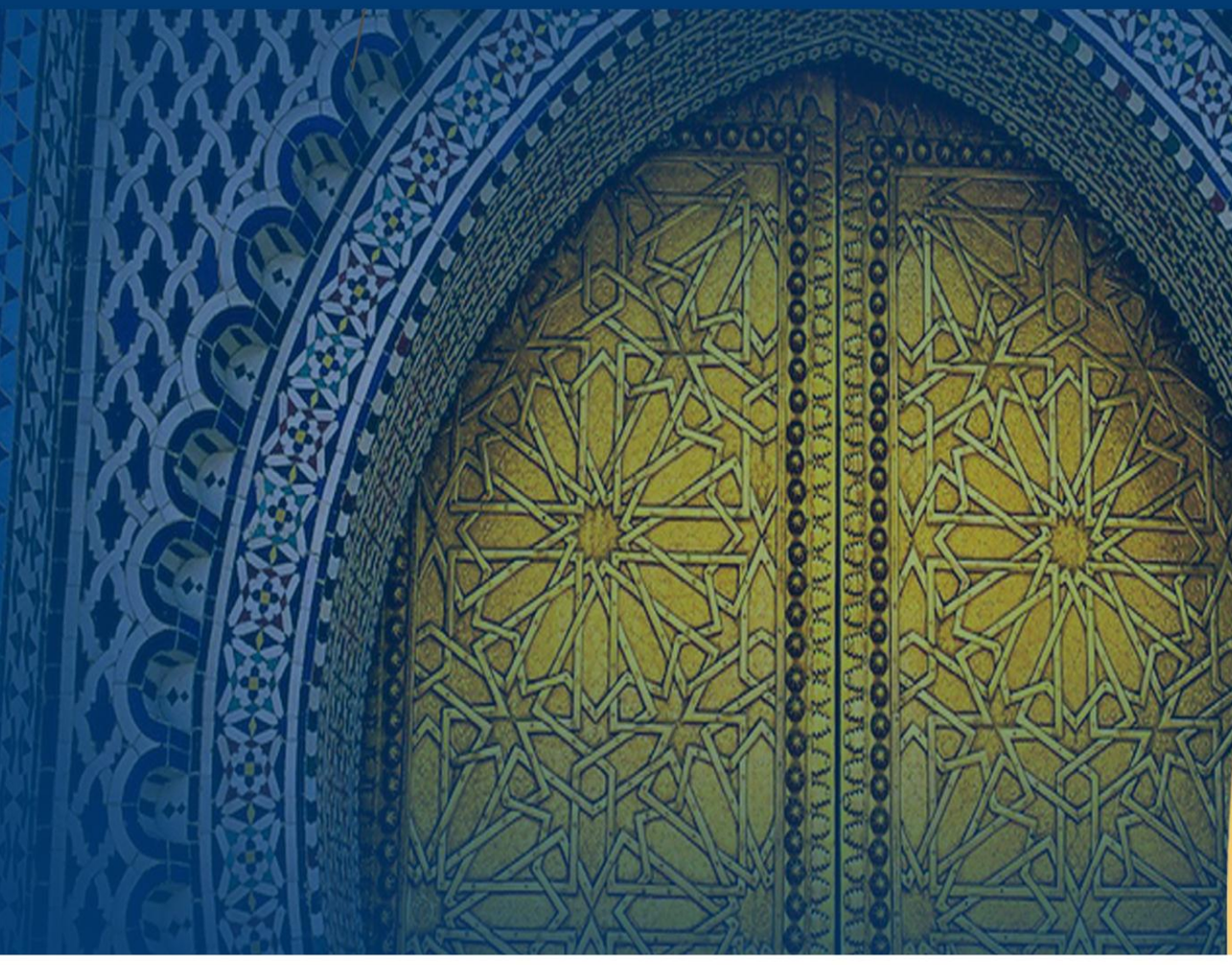

من ثمرات المطابع

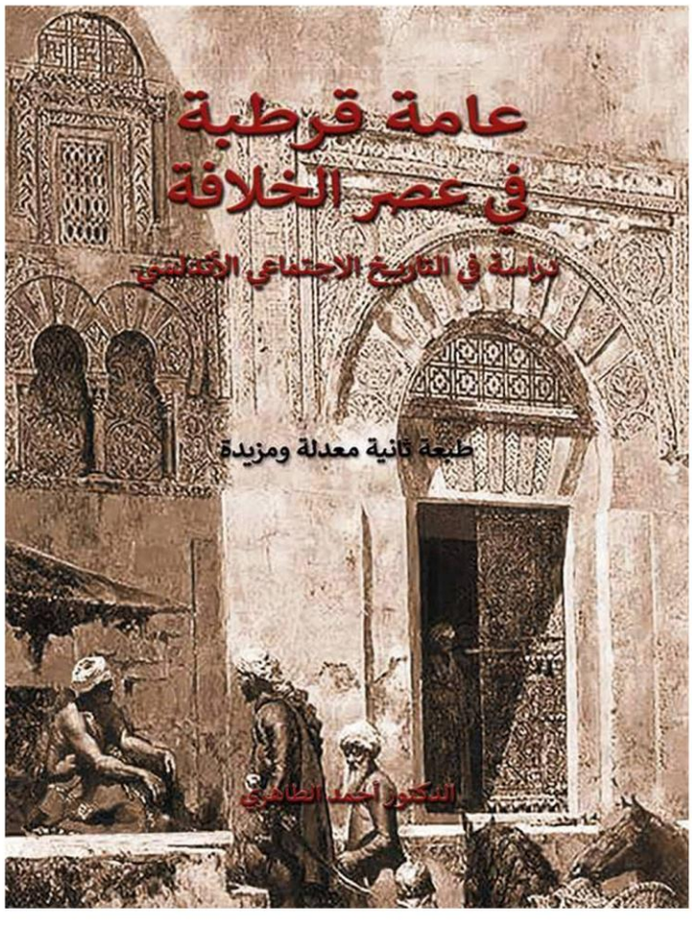

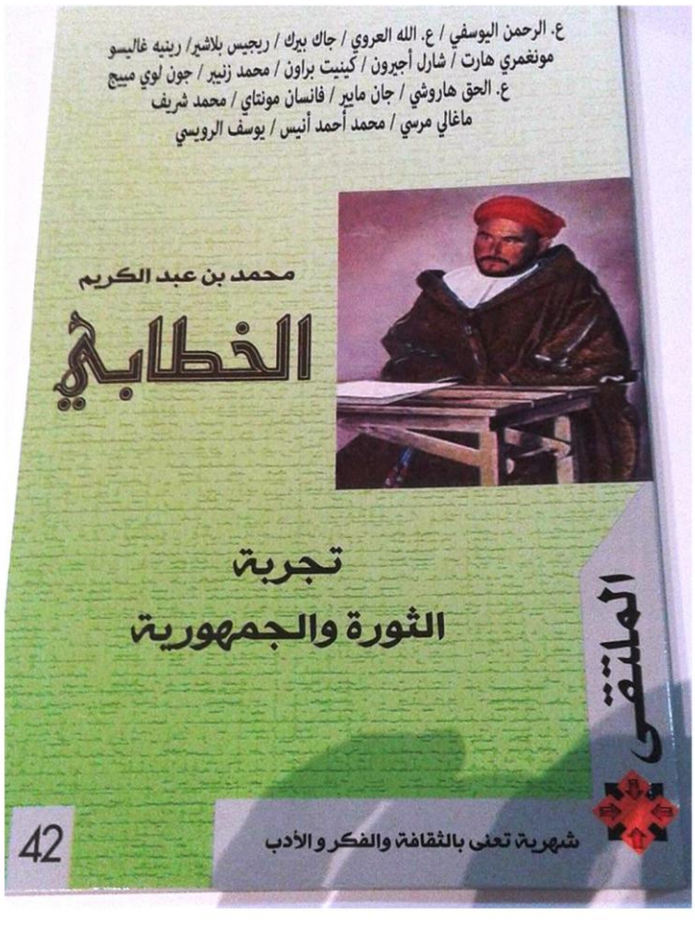

يتم استقبال المساهمات العلمية عبر البريد الالكتروني التالي:

lixus.magazine@gmail.com

الهيئة العلمية المشرفة على مجلة ليكسوس الالكترونية

حمل جميع أعداد المجلة من خلال زيارة الموقع التالي:

www.lixus-magazine.net

ـ دة.خذيجة الراجي
ـ أستاذة التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بشعبة التاريخ
ـ جامعة ابن زهر بأكادير ـ باحثة متخصصة في تاريخ الجنوب المغربي.
ـ عضوة هيئة التحرير ومنسقة محاور المجلة. البريد الالكتروني:khadija_rajy@yahoo.fr

ـ د.خالد الصقلي
ـ أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس -شعبة التاريخ
ـ باحث متخصص في تاريخ المغرب.
ـ عضو هيئة التحرير. البريد الالكتروني:sqallikhalid@hotmail.com

ـ د.المرون مصطفى
ـ أستاذ باحث في التاريخ المعاصر
ـ باحث متخصص في تاريخ شمال المغرب.
ـ عضو هيئة التحرير. البريد الالكتروني:mustaphaelmerroun@yahoo.es

ـ د.محمد أبيهي
-أستاذ التاريخ المعاصر بكلية الآداب والعلوم الانسانية – جامعة محمد الخامس– الرباط
ـ حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة محمد الخامس بالرباط.
ـ عضو هيئة التحرير ومدير المجلة البريد الالكتروني:lixus.magazine@gmail.com

ـ د.مصطفى الريس
ـ باحث في تاريخ المغرب المعاصر
ـ حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة أبي شعيب الدكالي بالجديدة.
ـ عضو هيئة التحرير البريد الالكتروني mustapharais149@gmail.com

ـ د.خالد أوعسو
ـ باحث في تاريخ المغرب المعاصر
ـ حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة محمد الخامس بالرباط.
ـ عضو هيئة التحرير البريد الالكتروني: ouassouk@yahoo.fr

ـ د.عبد الرزاق السعيدي
- باحث في تاريخ المغرب الوسيط
ـ حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة سيدي محمد بن عبد الله ـ فاس.
ـ عضو هيئة التحرير البريد الالكتروني: saidiabonihal@gmail.com

فهرس المحتويات

الموضوعات:	الصفحة
الافتتاحية:	5
منصوري حمو،العلاقات الروسية – المغربية مجهودات الوزير كْورتشاكوفْ الديبلوماسية – ملف العدد	7
صاحب عالم الأعظمي الندوي،رسائل أميرة هندية إلى سيدة إنجليزية تحكي قصة عن صداقة طويلة	16
كريمة نور عيساوي، شخصية إبراهيم عليه السلام : قراءة في المصادر اليهودية والدراسات الحديثة.	30
خالد الصقلي، المكتبات والتوثيق الرقمي للتراث العربي المخطوط:بين الأهمية والواقع والآفاق	35
محمد حماس، مذهب الخوارج بالمغرب خلال القرن الثاني الهجري	55
محمد فرح، إسهام قيادات احاحان في الحركات السلطانية إلى سوس	62
سمير بن الطالب،السمات العسكرية لقصبة دبدو المرينية بجهة الشرق	68
مولاي عبد الحكيم الزاوي،قراءة في كتاب عبد الرحيم الضاقية، درس الاجتماعيات من التخطيط إلى التنفيذ	76
أوالطالب عبد المجيد - حريش ياسين،الشرعية القانونية للوجود الإسباني بالمغرب	83
محمد ناصري،الطقوس الجنائزية بالغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي: سؤال المباح والمبتدع.	90

حمل جميع أعداد المجلة من خلال زيارة الموقع التالي: www.lixus-magazine.net

الإفتتاحية

محمد أبيهي
مدير مجلة ليكسوس
الالكترونية

لقد بدأ هذا المولود الالكتروني بإمكانيات متواضعة لهدف رسم معالم خط تحريري، واستطاع أن يوصل إسهامات الباحثين الشباب في التاريخ على نطاق واسع، فرغم ما يقال عن هذه التجربة من كونها لا تستجيب للمعايير العلمية المتعارف عليها،ولكونها عفن فكري، فمجهودات طاقم المجلة المتكون من أساتذة جامعيين وباحثين مرموقين في التاريخ، في اختيار المواضيع العلمية ذات العلاقة بتاريخ المغرب والمغارب مبني على رؤية علمية، وذلك من أجل جعل هذه المجلة الفتية مرجعا تاريخيا لطلاب العلم والباحثين في حقل الدراسات التاريخية بالمغرب وخارجه، فلقد استقبلت المجلة منذ تأسيسها المئات من المقالات العلمية، التي تناولت قضايا تاريخ المغرب والمغارب، كما تضمنت إسهامات في مناهج التاريخ والعلوم الإنسانية، وسعت من خلال ذلك الى جعل هذه المجلة منبرا للباحثين الشباب والمهتمين، وبهذه المناسبة أود أن أوجه شكري الخاص لكل المساهمين في هذه المجلة، وعلى ثقتهم في هذا المنبر العلمي.

يسعد طاقم مجلة ليكسوس الالكترونية أن يضع بين يدي القارئ الكريم هذا العدد من هذه المجلة الالكترونية، وأدرجت المجلة في هذا العدد ثلة من المواضيع المختلفة، وقد أسهم في اغناء محتوياتها باحثين من المغرب وخارجه، وهذا يعكس انفتاح مجلة ليكسوس الالكترونية على كل مختلف تخصصات العلوم الانسانية، وذلك لهدف تثمين التبادل المعرفي والعلمي بين الباحثين، وإيمانا من طاقم المجلة بضرورة ربط أواصر التعاون وتبادل الخبرات بين المهتمين في مختلف تخصصات العلوم الإنسانية، لتكون رافدا ومرجعا علميا للطلاب والباحثين بالجامعات المغربية.

وأملنا جميعا أن تكون هذه المساهمات العلمية إضافة بيبلوغرافية نوعية للقارئ الكريم، وذلك لتسليط الضوء عن بعض القضايا التاريخية، وكلنا أمل أن تكبر مجلة ليكسوس الالكترونية بفضل تفاعلكم معنا قراء وكتابا، وذلك لنشر المعرفة التاريخية على نطاق واسع، وننتظر مساهماتكم ومقالاتكم لاغناء هذا المشروع التاريخي الالكتروني، لكي يكون منارة وقنطرة للباحثين والتعريف بانتاجاتهم التاريخية.

وفي الختام نشكر كل من ساهم في إثراء هذا العدد من مجلة ليكسوس الالكترونية، وموعدنا سيتجدد إن شاء الله في العدد المقبل من هذا المولود الالكتروني، ليواصل إصداراته الالكترونية لتعم الفائدة لدى جميع المهتمين بالمعرفة التاريخية.

مجلة ليكسوس مدرجة ضمن قواعد
بيانات دار المنظومة للنشر الالكتروني.
www.mandumah.com

مجلة ليكسوس منشورة على شبكة
أنترنيت الأرشيف

https://archive.org/details/@lixus_magazine

يتم استقبال المساهمات العلمية عبر البريد الالكتروني
التالي:
lixus.magazine@gmail.com

تمهيد:

لا شك أن كتاب الباحثة الروسية المختصة في تاريخ العلاقات الروسية-المغربية تاتيانا اليونيدوفْنا موصاطوفْا،"روسيا والمغرب في الماضي البعيد القريب"(1)،والذي يتناول العلاقات الروسية-المغربية من القرن 18م إلى بداية القرن 20م؛يعتبر بحق "مرجعا قيما لا يمكن الاستغناء عنه بالنسبة لكل مهتم بهذا الموضوع".(2)وجدير بالقول أن ما يعطي لهذا الكتاب الأهمية،"اعتماده على مصادر روسية منسية في غياهب الأرشيفات ودور المخطوطات أو غير منشورة من قبل،بأرشيف موسكو الخاص بوزارة روسيا الخارجية،وبالأرشيف المركزي التابع للبحرية العسكرية الروسية بلينينغراد،وبأرشيف الجمعية الجغرافية الروسية،وبقسمي المخطوطات التابع لمكتبة لينن ومكتبة صالطيكوفْ شيدرن".(3)وللباحثة أيضا العديد من الدراسات،نذكر منها:

_" السفارة المغربية الأولىإلى روسيا" ،حول موضوع الزيارة الرسمية إلى روسيا سنة 1901م.

_"العلاقات الروسية-المغربية في القرن 19م"،يتناول مجموعة من المحطات التي مرت بها هذه العلاقات.

_"حول تاريخ العلاقات الروسية-المغربية في نهاية القرن 19م،المنشورة ب"الأرشيف السوفْياتي".

_"العلاقات الفرنسية-المغربية:من الحماية الى الاستعمار الجديد،1947م-1974م"،وهي تقرير حول أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ سنة 1979م.(4)

بتطرق الفصل الثاني من هذا الكتاب،والمعنون ب"أ.م.كُورتشاكوفْ والمغرب"،لمرحلة من مراحل تاريخ العلاقات الدبلوماسية والتجارية الروسية-المغربية،امتدت على طول مسار الحياة السياسية والدبلوماسية لهذه الشخصية،التي بذلت مجهودات قصوى لإقامةتمثيلية دبلوماسية في طنجة،من منطلق اعتقاده الراسخ "بان ازدهار الدولة الروسية رهين بنجاح سياستها الشرقية مع تركيا أولا،ومع بلدان الشمال الإفريقي ثانيا،وخاصة مع

المغرب".(5)وقد دافع ودفع نحو فتح قنصلية عامة في المغرب،مدججا بعدة تقارير كان يبعث بها إلى وزارة خارجية بلاده بكل الدلائل والمحفزات من أجل تحقيق هذا المبتغى.فقد أشار في إحدى هذه التقارير إلى ما كتبه خ.أ. ليفْين ،سلفه في منصب القائم بإعمال روسيا بفلورنسا،في تقرير بتاريخ 4-16شتنبر 1830م:"تعد كل من روسيا وبروسيا الدولتان العظيمتان الوحيدتان اللتان توجدان في حرب صامتة مع الإمبراطورية المغربية،وذلك بسبب غياب معاهدة تحدد شروط العلاقات المتبادلة.فاتفاقاتنا مع المرسى الكبير اقتصرت على تامين تجارتنا في البحر المتوسط،وتعويض الخسائر الناتجة عن القرصنة،ولم تعمم بحال من الأحوال على المغرب".(6)ولتصحيح ذلك الوضع اقترح كورتشاكوفْ عقد معاهدة سلم مع المغرب وسعى بكل جهده إلى تحقيق ذلك،مبرزا للمسؤولين في حكومة روسيا أهمية هذه المبادرة في ضمان سلامة السفن التجارية الروسية.(7)

إحياء العلاقات:

بعد مرحلة تراجع"الاتصال بين روسيا والمغرب مدة تزيد عن الأربعين عاما،حيث لم يعد احد يذكر تلك الصفحات الجميلة من تاريخ علاقاتهما التي كتبت خلال عهدي السلطان سيدي محمد بن عبد الله والإمبراطورة ايكاترينا الثانية"،(8)والتي شغلت حيزا زمنيا مهما امتد على طول الربع الأخير من القرن 18م؛عاد الاهتمام خلال ثلاثينيات القرن 19مالى إعادة ربط العلاقات من جديد بين البلدين.ويعود الفضل الكبيرفي ذلك إلى وزير الخارجية والمستشار الحكومي ألكسندر ميخايلوفْيتش كْورتشاكوفْ(1798-1883م)،والذي كان حينها قائما بإعمال روسيا بفلورنسا.

اهتم هذا الدبلوماسي كثيرا بقضية سياسة روسيا الخاصة بالبحر المتوسط،وذلك في إطار"الاهتمام الوطني بتجارة روسيا في حوض البحر الأبيض المتوسط"،(9)حيث وجه أنظار وزارة الخارجية إلى جدوى ربط علاقات تجارية مع المغرب؛وذلك لإحراز مكانة السبق على الدول الأوربيةالأخرى،والتحكم في الطرف الغربي من شمال إفريقيا عند مضيق جبل طارق.(10)ومن الدوافع الملحة على إسراع روسيا إلى تجديد ربط هذه العلاقات،"الحروب شبه الدائمة بين روسيا والدولة العثمانية الحاضرة بقوة في المنطقة...خاصة وأن المعلومات حول وضعية الدولة المغربية وعلاقتها بتركيا كانت غير واضحة بما فيه الكفاية لدى المسؤولين الروس".(11)

تقوية سبل التجارة:

اعتمد كْوربشاكوفْ لتحقيق هذا المطمح أساسا على كتابات وشهادات ياكوب كْرابيردي هيمسو.(12)فقد وضع تصنيفا لمذكرة هذا الأخير ضمّنها إحدى تقاريره،تحت عنوان:"ضرورة وفوائد عقد معاهدة صلح بين روسيا والمغرب،وتأسيس قنصلية الإمبراطورية الروسية بطنجة"،(13)وهي عبارة عن تلخيص موجز لكتاب "وصف جغرافي وإحصائي للسلطنة المغربية"،(14)الصادر باللغة الايطالية في جنوة سنة 1834م.

تناولت هذه المذكرة ،التي طعم بها كْورتشاكوفْ تقريره، الأساليب المتعارف عليها التي تساعد الدول الساحلية على تحقيق رصيد ايجابي من التجارة الخارجية،وهي:(أ)تقوية قدرة الاسطول التجاري.(ب)ضمان شروط ملائمة لصيانة التجارة.(ج)التوفر على ممثلين أكفاء.(د)مضاعفة الجهد البضائعي.(15)ثم يعقب في مذكرته هذه بان روسيا قد استجابت فقط للشرطين(أ)و(د)،وأغفلت المرتكزين الآخرين،ما يجعلها لا تستفيد من كل الإمكانيات.

تجاوز معضلة القرصنة:

تضمنت المذكرة أيضا مسالة القرصنة في مضيق جبل طارق،التي تتعرض لها السفن التي"كثيرا ما تنهب من قبل القراصنة المتربصين بها هناك؛إذ يقع طاقمها في الرق أو يتعرضوا كأسرى حرب لمعاملة وحشية،وهو ما تتبعته بمرارة في طنجة سنة 1816م".(16)ثم استعرض بعد ذلك قصصا لعمليات القرصنة التي تعرضت لها بعض السفن الروسية،كقصة ذلك البحار الروسي "قبطان سفينة من ريغا الذي قدم إلى مالقة.لكن في طريق عودته عبر المحيط المفتوح وقع في اسر قرصان سلا المشهور ماتيس فلوريس".(17)هذا الخطر الدائم والداهم،الذي تواجهه سفن الدول التي لم تعقد معاهدة سلام مع المغرب،ومنها روسيا،يكلف خزينتها مبالغ هامة لافتكاك الأسرى،ويضر بالغا بالمبادلات التجارية.

تجاوز الوساطة:

تناولت المذكرة السالفة الذكر،(18)مذكرة كْرابي ردي هيمسو المرتكزة على دراسته حول المغرب،التي اعتمدها

السيد كُورتشاكوفْ في تقريره،ضرورة عقد معاهدة صداقة مع المغرب وإنشاء قنصلية الإمبراطورية الروسية بطنجة،ليس لتنمية تصدير البضائع الروسية فحسب،ولكن كذلك لأجل استيراد منتظم لبضائع هذا البلد نحو موانئ البلطيق؛(19)وبالتالي تحقيق كامل التطلعات التجارية للإمبراطورية الروسية.ففي حالة إقرار السلم مع المغرب،يرى كُرابي ردي هيمسو،تستطيع السفن المبحرة تحت العلم الروسي تحقيق ذلك،بدل اعتمادها على وساطة الدول الأوربية وعلى رأسها السويد(الإبحار تحت إعلامها واستعمال سفنها)،وبالتالي تجاوز هذه الخدمات التي تضر مصالح روسيا وبهيبتها(ارتفاع النفقات وانخفاض أرباح التجارة).وقد أبدى هذا الدبلوماسي السويدي رأيه حول ضرورة"إحاطة روسيا علما بجملة من الآراءوالإدلاء ببعض الإحصاءات عن الواقعة،إذا ظهرت لدى الروسيين نية الإصغاءإلى نصائحه وإقامة علاقات رسمية مع السلطنة المغربية".(20)

استقرار سياسي وازدهار اقتصادي:

أعطى التقرير،والدراسة طيه،العديد من المعلومات المفصلة والدقيقة عن المملكة المغربية،ونظامها السياسي ،وحالتها الاقتصادية والدينية والثقافية،من خلال 12فصلا،هي كالتالي:1- البنية الحكومية.2- المناخ والتربة.3- الثروات الطبيعية.4- التقسيم الإداريللأقاليم.5- السكان.6- الاقتصاد الريفي.7- الصناعة.8- المستوى الحضاري.9- الحكومة والجيش.10- التسيير المحلي.11- المالية.12- الدبلوماسية.ثم الحق بها "وثيقة عن الوضع الراهن لعلاقات السلطنة المغربية مع الحكومات المسيحية الأوربيةوالأمريكية".(21)هذه الوثيقة الموجودة بالأرشيفات الروسية،تقيمها الباحثة على أنها واحدة من الشهادات الأكثر تفصيلا عن مغرب نهاية القرن 18م وبداية القرن19م.(22)

يتحدث التقرير عن شساعة المساحة:"تشغل مساحة المغرب الأقصى 106827.6كلم مربع،وتنقسم السلطنة إلى قسمين:الأول-مملكة فاس وعاصمتها فاس،ومملكة مراكش وعاصمتها مراكش؛ويطابق موريطانيا الطنجية القديمة.الثاني-وهو أربعةأقاليم:سجلماسة،تافيلالت،بلاد الجريد وسوس".(23)وفي معرض حديثه عن السكان،أورد دي هيمسو،استشهادا بانطباعاته ومشاهداته الخاصة،عددا قريبا من 9ملايين نسمة(8750000ن)،بكثافة سكانية تصل إلى 81ن/كلم2،"وهي اقل من كثافة السكان في الأندلس ومصر والجزء الأوربي من تركيا".كما أورد جدولا يتضمن توزيعا اثنوغرافيا للسكان على النحو التالي(ألف نسمة): الأمازيغ: 3900–المورسكيون: 3500 - العرب أو البدو(في هذا العدد 40الف من الشرفاء: 950 - زنوج غينيا والسودان: 250- اليهود:السكان المحليين والمنحدرين من اوربا: 149.6 -الأوربيين في الموانئ البحرية: 0.4– المجموع: 8750(24)

وبخصوص الاقتصاد الريفيأشار التقرير إلى "انه رغم الظروف الحسنة لتطوير الفلاحة،فقد لوحظ خلال 20 سنة حالة ركود.فمشاريع المزارع لم تحسن أبدا،وبالتالي أصبح كدحه مصدر ربح للكثيرين،بدءا من رؤساء الحكومات وانتهاء بمحصلي الضرائب العاديين".ثم يستطرد :"لتفادي هذا النهب،يسعى المزارع إلى توفير ما يحتاج إليه فقط،وإذا بدا له فائض يخفيه عن أسياده".(25)يشكل هذا النظام بلا شك عقبة في وجه تطور الفلاحة وتحسن وسائل الإنتاج.وفي المجمل،تعطي الدراسة صورة عن مغرب العقود الأولى من القرن 19م،الغني من حيث منتوجاته الفلاحية والحرفية والتجارة الصحراوية المسوقة نحو أوربا.وقد ذكر دي هيمسو السلطان مولاي عبد الرحمان باحترام قائلا بأنه "ولي العهد الحقيقي،القادر جدا على حكم البلاد وضمان السلم والأمن...يتحلى بالتماسك والادب،وفي نفس الوقت بالحصافة والطبع الحازم والثابت،وكذا بالاستقامة والعدالة النادرتين...".(26)ويتضح جليا أن الهدف من وراء تمجيد فضائل السلطان هو بغرض إقناع بطرسبورغ باستقرار الاوضاع الداخلية في المغرب.كما اعتمد أيضا في إثبات ذلك،على كون"الدخل الوطني العام يبلغ حوالي 2مليون و700الف قرش للنفقات،من ضمنها 450الف يخصص لنفقات الجند،ويرسل الفائض إلى الخزينة".(27)

جمع مؤلف دي هيمسو (28)معلومات قيمة عن مداخيل الخزينة السلطانية،والمتحصلة في الأصل من تسعة موارد صنفها كالأتي(ألف قرش): النايبة:ضريبة سنوية على الاقاليم وعلى الاملاك الارضية: 250- الأعشار:عشر محصول الزراعة او مداخيل تربية المواشي: 450-ضرائب الجمرك البحري: 300-ضرائب على تجارة جلب المحاصيل الزراعية الى المدينة.ضرائب على أصحاب الدكاكين والفرانون

وأصحابالمحلات التجارية والمصانع الخ: 950 - الجزية:اتاوة مفروضة على غير المسلمين وتشمل اليهود بكل السلطنة: 25-ضريبة على احتكار تجارة المنسوجات والكبريت والحديد وبضائع أخرى: 30-ضريبة استئجار الإبل والخيل والحمير وكذلك المساكن والحدائق الخ: 35-المغارم المحصلة بوجه خاص من أعضاء الجماعة التي كانت وراء القتل،وجرائم أخرى.مصادرة الممتلكات.غرامات أخرى: 90 -هدايا واتاوات الدول والقناصل الأجانب: 70 (29)

وقد أحصت الدراسة مصاريف السلطان على النحو التالي(ألف قرش): -نفقة الحاشية والحريم السلطاني: 80- نفقة إصلاح المباني العامة،الحصون والمقرات السلطانية: 36-هدايا مكة،الشرفاء والأماكن المقدسة: 48-رواتب بعض أعضاء الحكومة واعتمادات الإغراض النيابية:شراء الدخيرة للجيش والأسطول: 34-اعتمادات نفقات المرتزقة(الرواتب وشراء البزات الرسمية للمشاة العسكرية) : 460-نفقات الأسطول الحربي: 22-رواتب بعض الوكلاء التجاريين بأوربا وبوصايات العرش البربرية: 20 (30)

في معرض حديثه عن الجيش ،أشار التقرير إلىأن الجيش والأسطول كان نفذة النفقات الرئيسية،رغم انه تقلص بالمقارنة مع ما كان عليه في عهدسيدي محمد بن عبد الله."ففي سنة 1830م خفض عدد جند الجيش النظامي إلى النصف تقريبا؛حيث بلغ 15-16الف شخص"،والأسطول البحري الذي بلغ عدده في سنة 1793م"10 فرقاطات و4 شراعيات brigantinو14غليونة و19مركب خاص بالجنود،يسيرها 6الاف من البحارة الشجعان وذوي الخبرة،تقلص في سنة1930م إلى 3شراعيات أو غليونات،بحوالي 40مدفع و15 مركب خاص بالجنود،مرابطة بفرضتي العرائش وطنجة وقد وزع عليها60 مدفعا وطاقم يتكون من 400-500 بحار تحت قيادة 20 من الضباط الأوربيين الذين اضطروا إلى اللجوء لخدمة السلطان".(31)

اتفاقيات ومعاهدات:

تطرقت الدراسة أيضاإلى علاقات السلطان مع 12 حكومة أوربية،ومعاهدات السلم التي عقدتها.وأشارت بذلك إلى اتفاقية السلم مع بريطانيا سنة 1729م،ومع فرنسا واسبانيا سنة 1767م،ومع البرتغال سنة 1779م،ومع هولندا سنة 1732م،ومع السويد سنة 1763م،ومع الدانمارك سنة 1757م،ومع سردينيا سنة 1820م،ومع الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1795م،ومع النمسا سنة 1784م.(32)

تدابير ونفقات:

جاء في الفصل الأخير من المذكرة،مقالة ثانية تحت عنوان:"التدابير والنفقات المطلوبة لعقد اتفاقية سلم مع المغرب وإنشاء قنصلية الإمبراطورية الروسية بطنجة".تناولت هذه المقالة تناسب الريال الاسباني ،الذي كان متداولا في المغرب،مع الروبل الروسي،والمبلغ الذي وجب رصده لهدايا السلطان المغربي،وكذا نوعية هذه الهدايا التي يستحسن أن تكون عبارة عن"حاجيات اولية كبيرة الحجم وذات مظهر جميل...كرزم التيل الهولندي والباتيستا[قماش بيل رفيع]وغيرها من الأقمشة القطنية،والجوخ[نسيج من الصوف]الأحمر والارجواني والازرق والأبيض،ولعبةالداما،والديباج الفضي،والحرير،والساعات الجميلة،والسكر والشاي في علب الصفيح او بالأوعية البلورية،المعبأة بدورها في اسفاط خشبية مغلفة بسختيانات[جلد ماعز مدبوغ وملونmaroquin]،وبعض المسدسات...".(33)

أثارت المقالة أيضا الانتباه إلى حسن التفات سلطان المغرب إلى العاهل الروسي،وأكدت على أن "مولاي عبد الرحمان يكن مشاعر الاحترام والاعتراف الأكثرإطراءاللإمبراطور نيقولا الثاني"،متكهنة بنجاح مفاوضات عقد اتفاقية السلم الروسية-المغربية.وقد أيدت اطلاقها هذه بحادث الشراعية الروسية "الإمبراطورة اليزابيث"سنة1821م،عندما استمع السلطان ،الذي كان حينذاك واليا على موكادور،الى رجاء كرابي ردي هيمسو وسمح للوكيل القنصلي السويدي بالاتجاه تحت حمايته لتقديم المساعدة لقائد هذه السفينة.ثم أكدت المقالة ناصحة بعدم تفويض مصالح الرعايا الروس للقناصل الأجانب،وإنشاء قنصلية روسية مستقلة بطنجة برئاسة مقيم من الإمبراطورية الروسية.(34)

أوردت المذكرة أيضا،في معرض إدلائها بحجج الإقناع،وفي الفصل الخاص بنظام الدولة،مقارنة هذا الأخير بالنظام التركي الذي تعرف عنه أوساطالرأي العام الروسي الكثير،عكس النظام المغربي:"لا وجود هنا للعلماء أو المفتون الذين لهم صلاحيات ذاتية تجعلهم مستقلين عن الأمير...ليس هناك وزير ،ما يضطر معه السلطان للقيام

بكل شئ.وتشكل جماعة قليلة،منتقاة حسب أسلوبه،دائرته المقربة.هذه الشرذمةتتألف من بعض الكتاب المتضلعين في الشرائع وفي شؤون السلطنة.يعين احدهم مؤقتا وزيرا زسكريتيرا للسلطان،يكلف بالأساس بالعلاقات مع السفراء والقناصل الأجانب...ويعتبر السلطان نفسه اسمى يكثير من السلطان التركي؛ذلك لأنه يعد من أحفاد النبي وينتمي للمذهب المالكي،على أية حال،مثل رعاياه الذين يكنون الكره لتركيا".(35)

إخفاق الى حين:

رغم اهتمام وزارة الخارجية الروسية بتقرير أ.م.كْورتشاكوفْ،الذي عرضت مقترحاته حجج كْرابير دي هيمسو العديدة عن ضرورة عقد معاهدة بين روسيا والمغرب،بقصد تأمين الأسطول التجاري بمضيق جبل طارق،بحيث ضمنه النائب-المستشار الروسي كْ.فْ.نيسيلرود(36)تقريره الذي رفعه للقيصر؛فان سلطات بطرسبورغ الرسمية لم تدعم مقترح كْورتشاكوفْ المحتمل،وبالتالي تبخرت كل المجهودات التي بذلها هذا الأخير طيلة حياته السياسية والدبلوماسية،ولم يحقق الهدف الذي رصد له كل الجهد والاهتمام؛وهو إقامة علاقات دبلوملسية بين المغرب و روسيا،وفتح قنصلية بطنجة من اجل خدمة مصالح روسيا وفي مقدمتها ضمان سلامة سفنها التجارية،وتوسيع مدى التجارة الروسية حتى سواحل إفريقيا التي تفتقر إلى كثير من البضائع الروسية.(37)

عوامل الإخفاق:

ترجع الباحثة موصاطوفْا هذا الإخفاقإلى عدة عوامل،نذكر منها:

_ كتب في بداية التقرير،بخط يد القيصر نيقولا الأول:"يحال إلى وزير المالية"؛وهوالسيد ا.فْ.كانكين، محافظ وسياسي محنك.وقد كتب النائب-المستشار نيسيلرود،في رسالة منه بتاريخ 18دجنبر1830م،إلى وزير المالية هذا:"لي شرف إبلاغكم سيدي الكريم،انه نظرا لضعف ملاحتنا التجارية،أرى انه لا داعي بتاتا لإنشاء القنصلية المذكورة،وسيبقى كذلك حتى عقد اتفاقية تجارية مع المغرب...لا ينبغي الالتزام بمعاهدات من نفس النوع دون ضرورات ملحة وفائدة واضحة".(38)

_ لم تسمح الأوضاع المالية والاقتصادية بروسيا،ذات نظام الرق الإقطاعي،في هذه الفترة،بتطوير التجارة الخارجية.ولم تصمد البضائع الروسية المصنعة أمام منافسة بضائع فرنسا وانجلترا اللتان سيق أن عرفتا منذ مدة طويلة ثورة صناعية.

_ كانت مقدرة أسطول روسيا البحري في مستهل القرن 19م ماتزال ضئيلة الشأن كثيرا،لتحقيق نقل منتظم بين موانئ البحر المتوسط والبحر الأسود،وموانئ البلطيق.وهذا ما اجبر روسيا على استيراد البضائع بالسفن الأجنبية.

_ تم تصفح المسالة المغربية من خلال منشور العلاقات الروسية-التركية،حيث سعت روسيا إلى عدم إثارة سخط تركيا وتجنب توتر العلاقات الروسية-التركية الحديثة العهد.إلى جانب إدراكهاأن العلاقات الودية مع السلطان المغربي يمكن أن تصبح وسيلة ضغط فعالة على السلطان التركي.(39)اضافة إلى البعد الجغرافي الكبير لروسيا عن المغرب،والحروب المتعددة مع تركيا والتي أدتإلى خنق طرق الملاحة البحرية الروسية نحو المتوسط.وأيضا السياق الذي جاءت فيه هذه المجهودات، والمتسم ببداية الضغوط الأوربية على المغرب تمهيدا لاستعماره.

أوان القطاف:

يمكن القول بان جهود كْورتشاكوفْ المتواصلة لم تذهب سدى،بل كانت مثل تلك البذرة التي ستينع بعد حين.فقد فتحت هذه الجهود الباب واسعا أمام الاهتمام المتزايد بالمغرب من طرف ثلة من الروس،سياسيين وأدباء وعلماء ورحالة وغيرهم،بداية من عام 1845م حيث زار الأديب فْاسيلي بوتكين طنجة،وكتب في الفصل الخاص بطنجة من كتابه"رسائل حول اسبانيا":"جئت إلى طنجة قصد الالتقاء بأحفاد صانعي تلك الحضارة الأندلسية العظيمة في اسبانيا التي ماتزال معالمها شامخة في عصرنا هذا "(40)مرورا بعدة محطات بعد ذلك،منها الزيارة التي قام بها الرحالة الروسي افْيازيمسكي،او "ولد سلطان الموسك"كما يسميه الأرشيف المغربي،إلى طنجة ثم إلى مراكش،سنة 1881م.هذه الزيارة التي يرجح أنها لم تكن ذات هدف سياحي،كما يفهم من المصادر المغربية والروسية على السواء،بل "كان لها فائدة على العلاقات المغربية-الروسية".(41) لكي يتحقق مرمى كْورتشاكوفْ سنة 1898م بفتح ممثلية قنصلية في طنجة ،وتعيين السيد فْاسيلي باخيراخت(1851-1916م) بوصفه

وزيرا مقيما على رأس الممثلية الدبلوماسية الروسية في المغرب"(42)

خلاصة:

تكتسي مجهودات أ.م.كُورتشاكوفْ من اجل إقامة ممثلية دبلوماسية بطنجة،كتتويج لعقد اتفاقية سلم وتعاون بين روسيا والمغرب،على امتداد سنوات عدة قضاها سفيرا في طوسكانيا ثم قائما بإعمال بلاده بفلورنسا إلىأن صار وزيرا للخارجية ثم مستشارا للقيصر الروسي،أهمية بالغة أشاد بها كل الباحثين الروسيين المهتمين بالموضوع.فقد أدرك هذا الدبلوماسي بجلاء"أن ازدهار روسيا في المستقبل يتعلق أكثرفأكثر بنجاحات روسيا في الشرق،ليس بفضل العلاقات البارزة مع تركيا فحسب،بل ومع بلدان شمال إفريقياأيضا".(43)صاحبه هذا الإدراك في ما بعد عندما أصبح وزير خارجية روسيا ومستشارها الحكومي،وبالتالي فقد جسد عن استحقاق استمرارية سياسة ايكاتيرينا الثانية؛التي راعت ضرورة وفائدة تطوير علاقات السلم والصداقة مع كل الدول،وكذا الأهمية الكبرى التي كانت لروسيا كدولة عظمى،في تطوير التجارة الخارجية والملاحة البحرية في كل أركان البحر الأبيض المتوسط.

الهوامش:

1- يقع الكتاب في 203 صفحة من الحجم المتوسط،ويشتمل على 12فصلا عبارة عن"مقالات عن تاريخ العلاقات الروسية-المغربية من القرن18م الى بداية القرن 20م"(1)مراسلات ايكاتيرينا 2 مع سيدي محمد بن عبد الله.(2)أ.م.كْورتشاكوفْ والمغرب.(3)الكتاب الروس الذين كتبوا عن المغرب.الراي العام الروسي التقدمي والتوسع الكولونيالي في المغرب.(4)تثبيت العلاقات القنصلية.مؤتمر مدريد1880موالسياسة الروسية.(5)رحلة ك.ا.افْيازيمسكي من طنجة الى مراكش على صهوة حصان.(6)موقف روسيا من المسالة المغربية خلال العقد العاشر من القرن 19م.(7)اقامة علاقات دبلوماسية.(8)نشاط القنصلية الروسية العامة بطنجة.فْ.ر.باخيراخت (1898-1906م).(9)السفارة المغربية الاولى الى روسيا.(10)كتاب فْ.ا.نيميروفْيتش ضانتشينكو"بلاد الغروب الذهبي"،وكتابات اخرى عن المغرب.(11)نشاط البعثة الروسية بطنجة.ب.س.بوتكين(1907-1912).(12)الوكالة الدبلوماسية الروسية والحماية.

2- عبد الرحيم العطاوي،المغرب وروسيا.المغرب وروسيا عبر التاريخ.الكتابات الروسية حول المغرب،نشر كلية الاداب بالرباط، دار ابي رقراق،الرباط،2011،ص.25.

3- ترجمة لفصول مختارة من كتاب تاتيانا اليونيدوفْنا موصاطوفْا:روسيا والمغرب:الماضي البعيد والقريب،بحث لنيل الاجازة في التاريخ،اعداد الطالب حمو منصوري،اشراف الاستاذ حميد العزوي،رقم التسجيل 941864/90،كلية الاداب والعلوم الانسانية،جامعة مولاي اسماعيل،ص.3

4- عبد الرحيم العطاوي،المغرب وروسيا.المغرب وروسيا عبر التاريخ.الكتابات الروسية حول المغرب،نشر كلية الاداب بالرباط، دار ابي رقراق،الرباط،2011،ص.295-296

5- تاتيانا ليونيدوفنا موساطوفا ،روسيا والمغرب في الماضي البعيد والقريب، دار النشر ناؤوكا الخاصة بالادب الشرقي،موسكو،1990،ص.51 (الكتاب باللغة الروسية).

6- نفسه،ص.36-37

7- Les liens entre laRussie et le Maroc au 19e siecle,Tatiana Leonidovna MOUSSATOVA,hespéris-tamuda,vol.29,Fasc.1,1991,p.65

8- تاتيانا ليونيدوفنا موساطوفا ،روسيا والمغرب في الماضي البعيد والقريب، دار النشر ناؤوكا الخاصة بالادب الشرقي،موسكو،1990،ص.37 (الكتاب باللغة الروسية).

9- ارشيف سياسة روسيا الخارجية،ديوان وزارة الخارجية،1380،وثيقة 81،ورقة63.ايضا:س.ك.بوشوييفْ،أ.م.كْورتشاكوفْ،1961م

10-تاتيانا ليونيدوفنا موساطوفا ،روسيا والمغرب في الماضي البعيد والقريب، دار النشر ناؤوكا الخاصة بالادب الشرقي،موسكو،1990،ص.38.

11-عبد الرحيم العطاوي،المغرب وروسيا.المغرب وروسيا عبر التاريخ.الكتابات الروسية حول المغرب،نشر كلية الاداب بالرباط، دار ابي رقراق،الرباط،2011،ص.31.

12-"كْرابي ردي هيمسوGraberg de Hemsoهو سويدي واسع الاطلاع،واحد اكبر الخبراء في الشؤون المغربية خصوصا في النصف الاول من القرن19م.شغل منصب قنصل السويد في طنجة،حيث مثل

كذلك دولا اخرى في الفترة الممتدة من 1816الى 1822م،وهي السنة التي طرده السلطان من المغرب"جاء في :J.CAILLé,Consulat de Tanger,paris,1967,p.9et21.ورد عند عبد الرحيم العطاوي،المغرب وروسيا.المغرب وروسيا عبر التاريخ.الكتابات الروسية حول المغرب،نشر كلية الاداب بالرباط، دار ابي رقراق،الرباط،2011،ص.39

13-ارشيف سان بتيرسبورك الرئيسي،1-1830،9،وثيقة 17،ورقات 3-34

14- De Hemso GRABERG,Specchio geografico e statistico dell'imperio di marocco,genova,1832,2e ed.Genova,1834

15-تاتيانا ليونيدوفنا موساطوفا ،روسيا والمغرب في الماضي البعيد والقريب، دار النشر ناؤوكا الخاصة بالادب الشرقي،موسكو،1990،ص.37

16-نفسه،ص.38

17-نفسه،ص.38

18-تشتمل "بيبليوغرافيا البلدان البربرية"(القسم 4:"بيبليةغرافيا المغرب")،التي وضعها الانجليزيان ل.بلايفيرL.Playfairو ر.براونR.Brown،الصادرة سنة 1892م،على مؤلفات كْرابي ردي هيمسو الكثيرة،منها:"رسائل من طنجة 1818-1819م"،"مقالة مصنفات المغرب الاقصى التاريخية"،"مختصر التجارة المغربية"،"حول مسالة لغة الامازيغ المسمون عادة بالبربر"،"قاموس الاسماء الجغرافية للسلطنة المغربية"،امدت الاوربيين بمساهمة عظيمة في استقصاء المغرب.

19-تاتيانا ليونيدوفنا موساطوفا ،روسيا والمغرب في الماضي البعيد والقريب، دار النشر ناؤوكا الخاصة بالادب الشرقي،موسكو،1990،ص.39-49

20-نفسه،ص.40

21-في قسم فريد من المقالة،لايوجد بالكتاب،وصف لعوامل تاريخية عن التجارة والملاحة الروسيتين في البحر الابيض المتوسط.وربما ساعد كْورتشاكوفْ كْرابير بامداده بمعلومات ضرورية مأخوذة من مصاددر روسية.

22-تاتيانا ليونيدوفنا موساطوفا ،روسيا والمغرب في الماضي البعيد والقريب، دار النشر ناؤوكا الخاصة بالادب الشرقي،موسكو،1990،ص.41

23-نفسه،ص.42

24-نفسه،ص.42

25-نفسه،ص.43

26-نفسه،ص.46

27-نفسه،ص.49

28-يتالف الكتاب(وصف جغرافي واحصائي للسلطنة المغربية)،الذي يقع في 364صفحة،من ثلاثة اقسام وملحقات.يقدم القسم الاول دراسة طبيعية عن المغرب:الظروف الطبيعية،المناخ،التربة،الموارد الطبيعية،ونظام السلطنة الاداري.ويتناول القسم الثاني مسألة الديمغرافيا،الحرف الزراعية الرئيسية،الصناعة،التجارة،التمدن،العلوم والثقافات.وفي القسم الثالث وصف لنظام السياسة الحكومية،التسيير المحلي،الشرطة،الجند،ومجال العلاقات الخارجية.وفي الختام بسرد الكتاب "تاريخ المغرب القديم والحديث".جاء ملحق الكتاب تحت عنوان"تعليقات،تصويبات وملحقات"،ويتضمن

تعاليق واسعة ذات طابع تاريخي،وملاحظات عن مراحل الكتاب،وقاموس للامازيغية والدارجة،وقائمة للممثلين القنصليين للدول الاجنبية بطنجة(12دولة).نشر الكتاب ايضا رسائل السلطان المغربي وشخصيات اخرى الى كْرابي ردي هيمصو،وبه كذلك صور لمراكش وطنجة والرباط وموكْادور ولمغارة.الحقت بالكتاب خريطة كبيرة للمغرب دقيقة ومفصلة جدا.احتفظ هذا الكتاب بقيمته حتى القرن 20م،فقد كان واحدا من المصادر الاساسية التي اعتمدها الباحث البولوني أ.زوبنسكي عند كتابة تاريخ المغرب خلال القرن 18م(A.Dziubinski,Miçdzy mieczem glodem i dzuma Maroko w latach 1727-1830)

29-تاتيانا ليونيدوفنا موساطوفا ،روسيا والمغرب في الماضي البعيد والقريب، دار النشر ناؤوكا الخاصة بالادب الشرقي،موسكو،1990،ص.45.

30-نفسه،ص.45.

31-نفسه،ص.46.

32-نفسه،ص.47.

33-نفسه،ص.48.

34-نفسه،ص.48.

35-نفسه،ص51

36-ارشيف سياسة روسيا الخارجية،ديوان وزارة الخارجية،1830،وثيقة 81،ورقات 129-136مكرر.

37-تاتيانا ليونيدوفنا موساطوفا ،روسيا والمغرب في الماضي البعيد والقريب، دار النشر ناؤوكا الخاصة بالادب الشرقي،موسكو،1990،ص.49-50

38-ارشيف سياسة روسيا الخارجية،ارشيف سان بيترسبورك الرئيسي،1-9،وثيقة17،ورقات35-35مكرر.

39-تاتيانا ليونيدوفنا موساطوفا ،روسيا والمغرب في الماضي البعيد والقريب، دار النشر ناؤوكا الخاصة بالادب الشرقي،موسكو،1990،ص.49.

40-عبد الرحيم العطاوي،المغرب وروسيا.المغرب وروسيا عبر التاريخ.الكتابات الروسية حول المغرب،نشر كلية الاداب بالرباط، دار ابي رقراق،الرباط،2011،ص.44.

41-التاريخ الدبلوماسي للمغرب.من اقدم العصور الى اليوم،المجلد العاشر،عهد العلويين2،عبد الهادي التازي،1989،ص.128.

42-العلاقات الروسية المغربية في القرن 19م،ت.أ.موصاطوفْا،ترجمة:عبد الرحيم العطاوي،دار النيابة،عدد18،ص.29.

43-تاتيانا ليونيدوفنا موساطوفا ،روسيا والمغرب في الماضي البعيد والقريب، دار النشر ناؤوكا الخاصة بالادب الشرقي،موسكو،1990،ص.51.

توجد في مكتب الهند وفي المكتبة البريطانية بلندن مؤلفات ومخطوطات ورسائل ووثائق نفيسة ونادرة قلما نجد مثلها في مكتبات أخرى. ويتعلق الكثير من تلك النفائس والكنوز العلمية بالهند الإسلامية ورموزها الملكية ومشاهيرها العلمية والثقافية والسياسية. وهنالك مجموعة نفيسة من الرسائل التي بعثت بها الأميرة سلطان كيخسرو جهان بيگم، حاكم إمارة بهوپال، إلى زوجة أحد الضباط الإنجليز في الهند والتي تسرد قصة جميلة عن الصداقة بين الأميرة وزوجة ذلك الضابط. [1]

كان جورج باتريك رانكين (George Patrick Ranken) عقيدًا وقائدًا لكتيبة الجيش الپنجابي رقم 46. [2]

وقد تمركزت كتيبته تلك في إمارة بهوپال الهندية في أوائل القرن العشرين. وكان منصبه يتطلب منه التردد على بلاط الأميرة والقيام بالعديد من المهام الرسمية، وحضور المناسبات الرسمية في بلاطها. وفي إحدى تلك الزيارات الرسمية تعرفت زوجه آدا (Ada) على الأميرة صاحبة السمو نواب سلطان جهان بيگم المتوفاة 1348هـ/1930م، التي حكمت بهوپال منذ عام 1318هـ/1901م حتى عام 1344هـ/1926م. وقد بدأت الصداقة بينهما منذ ذلك الوقت واستمرت لأكثر من عشرين عامًا. وقبل تعريف تلك الرسائل وبعض مضامينها، يستحسن تقديم نبذة عن إمارة بهوپال والأميرة سلطان جهان بيگم.

قيام إمارة بهوپال:

أسسها دوست محمد خان المتوفى 1140هـ/1728م. وكان جنديًا من اليشتون في الجيش المغولي، وعاصر السلطان

([1]) Letters from Nawab Sultan Jahan Begum of Bhopal, 1906-1930, Mss. Eur. F182/8.

([2])راجع ترجمته في الجريدة الرسمية الصادرة في لندن بعنوان:
The London Gazette, 28 January, 1916, p. 1140.

أورنگ زيب عالمگير المتوفى 1118هـ/1707م، وبعد وفاة الأخير، ترك عمله في الجيش المغولي، وبدأ يمارس أنشطة المرتزقة بحيث كان يقدم خدماته العسكرية للعديد من القادة المحليين في منطقة مالوا غير المستقرة سياسيًا.[1] وفي عام 1120هـ/1709م، تمكن من اكتراء إمارة بيراسيا الواقعة في بهوپال الحالية. واستطاع بذلك تكوين الإدارة والجيش الخاصة به، وتطور جيشه تطويرًا جيدًا في رعايته وإشرافه، وفي وقت لاحق اغتصب دوست محمد إمارة راجيوتية في منكلا گره، وإمارة راني كملابتي، وبعد وفاة إميرات تلك الإمارة اللواتي كان يقدم لهن خدمات مرتزقة، قام بضم العديد من الأراضي الأخرى في مالوه إلى ولايته في بهوپال.[2] وخلال أوائل 1132هـ/1720م، أسس خان مدينة محصنة سمي بـ" بهوپال"، ولقب نفسه بـ "نواب".[3]

وفي وقت لاحق أصبح دوست محمد خان من مقربي جماعة الإخوان السيديين الذين وصلوا إلى مكانة عالية في البلاط المغولي بدهلي، وكان لهم تأثير قوي في الشؤون السياسية والإدارية المغولية، بل كانوا يعدون أحد أهم صانعي الملوك المغوليين في تلك الفترة التاريخية. وإن دعم خان السياسي والعسكري لسيديين ضد منافسهم الأمير المغولي نظام الملك جلب له عداء شديد من الأخير حيث إنه غزا بهوپال في مارس عام 1136هـ/1724م،[4]وأجبر خان على التخلي عن جزء كبير من أراضيه، وتسليم ابنه كرهينة لدى نظام الملك وقبول سيادته وسلطانه.[5] وبعد وفاة دوست محمد خان عام 1140هـ/1728م، بقيت ولاية بهوپال تحت سيادة نظام الملك، كما كانت تدفع ضرائب للمراهتا الذين هزموا المغول ونواب بهوپال في معركة بهوپال في عام 1149هـ/1737.

شيد دوست محمد خان العديد من المنشآت الدينية والاجتماعية، ومن أهمها تأسيس مدينة إسلام نگر التي جعلها عاصمة لإمارته، وأتي البنائيين والمعماريين من أفغانستان لتجسيد الثقافة الإسلامية في تلك المنشآت الدينية والاجتماعية في إمارته.[6] وفي وقت لاحق نقل نواب فيض محمد خان المتوفى 1190هـ/1777م عاصمة الإمارة من إسلام نگر إلى بهوپال. وكان رجلًا متدينًا، وكانت الإمارة تحكمها زوجة أبيه ممولا بائي. ثم دخلت الإمارة تحت حكومة الوصاية البريطانية عام 1233هـ/1818م، وحكموها أحفاد دوست محمد خان حتى عام 1368هـ/1949م.[7]

وفي الفترة ما بين عامي 1234-1368هـ/1819-1926م حكمت تلك الإمارة أربع نساء "بيگمات"، وكان ذلك الأمر مختلفًا وفريدًا في تاريخ الهند الإسلامي؛ وذلك

([1])John Falconer; James Waterhouse, The Waterhouse albums: central Indian provinces, 2009.

([2])Kamla Mittal, History of Bhopal State, (Delhi: Munshiram Manoharlal, 1990), p. 2.

([3])Arnold Wright, ed. Indian states: a biographical, historical, and administrative survey, (Delhi: Asian Educational Services, 1922), p. 57.

([4])اسمه الكامل مير قمر الدين خان صديقي المتوفى 1160هـ/1748م، كان من كبار النبلاء المغول من أصل هندي وتركي، وهو الذي أسس إمارة آصف جاهية في حيدر آباد الدكن التي حكم فيها منذ عام 1125هـ/1714م إلى عام 1160هـ/1748م. لقبه السلطان أورنگ زيب "چين قليچ خان" نظير خدماته السياسية والعسكرية؛ وذلك في عام 1101هـ/1690م، أما لقبه نظام الملك فمنحه السلطان فروخ سير في عام 1124هـ/1713م، كما لقبه السلطان محمد شاه بـ"آصف جاه" في عام 1137هـ/1725م. لمزيد من التفاصيل عن حياته وأعماله السياسية والعسكرية راجع:

William Irvine, Later Mughals, (Delhi: 1922), Vol. 2, p. 271; Jaswant Lal Mehta, Advanced study in the history of modern India 1707–1813, (Delhi: Sterling 2005), p. 143; Sen, Sailendra, A Textbook of Medieval Indian History, (Delhi: Primus Books 2013), pp. 193-194.

([5])William Hough, A brief history of the Bhopal principality in Central India, (Calcutta: Baptist Mission Press, 1845), pp. 1-4.

([6])Shaharyar, M. Khan, The Begums of Bhopal (illustrated ed.). I. B. Tauris, 2000, pp. 1-29.

([7])S. R. Bakshi & O. P. Ralhan, Madhya Pradesh Through the Ages, (Delhi: Sarup & Sons., 2007), p. 360.

لأنه في القرن التاسع عشر الميلادي كان الساحة السياسية في الهند مختلفة تمامًا، ولم يكن النساء يتمتعن بالحرية الكافية مثل الرجال للسير معهم على قدم المساواة. وفي حالة العائلات المالكة، كان الحكام يتم اختيارهم من الرجال في معظم الحالات، ومع ذلك، فإننا نصادف عددًا قليلًا من النسوة الهنديات اللواتي حكمن بعض الإمارات الإسلامية المستقلة التي لم يكن لديها وريث شرعي من الذكور. وفي الواقع اهتم والدهن بتربيتهن تربية علمية وثقافية وسياسية، ودربهن على إدارة شؤون البلاد وعلى الاختلاط بأركان الدولة والجيش إلخ بما فيه الكفاية لتولية مقاليد الحكم بعد وفاتهم. وفي حالة وجود حاكم مسلم بدون وريث شرعي، كانت مهمة المرأة التي كانت تجلس على العرش خليفة لوالدها مهمة صعبة للغاية. فكانت عليها أن تتحلي بالحكمة والبسالة والمهارة في إدارة الدولة من أجل الحفاظ على الحكم والإدارة وإبقائها في سلالتها. وفي مسألة حكم الدولة، كان عليهن ألا يكن أدنى درجة من الرجال والعمل جنبًا إلى جنب معهم في ممارسة الحكم والإدارة. وهكذا، ففي حالة السيدات الحاكمات في إمارة بهوپال في القرن التاسع عشر الميلادي، لم يحكمن تلك النسوة حكمًا ناجحًا فحسب، بل قمن بنحت مكانة خاصة لأنفسهن في تاريخ شبه القارة الهندية. [1]

فقد تولت قدسية بيگم مقاليد الحكم كأول امرأة تتولي الحكم في إمارة بهوپال، وخلفتها ابنتها الوحيدة سكندر بيگم، والتي خلفتها ابنتها الوحيدة شاه جهان بيگم التي تركت ابنتها الوحيدة كيخسرو جهان بيگم التي سنكتب ترجمتها المختصرة في السطور التالية. [2] ويمكن وضع قائمة خاصة نذكر فيها أسماء أولئك الأمراء وتلك السيدات الأميرات اللواتي حكمن بهوپال إبّان تلك الحقبة الزمنية:

-دوست محمد خان (1118-1140هـ/1707-1728م)

-نواب يار محمد خان (1140-1154هـ/1728-1742م)

-نواب فيض محمد خان (1154-1190هـ/1742-1777م)

-نواب غوث محمد خان (1221-1241هـ/1807-1826م)

-نواب وزير محمد خان في مكان غوث محمد خان (1221-1230هـ/1807-1816م).

-نواب نظر محمد خان ابن نواب وزير محمد خان (1230-1234هـ/1816-1819م).

-نواب قدسية بيگم (1234-1355هـ/1819-1837م).

-نواب جهانگير محمد خان زوج سكندرا بيگم (1355-1259هـ/1837-1844م).

-نواب سكندرا جهان بيگم (1276-1284هـ/1860-1868م).

-نواب سلطان شاه جهان بيگم (1259-1276هـ/1844-1860م ومنذ عام 1284هـ/1868م إلى عام 1318هـ/1901م).

-نواب كيخسرو جهان بيگم (1318-1344هـ/1901-1926م).

-نواب حميد الله (1344-1368هـ/1926-1949م).

ترجمة وجيزة لسلطان جهان بيگم كيخسرو:

اسمها الكامل الحاجة نواب بيگم سيدة سلطان جهان التي تعد من أبرز السيدات الهنديات اللواتي حكمن الهند أو أي إمارة من إمارتها حكمًا طويلًا وناجحًا، بحيث إن مقاليد الحكم آلت إليها في عام 1318هـ/1901م عقب وفاة والدتها نواب شاهجهان بيگم، واستمرت في الحكم إلى عام 1344هـ/1926م أي قبل وفاتها بأربع سنوات. وتنبغي الإشارة هنا إلى أن "سلطان جهان" هو اسمها الحقيقي وليس لقبها كيخسرو كما يظن البعض. ولدت الأميرة في بهوپال، وكان الطفل الوحيد الناجين لوالديها نواب شاهجهان بيگم وزوجها الجنرال ناصر الدولة، نواب باقي

(1)Shahraryar M. Khan, The Begums of Bhopal: A Dynasty of Women Rulers in Raj India, (London: I. B.Tauris, 2000).

(2) Claudia Preckel, Begums of Bhopal, Lotus Collection, Roli Books, 2000.

محمد خان بهادر المتوفى 1283هـ/1867م. وفي عام 1284هـ/1868م أعلن رسمياً بأنها وريثة وحيدة لإمارة بهوپال، وذلك في أعقاب وفاة جدتها سكندرا بيگم، إلا أن والدتها شاهجهان بيگم اختيرت كوصية لها لإدارة الشؤون السياسية والإدارية. [1] وفي عام 1318هـ/1901م خلفت سلطان جهان بيگم والدتها عند وفاة الأخيرة، ولقبت بـ"نواب بيگم لدار إقبال بهوپال". [2]

وبما أنها تدربت على شؤون الحكم والإدارة في عهد والدتها، فتمكنت من تنظيم شؤون الدولة وإدارتها بكل مهارة وبراعة. واهتمت منذ بداية حكمها بتطوير الجهود ومواصلتها والتي بدأتها والدتها في مجال التعليم العام والتعليم النسائي. وقد أحدثت إصلاحات عديدة ومهمة في الشؤون السياسية والإدارية والتعليمية. وقامت بتأسيس العديد من المؤسسات التعليمة في داخل بهوپال وخارجها، وفي عام 1336هـ/1918م جعلت التعليم الابتدائي مجانًا وإلزامًا بمختلف مراحله وأنواعه للجميع دون أي تمييز. وركزت خلال فترة حكمها تركيزاً خاصًا على التعليم العام لا سيما على تعليم الإناث، ومن أجل تحقيق تلك الغاية، قامت ببناء العديد من المدارس والمعاهد الفنية مع زيادة الكوادر التعليمية المميزة والمؤهلة في تلك المدارس والمعاهد. [3]

وبالإضافة إلى إنشاء المدرسة البلقيسية والفكتورية للبنات في بهوپال، أقامت الأميرة المدرسة السلطانية وألحقتها بإدارة التعليم في مدينة إله آباد خارج إمارة بهوپال. [4] وكانت الأميرة تشجع العلماء بواسطة تقديم منح مالية مغرية لهم على إعداد المؤلفات في العلوم الإسلامية والآداب الأردية والإنجليزية، والتي كانت تطبع على نفقتها الخاصة في المطابع الأميرية العديدة التي أنشئت لطباعة الكتب العلمية والدينية بالمجان.[5] وقد ذكر بعض الباحثين تلك النجاحات التي تحققت في عهد حكمها في مجال التعليم العام وتعليم المرأة ورفع مستواها الاجتماعي والديني والاقتصادي، فكتب أحد الباحثين قائلًا:"بحلول وقت وفاة سلطان جهان بيگم في عام 1348هـ/1930م، تحققت إمارة بهوپال العديد من النجاحات في مجال تعليم الإناث وتثقيفها، وكذلك في أماكن أخرى بفضل رعايتها وإشرافها الكريمة. وبدأت إمارة بهوپال تجني ثمار مجهودات الأميرة في القطاع التعليمي بظهور الفتيات المتعلمات في المدارس الأهلية والخاصة وفي المؤسسات النموذجية الأخرى، واللواتي استطعن إنجاز العديد من المهام المتوقعة من النساء المسلمات في أوائل القرن العشرين. وقد وفرت الأميرة لهن فرص لتعليم العلوم الإسلامية والفنون النسائية التي نفثت فيهن روح الوعي والإدراك بحقوق المرأة وواجابتها في الإسلام، فضلًا عن كيفية التحلي بالمعارف العلمية الحديثة وبمهارات آداب السلوك الأسري والاجتماعي وبفن التعامل في العلاقات الخاصة والعامة إلخ. وشهدت بهوپال أيضًا في عهدها الزاخر وضع برامج خطط للتدريبات على مستوى القرى

([1])Khan, Shaharyar M., The Begums of Bhopal: A Dynasty of Women Rulers in Raj, India, (London: I.B. Tauris, 2000), p. 144.

([2]) "The only woman ruler in India-Her Highness the Begum of Bhopal," The Graphic, January 2, 1914.

([3])حول نشاطاتها في تحسين تعليم البنات والنساء ورفع مستوى الوعي الصحي والتربوي لديهن راجع المصادر التالية:

Speech of H.H. Nawab Sultan Jahan Begam of Bhopal at the Maternity & Child Welfare Exhibition held at Delhi on the 23rd February 1920, Bhopal: Sultania Press, 1920; Speech by Princess Maimoona Sultan Shah Bano Begam at the Maternity & Child Welfare Exhibition held at Delhi on the 23rd February 1920, Bombay: The Guru Datt Printing Works; Maimoona Sultan, "*An Appeal to Indian Ladies*" in Keep the Baby Well, Calcutta: Superintendent Government Printing, 1920.

([4])رضية حامد، نقوشهوپال، ط: فائن آفسيت وركس اردو بازار 1996م، ص145.

([5])Siobhan Lambert-Hurley, Muslim Women: Reform and princely patronage, (Oxon: Routledge 2007), pp. 73-99.

والأرياف، وكذلك برنامج للتعليم الإجباري، ومن أجل تحقيق تلك الغايات المنشودة، أنشئت مدارس للأرامل والأيتام والفتيات الفقيرات في ربوع الإمارة. وقد تظهر من تلك النشاطات اهتمام الأميرة الخاص بتحسين الوضع التعليمي للنساء من الخواص والعوام في المدن والقرى، في وقت كان يركز فيه معظم الإصلاحين المسلمين على إرضاء مجموعة من العملاء الأثرياء ذوي الأهيبة". [1]

وكانت الأميرة نفسها متعلمة ومثقفة جدًا، فألفت أكثر من أربعين كتاباً في مختلف المواضيع، ومنها على سبيل المثال: أختر إقبال،[2] حيات شاهجهاني أي سيرة النواب سلطان شاهجهان بيگم،[3]، خانه داري، أي مهمات النساء في كيفية إدارة شؤون البيت،[4] هداية الزوجين،[5] حيات قدسي، [6] سبيل الجنان، [7] عفت المسلمات أي الحكمة من الحجاب [8]، سيرة مصطفى،[9] فرائض النساء،[10] إسلام مين عورت كان مرتبه أي مكانة المرأة في الإسلام،[11] ، مدارج الفرقان، ونصائح، ومقالات سلطاني، وسفرنامه حرمين شريفين وغيرها.[12]

وعلى الرغم من أن تلك الكتب سطرتها الأميرة باللغة الأردية إلا أنها تعد مساهمة جيدة في الثقافة الإسلامية، وكثير من مواضيع تلك الكتب تعود أصولها بالعربية لا سيما فيما كتبت في الدراسات الإسلامية. وفي عام 1338هـ/1920م اختيرت الأميرة أول رئيسة للجامعة الإسلامية بعليگراه، وخصصت منح مالية سخية لصرفها على تطوير تلك الجامعة الفتية حينئذ، وبذلت مجهودات مضنية للرقي بالمستوى العلمي والأدبي لتلك الجامعة. وتعد أول مرأة تتولى منصب رئيسة لتلك الجامعة إلى يوم الناس هذا. وبقيت في ذلك المنصب إلى آخر حياتها.[13] وعندما رأست الأميرة أول حفل للتخرج أقيم للجامعة المذكورة عام 1340هـ/1922م، ألقت فيه خطاباً قيماً جمعت فيه نقاطًا مهمة لقيام مجتمع إسلامي مثقف يساير تغييرات العهد الجديد. [14] وكذلك اختيرت كأول رئيسة لمؤتمر عموم الهند للتعليم والثقافة. [15]

ولم تقتصر نشاطاتها ومجهوداتها في مجال تطوير التعليم فحسب، بل قامت بإصلاحات عديدة في نظام الضرائب، وفي الجيش، وفي الشرطة، وفي نظام القضاء والسجون، وكذلك بذلت مجهودات كبيرة في تحسين القطاع الزراعي، ولأجل ذلك شيدت قنوات الري الواسعة والممتدة، وقامت ببناء مجموعة كبيرة من أعمال المرافق العامة مثل الطرق والمباني والمشافي إلخ. كما أسست مجلسًا تنفيذياً وتشريعيًا في عام 1340هـ/1922م، وبدأت انتخابات

([1])Ibid, p. 97.

([2])طبع في مطبعة مفيد عام، أگرا عام 1914م.

([3])طبع في مطبعة مفيد عام، أگرا عام 1914م.

([4])طبع في مطبعة سلطانية،بهوپال عام 1916م.

([5])طبع في مطبعة (Weekly Newspaper)، مدراس، عام 1917.

([6])طبع في مطبعة سلطانية،بهوپالعام 1917م.

([7])طبع في مطبعة ملكبهوپال عام 1917م.

([8])نشر لأول مرة باللغة الأردية في عام 1918م في مطبعة مفيد عام،بهوپال، ثم أعيد نشره مع الترجمة الإنجليزية له على نطاق واسع تحت عنوان (Al-Hijab or Why Purdah is Necessary) في مطبعة (Thacker, Spink and Co) بكلكتا عام 1922م.

([9])مطبعة سلطانيةبهوپال عام 1919م.

([10])مطبعة سلطانيةبهوپال عام 1921م.

([11])طبع في مطبعة حميدية الفني عام 1922م.

([12])دونت الأميرة تلك الرحلة باللغة الأردية ثم تُرجمت إلى اللغة الإنجليزية بعنوان (The story of a pilgrimage to Hijaz) وطبعت في مطبع (Thacker, Spink & Co) بكلكتا عام 1909م.

([13]) "Aligarh Muslim University Public Relations Officer", Amu.ac.in. Retrieved 18 February 2016.

([14])راجع هيفاء شاكري، مساهمة الهنديات في الدراسات العربية، مقال منشور في موقع الألوكة بتاريخ 1437/5/16هـ/2016/2/25م (https://bit.ly/2xO7EYF)

([15]) Abdul Rashid Khan, The All India Muslim Educational Conference: Its Contribution to the Cultural Development of Indian Muslims, 1886–1947, (Karachi: Oxford University Press, 2001).

مفتوحة للمجلس البلدي في الإمارة. [1] وعلى الرغم من أنها انتخبت رئيسة جمعية السيدات لعموم مسلمي الهند، إلا أنها كانت تركز مجهوداتها في مجال الصحة العامة، فنظمت العديد من برامج الصحة العامة مثل برامج التطعيمات، وبرامج القضاء على الأمراض الخبيثة، وإعداد خطة شاملة بشأن التصدى للأوبئة والطاعون إلخ. فقامت بتحسين إمدادات المياه، وبتنفيذ معايير النظافة والصرف الصحي في جميع الإمارة، ومن أجل إدارة تلك الشؤون أقامت بلدية عامة في عام 1320هـ/1903م. [2] ومن الطبعي أن تلك النشاطات قد أدت إلى تحسين الصحة العامة بين الجميع.

وقد اكتسبت الأميرة مكانة كبيرة لدى رعاياها الجميع، وشهد عهدها مظاهر التسامح والعدل والمساواة مع الجميع من المسلمين والهندوس، فكانت حريات غير المسلمين مصونة ومكفولة، وقامت الأميرة بالقضاء على جميع أنواع الطائفية، وهو الأمر الذي أسهم في ظهور ثقافة مختلطة ومتداخلة وفريدة في بهوپال، وتقلد الهندوس مناصب سياسية وإدارية ومالية رفيعة في عهدها، وكانت لهم مشاركات فعالة في بناء الإمارة وتحسين وضعها الاقتصادي والمالي والإداري. [3]

وكذلك كتبت العديد من الكتب عن الصحة العامة والخاصة، مثل تندرستي أي الصحة، [4] وكيفية تربية الأطفال والرعاية الصحية،[5] وهدايت تيماداري أي الإرشادات الصحية والتمريضية اللازمة وغيرها. وبفضل أنشطتها العديدة حصلت على العديد من الأوسمة والجوائز. تزوجت الأميرة في غرة شهر فبراير عام 1874م الموافق 1290هـ من علي شاه احتشام الملك ناصر الدين نواب أحمد علي خان بهادر. وقد أنجبت منه ثلاثة أبناء وبنتين، وهم: الأميرة بلقيس جهان مظفر بيگم، والأميرة آصف جهان بيگم صاحبه، وعلي جاه نواب حافظ محمد نصر الله خان صاحب بهادر، والحاج محسن الملك نواب محمد عبيد الله خان صاحب بهادر، وسكندر صولت، افتخار الملك الحاج نواب حافظ محمد حميد الله خان بهادر. وفي عام 1344هـ/1926م، بعد أن دام حكمها خمس وعشرين عامًا، تنازلت الأميرة سلطان جهان عن العرش لصالح ابنه الأصغر حميد الله خان. [6] وتوفيت الأميرة في 12 مايو عام 1930م الموافق 1348هـ عن عمر يناهز 71 عامًا بعد أن تركت آثارًا كبيرة من الإعجاب في مجال العلم والمعرفة والسياسة والإدارة. [7]

رسائل الأميرة إلى سيدة آدا الإنجليزية:

رأت السيدة آدا رانكن (Ada Ranken) سلطان جهان بيگم للمرة الأولى في عام 1320هـ/1903م في دهلي دربار، [8] ولكن لم يتفق أن تتلقيا السيدتان في تلك المناسبة. ولكن كتبت آدا فيما بعد مقالًا نشرته في لندن بعد عودتها من الهند، وذكرت فيه عن صداقتها مع الأميرة خلال فترة

([1])Fortnightly Report on the Political Situation in Central India for the Fortnight Ending 15 June 1922" in IOR, CR, R/1/950.

([2]) Siobhan, op. cit., pp. 124-143.

([3]) HISTORY OF BHOPAL", Bhopal.nic.in. Retrieved 18 February 2016.

([4])طبع في مطبعة يونين يمام، لاهور عام 1913م.

([5])طبع في مطبعة سلطانية، بهوپال عام 1916.

([6])"BHOPAL6", Royalark.net. Retrieved 18 February 2016.

([7])سليم حامد رضوي، أردو أدب كي ترقي مينهوپال كا حصه، ط: مطبعة علوي 1965م، ص256، نقلًا عن مقال هيفاء شاكري، مساهمة الهنديات في الدراسات العربية.

([8])دهلي دربار تعني "بلاط دهلي" وكلمة دربار مشتق من المصطلح المغولي "دربار" أي البلاط السلطاني. وكانت عبارة عن تجمع لمجلس الأمراء والنواب على الطراز الإمبريالي الهندي. كانت السلطات البريطانية تنظمه في منتزة كورونيشن بدهلي من أجل إحياء ذكرة الإمبراطورية البريطانية في الهند. وعقد ذلك الدربار الإمبراطوري ثلاث مرات في ما بين عامي 1293هـ/1877م، و 1320هـ/1903م، و 1328هـ/1911م، وذلك في ذروة الإمبراطورية البريطانية. وكانت تجمع لعام 1328هـ/1911م هو الوحيد الذي حضره الملك جورج الخامس. للتفصيل راجع:
Douglas Northrop, An Imperial World: Empires and Colonies since 1750 (Boston: Pearson, 2013), pp. 2-3.

قيامها في الهند. وأشارت إلى أنهما التقين لقاءَ مباشرًا لأول مرة في حفلة أقيمت في ساحة حديقة قصر الأميرة بعد الظهر في أحد أيام فصل الشتاء عام 1321هـ/1904م. ووصفت آدا تلك المناسبة وكيفية ظهور الأميرة في الحفلة، وكيفية جلوس الأميرة ومقابلته مع الضيوف إلخ، فكتبت بأن الأميرة كانت مرتدية النقاب، ونصبت خيمة كبيرة لها وللنساء الضيوفات. ووضع سياج أو حاجز مصنوع من خيزران ذي فتحات نفخ مثقوبة بين مدخل الخيمة والساحة الخارجية. ووضعت الكراسي للرجال أمام الخيمة بحيث يمكن لهم الحديث إلى الأميرة بواسطة ذلك الحاجز المصنوع من الخيزران. [1]

ودخلت السيدة آدا لإلقاء التحية والسلام على الأميرة مع النساء الأخريات، ووصفت اجتماعتهما الأولى قائلة:"عندما جاء دوري، ودخلت خيمتها، وجدت صاحبة السمو إنسانة بسيطة جدًا بكل ما تحمله الكلمة، فقد كانت ترتدي ثوبًا بسيطًا عبارة عن قميص مصنوع من قماش رمادي وسروال، ولكني لاحظت بأن ذلك الثوب كان مصممًا بنمط أفغاني، وكان رأسها مغطيًا، وكانت الأميرة جالسة وهي حافية القدمين." ويتضح من رسائل آدا بأنها التقت الأميرة عدة مرات خلال العامين المقبلين، وفي إحدى تلك المناسبات، زارتها الأميرة نفسها في منزلها بمدينة سيهور (Sehore)، [2] بحيث كان زوجها جورج متمركزًا فيها في تلك الأيام.

وقد بقيت السيدتان على اتصال وثيق بعد عودة آدا إلى إنجلترا، وتبادلتا الرسائل بانتظام حتى وقت وفاة الأميرة في عام 1348هـ/1930م. أما الملف المعنى لتلك الرسائل فيجمع بين دفتيه اثنان وعشرون رسالة، تسعة عشر منها موجهة من الأميرة إلى آدا، في حين هنالك رسالتان بعثت بهما الأميرة إلى زوج السيدة آدا جورج، وأحدهما أرسلتها إلى ابنتهما باتريشيا (Patricia). وتحمل جميع الرسائل في طياتها أخبار بهوپال وأحوالها السياسية والاجتماعية والإدارية إلخ، وأخبار عائلة الأميرة، بالإضافة إلى الأخبار والسؤال عن الأصدقاء المشتركين، والاستفسار عن أحوال أفراد أسرة السيدة آدا والاطمئنان عليهم، وغالبًا ما تتذكر في معظم الرسائل الأوقات التي قضتها بصحبة آدا في الهند قبل مغادرة الأخير لإنجلترا. [3]

وتطرقت الأميرة في بعض الرسائل أيضًا الأعباء الثقيلة التي كانت تتحملها في إدارة شؤون إحدى أكبر الإمارات الهندية. وفي رسالة واحدة التي تحمل تاريخ إرسالها شهر ديسمبر عام 1909م الموافق 1326هـ كتبت فيها الأميرة بأن جل اهتمامها انحصرت في القيام بالتجهيزات والاستعدادات بمناسبة زيارة نائب الملك للدولة البريطانية إلى بهوپال، والحمد الله كانت تلك الزيارة ناجحة ومرت على خير. [4]

ويتضح من بعض الملاحظات التي دونتها السيدة آدا في إحدى مقالاتها التي نشرتها في لندن، بأنها استفادت من تلك الأخبار التي كتبتها الأميرة في رسالتها إليها بشأن الأحوال السياسية والاجتماعية والدينية في بهوپال، ومنها تلك الأخبار عن وجود العديد من التجمعات الدينية والمذهبية والاجتماعية المختلفة في مجتمع بهوپالي، وكيف تتعامل الأميرة مع جميع الأطراف بحنكة وحكمة، لا سيما محاولتها الجادة في نشر مفهوم العلاقات الودية بين جميع الأطراف في حين أصبحت الصراعات الدينية والطائفية بين السنة والشيعة والهندوس والمسلمين وحتى بين الأمراء والنبلاء أكثر فتكًا في جميع أنحاء الهند. ولكن على عكس ذلك التصور، تبنت الأميرة السياسة الرشيدة المتمثلة في عدم التمييز بين رعاياها، والقضاء على جميع أنواع التطرف والتعصب والطائفية، وبفضل تلك السياسة والقيادة

---

(1) Mss Eur F182/8

(2) سيهور هي مقاطعة تقع في ولاية مدهيه رديش على الطريق السريع بين بهوال وإندور على بعد 37 كلو متر من بهوال. راجع:
Imperial Gazetteer of India, (Oxford: Clarendon Press, 1908-1931) Vol., 22, p. 161.

(3) Mss Eur F182/8

(4) Mss Eur F182/8

الرشيدة استمر مسلمو بهوپال والهندوس والجماعات الدينية الأخرى في العيش معًا في أمن وسلام، حتى عندما اندلعت أعمال الشغب الطائفية في مناطق أخرى من البلاد. [1]

وكذلك يتبين من بعض الرسائل تلك المجهودات المضنية التي كانت الأميرة تبذلها في سبيل رفع المستوى العلمي والمعرفي والاقتصادي للنساء في إمارتها بواسطة تقديم جميع المساعدات المادية والمعنوية لهن لا سيما في مجال تعليمهن النظري والعملي، واكتساب المهارات العملية في مجال الحرف والتقنية التي اعتقدت الأميرة بأنها أكثر فائدة ونافعة. [2] وقد أشارت إليها في إحدى الرسائل المرسلة إلى آدا مع توضيح أهدافها من تعليم النسوة، وكيف أنها تقدم جميع المساعدات في الأعمال الخيرية في المناطق النائية والفقيرة، وصرحت في إحدى الفقرات حول مشاركتها الشخصية في مدرسة آصفية التقنية للنساء، قائلة بأنها تولت فيها "الإشراف المباشر الشخصي عند عودتها من إنجلترا إلى الهند، وذلك بهدف المزيد من التطورات والتحسينات في تلك المدرسة. [3] ومن أجل تحقيق النتائج المرجوة استعانت الأميرة بامرأة بريطانية تدعي الآنسة أوليفانت (Miss Oliphant) التي رافقت العائلة الحاكمة إلى بهوپال بعد أن تركت وظيفة المربية لأبناء أميرة إمارة كوچ بهار في بنگال. وقد صرحت الأميرة في إحدى خطبها بأن في إطار الإدارة المشتركة، حاولت جذب المزيد من الطالبات الجدد بواسطة تقديم دورات مكثفة في مجال مهارات الحرف اليدوية المختلفة، بما في ذلك تلك التي تعلمتها الأميرة نفسها خلال وجودها في إنجلترا بين عامي 1343-1344هـ/1925-1926م." [4]

وعلى الرغم من انشغالها في أداء الواجبات العديدة المتمثلة في الشؤون السياسية والإدارية والتعليمية والاجتماعية، إلا أنها كانت تجد وقتًا للكتابة إلى السيدة آدا. وفي الرسالة الأخيرة، بتاريخ 25 ديسمبر عام 1929م الموافق 1347هـ أعربت الأميرة فيها تعاطفها العميق وتعازيها القلبية مع آدا وأسرتها على وفاة شقيق الأخير. وكتبت قائلة:"ربنا يلهمك الصبر والسلوان، ويعطيك القوة والتحمل والثبات، ويديم عليك نعمة الصحة والعافية لرعاية طفلك الحنون باتريشيا التي نحن جميعًا نحبها كثيراً." [5] وتتضمن أوراق السيدة آدا، بجانب تلك الرسائل، نسخة مسودة لمقال آدا عن الأميرة، وبعض الصور الفتوغرافية، وبطاقات عيد الميلاد، وبعض الرسوم التي رسمتها آدا للأميرة في بمناسبة زيارة الأخير لدهلي دربار في عام 1320هـ/1903م. [6]

ويتضح مما سبق ومن رسائل الأميرة المرسلة إلى تلك السيدة الإنجليزية بأن الأميرات كانت لهن مشاركات فاعلة في الحكم والإدارة وفي الشؤون الاجتماعية والدينية والتعليمية. ومن أبرز الأمثلة أولئك السيدات_مسلمات أو هندوسيات_ اللواتي حكمن بعض الإمارات المستقلة في القرن العشرين، ومنها إمارة بهوپال التي حكمت فيها العديد من السيدات من الأسرة المالكة في ظروف خاصة. وهذا الأمر أسهم في تغيير الفكر النمطي عن المرأة وتطوره في المجتمع الهندي. ولم يقتصر دور أولئك النساء على

([1])راجع ملاحظات آدا في مقال لها نشرته في عام 1911م بعنوان "السلطانة المحجبة":

Mrs. Ranken, "*The Veiled Ruler*," IOL, Ranken Collection, Mss. Eur. F.182/9; Sughra Humayon Mirza, Roznamchah Safar Bhopal, Hyderabad: al-Nisa Monthly, 1924, pp. 35-36.

([2])Lady Glover, Famous Women Rulers of India and the East, New Delhi: Deep & Deep Publications, 1989, p. 98.

([3]) Sultan Jahan to Mrs Ranken, 26 October 1926, IOL, Ranken Collection, MSS. Eur.F.182.

([4])راجع خطب الأميرة والتقارير عن نشاطاتها السياسية والاجتماعية التي ذكرها محمد أمين زبيري في كتابه:

Muhammad Amin Zuberi, Asr-i-Jadid (The New Epoch), trans. Mahmud ul-Hasan Siddiqi, (Bombay: The Times of India Press1929), pp. 44-48.

([5])Mss Eur F182/8

([6])IOL, Ranken Collection, Mss. Eur.F.182.

المشاركة في الحكم والإدارة فحسب، بل أسهمن أيضًا في عملية الإصلاح الاجتماعي والديني والتعليمي والأسري. ودفعت مبادراتهن الرجال إلى تشجيع النساء بشكل عام على التعلم والمشاركة في النشاطات الاجتماعية والتعلمية، وفي وسائل الإعلام المطبوعة. واستطاعت النخبة النسوية من الكاتبات والمؤلفات الأوائل بالتفاوض والحصول على مساحة داخل الخطاب القائم و الآراء السائدة لدى الإصلاحيين الذكور، وبذلك سنحت لهن الفرصة لإثبات ووجودهن و تعزيز مكانتهن بين النخب المتعلمة والمثقفة، وسرعان مابدأن بتحديد القضايا ذات الأهمية الخاصة للنساء، وعليه بادرن إلى تنظيم الأنشطة والفعاليات وإنشاء منظمات إصلاحية تهدف إلى اتخاذ خطوات عملية لتعليم المرأة وتحريرها مع الحفاظ على الأصول والقواعد الدينية والعرفية في المؤسسات النسوية الجديدة. وفيما يتعلق بإمارة بهوپال، فحولتها الأميرة سلطان جهان بيگم بواسطة نشاطاتها الإصلاحية والتعليمية إلى مركز عملي لتطوير المرأة على أرض الواقع، حيث إنها أقامت مؤسسات اجتماعية وتعليمية فريدة من نوعها جعلتها في طليعة الحركات الإصلاحية في جميع أنحاء الهند لتحسين وضع المرأة السياسي والإداري والتعليمي والاقتصادي. وهيمنت وجودها إلى حد كبير على الوسائل المتاحة في بهوپال لتحقيق تلك الأهداف المرجوة، ونتيجة لذلك، بدأت مجموعة أكبر من النساء المسلمات والهندوسيات على حد سواء يظهرن على الساحة السياسية والتعليمية، وبدأن يشاركن في الحركات السياسية والتعليمية مشاركة فاعلة، ودخلن في الصراع مع بعض الزعماء الإصلاحيين الذكور حول القضايا النسوية. وذلك الجيل الأول من الناشطات قد مهد الطريق للجيل التالي، ولكن ليس من خلال اقتحام معاقل تفوق الذكور على الإناث، بل من خلال البناء التدريجي من أجل إدخال التغييرات الحتمية في شؤون المرأة وقضاياها الدينية والاجتماعية والأسرية، وإن كانت تلك التغيرات محدودة في تلك الحقبة التاريخية.

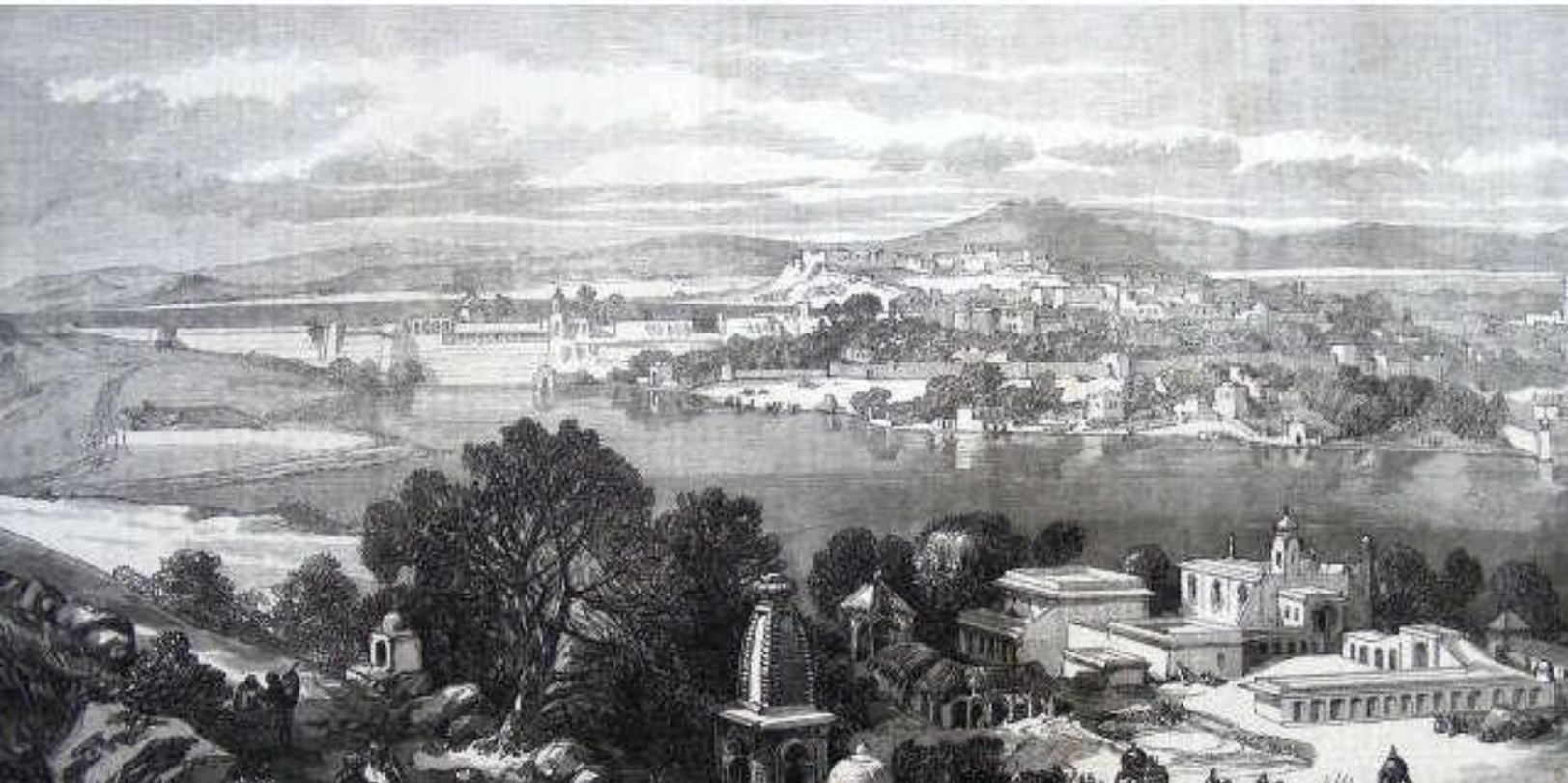

قائمة المصادر والمراجع:

1. "The only woman ruler in India-Her Highness the Begum of Bhopal," The Graphic, January 2, 1914.
2. Abdul Rashid Khan, The All India Muslim Educational Conference: Its Contribution to the Cultural Development of Indian Muslims, 1886–1947, (Karachi: Oxford University Press, 2001).
3. Arnold Wright, ed. Indian states: a biographical, historical, and administrative survey, (Delhi: Asian Educational Services, 1922).
4. Claudia Preckel, Begums of Bhopal, (Lotus Collection, Roli Books, 2000).
5. Douglas Northrop, An Imperial World: Empires and Colonies since 1750 (Boston: Pearson, 2013).
6. Fortnightly Report on the Political Situation in Central India for the Fortnight Ending 15 June 1922" in IOR, CR, R/1/950.
7. H. H. Nawab Sultan Jehan Begum Saheba, al Hijab: or, Why Purdah is necessary, (Calcutta: Printed by Thacker, Spink for H.H. the ruler of Bhopal, 1922).
8. Imperial Gazetteer of India, (Oxford: Clarendon Press, 1908-1931).
9. Jaswant Lal Mehta, Advanced study in the history of modern India 1707–1813, (Delhi: Sterling 2005).
10. John Falconer; James Waterhouse, The Waterhouse albums: central Indian provinces, 2009.
11. Kamla Mittal, History of Bhopal State, (Delhi: Munshiram Manoharlal, 1990).
12. Khan, Shaharyar M., The Begums of Bhopal: A Dynasty of Women Rulers in Raj, India, (London: I.B. Tauris, 2000).
13. Lady Glover, Famous Women Rulers of India and the East, New Delhi: Deep & Deep Publications, 1989.
14. Letters from Nawab Sultan Jahan Begum of Bhopal, 1906-1930, Mss. Eur. F182/8.
15. Maimoona Sultan, "An Appeal to Indian Ladies" in Keep the Baby Well, Calcutta: Superintendent Government Printing, 1920.
16. Mrs. Ranken, "*The Veiled Ruler*," IOL, Ranken Collection, Mss. Eur. F.182/9.
17. Muhammad Amin Zuberi, Asr-i-Jadid (The New Epoch), trans. Mahmud ul-Hasan Siddiqi, (Bombay: The Times of India Press1929).

18. S. R. Bakshi & O. P. Ralhan, Madhya Pradesh Through the Ages, (Delhi: Sarup & Sons., 2007).
19. Sen, Sailendra, A Textbook of Medieval Indian History, (Delhi: Primus Books 2013).
20. Shaharyar, M. Khan, The Begums of Bhopal (illustrated ed.). I. B. Tauris, 2000.
21. Siobhan Lambert-Hurley, Muslim Women: Reform and princely patronage, (Oxon: Routledge 2007).
22. Speech by Princess Maimoona Sultan Shah Bano Begam at the Maternity & Child Welfare Exhibition held at Delhi on the 23rd February 1920, Bombay: The Guru Datt Printing Works.
23. Speech of H.H. Nawab Sultan Jahan Begum of Bhopal at the Maternity & Child Welfare Exhibition held at Delhi on the 23rd February 1920, (Bhopal: Sultania Press, 1920).
24. Sughra Humayon Mirza, Roznamchah Safar Bhopal, Hyderabad: al-Nisa Monthly, 1924.
25. The London Gazette, 28 January, 1916.
26. William Hough, A brief history of the Bhopal principality in Central India, (Calcutta: Baptist Mission Press, 1845).
27. William Irvine, Later Mughals, (Delhi: 1922).

ملحق

■صورة شخصية لسلطان جهان بيگم بعدسة (Norah Grant) في عام 1328هـ/1911م، والصورة محفوظة بين مجموعة صور الملوك والسلاطين في (Royal Collection Trust) بلندن.

■ صورة شخصية لسلطان جهان بيگم في أوائل 1286هـ/1870م بعدسة (Bourne & Shepherd)، وهي موجودة في مرقع (Album of cartes de visite portraits of Indian rulers and notables)، رقم الصورة (16/127).

صورة لرسائل الأميرة سلطان جهان بيگم إلى آدا رينكن (Ada Ranken)،المصدر:Mss Eur F182/8

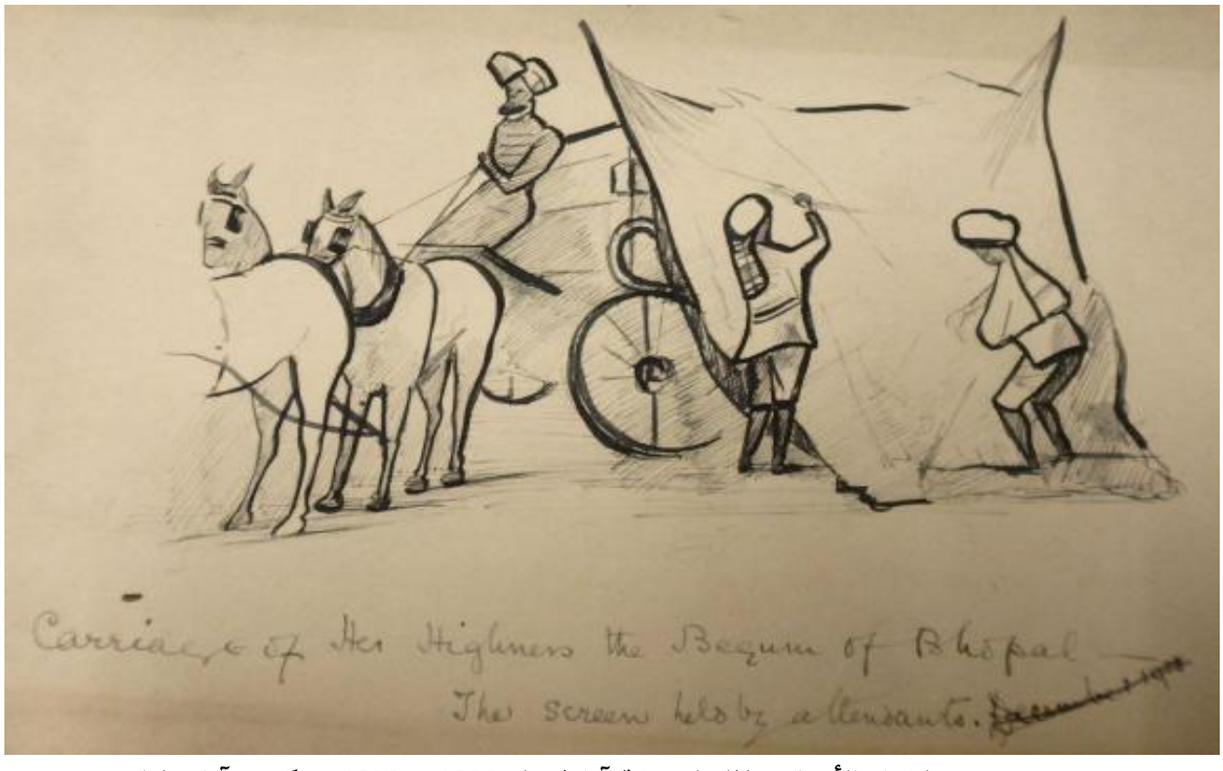

رسم لخدام الأميرة وحافلتها بريشة آدا في عام 1320هـ/1903م، وكتبت آدا عبارة

على ذلك الرسم واصفة حافلة الأميرة وخدامها "حافلة صاحبة السمو بيگم، والحاجز الذي يحمله خدامها". ()

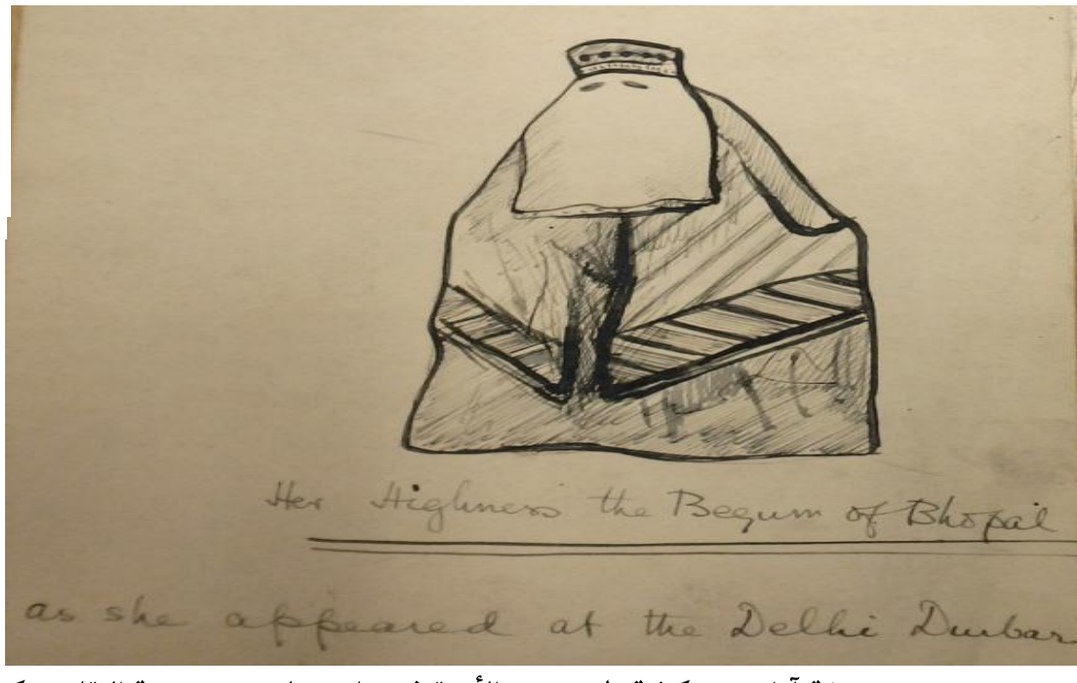

رسم بريشة آدا يوضح كيفية ظهور سمو الأميرة في دهلي دربار وهي مرتدية النقاب، وكتبت آدا في هامش الرسم "سمو الأميرة كما ظهرت في دهلي دربار". ()

ملتقيات التاريخ
Les Rendez-Vous de l'Histoire

تنظم الجمعية المغربية للمعرفة التاريخية

ملتقيات التاريخ
الدورة 12

الحـــرب

21-22-23 نونبر 2018

المكتبة الوطنية للمملكة المغربية - الرباط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط

/assmph /AmphMa /+AmphMa /AmphMa

www.amph.ma

مقدمة:

إن شخصية سيدنا إبراهيم عليه السلام تعد من أهم الشخصيات في التاريخ الديني نظرا للمكانة الرفيعة التي يتبوؤها في الأديان الثلاثة الكبرى :اليهودية والمسيحية والإسلام.

وتتجلى أهمية إبراهيم عليه السلام عند العبرانيين في كونه من أهم الآباء الأوائل للشعب العبري، وهو، فضلا عن ذلك، أب لسلسلة من الآباء كانت لهم علاقة متميزة بالإله. وهو عند المسيحيين الجد الأعلى ليسوع المسيح. ويُرجع متى في إنجيله نسب المسيح إلى إبراهيم، حيث يقول في الإصحاح الأول: «هذا نسب يسوع المسيح بن داود بن إبراهيم». لكن ما يستعصى على الفهم هنا هو كيف يمكن أن يكون المسيح من نسل إبراهيم مع أن المسيحية تؤكد مرارا على أن يسوع المسيح اله ليس له أب بشري. أما عند المسلمين فإبراهيم هو خليل الله، وهو النبي الكريم أب الأنبياء جميعا. انحدر من صلبه سلسلة من الأبناء والأحفاد يحملون بذرة النبوة، وذلك انطلاقا من قوله تعالى: «وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب» العنكبوت الآية 27

لقد أدى انعدام وجود أي دليل أثري، سواء أكان كتابا أو نقشا أو حتى نصوصا تقبل التأويل، بعدد من الباحثين إلى القول بأن شخصية النبي إبراهيم هي شخصية أسطورية لا تمت لعلم التاريخ بصلة، بل إن البعض منهم اعتبر قصص البطارقة كلها (الآباء القدامى) مجرد قصص خرافية أو أسماء لشخصيات إلهية في بلاد كنعان، وأن العبرانيين عندما ورثوها ورثوا معها تراثها القديم. ومن ذلك ما أكده عصام الدين حنفي ناصف من أن هناك من الدارسين من أرجع اسم إبراهيم إلى أسطورة "براما" التي

كانت منتشرة في بلاد إيران والهند وما حولها، وأنها هي الأصل في عقيدة "براهما" الهندية، وأن العبرانيين تبنوا هذه الأسطورة، وحولوها إلى شخصية إنسانية، واحتسبوا "براما" جدهم الأعلى .وكان عدم وجود الدلائل التاريخية سببا لأن يقول طه حسين في كتابه في الشعر الجاهلي:« للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم و إسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا أيضا ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي.«

وتأسيسا على عدم وجود أي مصادر تاريخية تشير إلى سيدنا إبراهيم سواء في مصر أو بلاد الرافدين كان لابد من الرجوع إلى التوراة الحالية، ولابد من التذكير بأن تقديمها على القرآن استدعته الضرورة التاريخية لا غير. ومن المعلوم أن ثمانين في المائة من أسفار "العهد القديم" هي عبارة عن تاريخ .إن عودتي إلى التوراة لاستنطاقها بخصوص هذا الموضوع لا يختلف عن موقف ابن كثير الذي أدلى بسنده الشرعي مبررا الأخذ بالتوراة حتى لا يقع عليه لوم أو تثريب. وكان يورد حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: « بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، وحدثوا عني ولا تكذبوا، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار.«

إبراهيم في التوراة:

لننظر الآن في التوراة لنتعرف على شخصية تُدعى أبرام وأبراهام في "سفر التكوين" الذي لو عبرناه بست وعشرين آية من الإصحاح الحادي عشر فإننا سنجد التوراة تصعد بنسب النبي إبراهيم عبر أسلافه حتى تصله بسام بن نوح. وهذه الشجرة هي على الشكل الآتي: إبرام بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح. لذلك كان تارح هو أب النبي إبراهيم، أما سارة فهي زوجته، ولوط كان حفيد تارح أي ابن أخ أبرام. فقد خرجت هذه القبيلة من "أور الكلدانيين" في اتجاه أرض كنعان، ونزلوا بحاران حيث مات تارح، ودُفن هناك. ويخبرنا الإصحاح الثاني عشر أنه بناء على أمر إلهي تابع أبرام رحلته رفقة ابن أخيه لوط إلى أرض كنعان، الأرض التي وعده بها الرب.

وبالفعل نفذ أبرام الأمر، ونزل بأرض كنعان، وبنى فيها مذبحا للرب، لكنه اضطر بسبب مجاعة حلت بأرض كنعان إلى الهجرة إلى مصر، حيث سيحدثنا السفر عن قصة من غرائب القصص، إذ نجد أبرام هذا ينكر زوجته خوفا من فرعون، وطلبا لجمع المال. فيقول عنها أمام الفرعون أنها أخته، فاتخذها هذا الأخير زوجة له. ولولا الضربات العظيمة التي ضربت فرعون، وأهل بيته بسبب ذلك لما علم الفرعون أنه اتخذ امرأة متزوجة زوجة له، فأرجعها إليه آمرا إياه بأن يسترجعها، ويخرج من البلاد. ويكرر إبراهيم نفس الفعل دون استحياء مع ابيمالك ملك جرار حيث سيدعي مرة أخرى أن سارة هي أخته فاتخذها أبيمالك زوجة له. ولولا أن الله كلمه في الحلم وأخبره بذلك لعاشرها معاشرة الأزواج .والظاهر أن كاتب "سفر التكوين" كتب هذه القصة عن قصد لأننا لا نجده يكررها مع إبراهيم مرتين فقط بل نجده أيضا ينسب نفس الفعل لإسحاق حيث ادعى هذا الأخير بدوره أن زوجته هي أخته خوفا من ملك جرار. ويروي لنا "سفر التكوين "أن رحلة أبرام إلى مصر كانت موفقة إذ أصبح هو وابن أخيه يملكان كثيرا من الماشية والفضة والذهب لدرجة ضاقت بهما الارض معا، ووقعت خصومة بين رعاتهما فاضطرا للافتراق فسكن لوط جوار سدوم. وسكن إبراهيم بحبرون وبنى بها مذبحا للرب. ويتابع "سفر التكوين" في الإصحاح الرابع عشر قصة أبرام ذاكرا هذه المرة الأسر الذي وقع فيه لوط بعد الغارة التي شنها الملوك الأربعة :امرافل ملك شنعار وأريوك ملك الآسار وكدر لعومر ملك عيلام وتدعال ملك جوييم على الملوك الخمسة: ملك سدوم وملك عمورة وملك أدمة وملك صبوبيم وملك بالع .فلما علم أبرام بالخبر، وبوقوع ابن

أخيه لوط وثروته في الأسر حشد جنوده واقتفى أثرهم وباغتهم ليلا، واسترد لوطا وثروته.

إننا في هذه القصة أمام ملك جبار لا يُشق له غُبار استطاع بمفرده القيام بما لم يستطع خمسة ملوك القيام به. والغريب في هذه القصة ما صرح به الكاهن ملكيصادق ملك شاليم من عبارات التوحيد لما خرج للقاء أبرام، وباركه بقوله »مبارك أبرام من الله العلي خالق السماوات والأرض وتبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك إلى يدك».وهي عبارات لم يقلها أبرام نفسه من قبل، والأغرب أنه استعمل نفس العبارات من بعد في مخاطبته لملك سدوم لما رفض أن يأخذ ثروته قائلا «ارفع يدي واحلف بالرب الاله العلي خالق السماوات والأرض أن لا آخذ خيطا ولا رباط نعل من جميع مالك لئلا تقول أنا أغنيت أبرام ».إن أبرام الذي أنكر زوجته مرات عديدة، وباعها من أجل المال نجده هنا يرفض مالا استحقه بالفعل. ماذا يريد هذا السفر أن يقول: هل كان أابرام يقبل المال الحرام، ويرفض المال الحلال الذي تعب وكد في سبيل الحصول عليه. وينتقل بنا الإصحاح الخامس عشر إلى حوار دار بين الله وأبرام في المرة الأولى التي نجد فيها هذا الخطاب موجها من الله لأبرام. ولم يورد كاتب هذا السفر هذا الحوار إلا مضطرا. إن الوعد المزعوم الذي أعطاه الله لأبرام بأن يورث الأرض لنسله لا بد أن يكون سنده إلهيا. فكل الحوارات بين الله وأبرام موضوعها هذا العهد الذي أعطاه الله لأبرام ونسله من سارة أي من ولده إسحاق. ويحاول كاتب السفر أن يبين لنا أن الله من أراد ذلك في قوله «فقال ابراهيم لله ليت إسماعيل يحيا أمامك فقال الله بل سارة امراتك ستلد لك ابنا وتسميه إسحاق، وأقيم عهدي معه عهدا مؤبدا لنسله من بعده ».

وليست هذه المرة الوحيدة التي يلجا فيها صاحب السفر إلى مثل هذه الحيل ليحرم الولد البكر من حقه الذي أعطته الشريعة بل نجده يسلك نفس الحيلة ليحرم عيسو من حقه في البكورية، ويعطيها يعقوب مدعيا أن هذا الأخير استحقها بعدما تنازل عيسو عنها. و تتحدث التوراة عن مقابلة الله لإبراهيم في صفة ثلاثة رجال. ولاشك في أن هذا التصوير التوراتي هو الذي جعل المسيحين يستدلون بهذه القصة على إثبات عقيدتهم في التثليث. وقد أشار ابن حزم إلى ذلك فقال عند تعرضه لقصة التقاء ابراهيم بالملائكة: «قال أبو محمد رضي الله عنه في هذا الفصل آيات من البلاء شنيعة نعوذ بالله من قليل الضلال وكثيره فأول ذلك اخباره أن الله تعالى تجلى لإبراهيم وأنه رأى الثلاثة نفر فأسرع إليهم، وسجد، وخاطبهم بالعبودية فإن كان أولئك الثلاثة هم الله فهدا التثليث بعينه بلا كلفة بل هو أشد من التثليث لأنه إخبار بشخوص ثلاثة والنصارى يهربون من التشخيص. وقد رأيت في بعض كتب النصارى الاحتجاج بهذه القضية في إثبات التثليث.«

و تخبرنا قصة لوط في التوراة أن الله جل وعلا بقي حائرا مترددا هل يخبر إبراهيم بما ينوي فعله بقوم لوط أم لا: «فقال الرب في نفسه هل أكتم عن إبراهيم ما أنوي أن أفعله». بل أكثر من التردد بحيث نجد الله لا يعلم إن كان قوم لوط فعلوا شيئا يستوجب العقاب أم لا: « وقال الرب لإبراهيم كثرت الشكوى على أهل سدوم وعمورة، وعظمت خطيئتهم جدا أنزل وأرى هل فعلوا ما يستوجب الشكوى التي بلغت إلي أريد أن أعلم.«

وكم هي غريبة قصة زنى لوط مع ابنتيه لا تقبلها العقول، وتستحي من ذكرها الأسفار والكتب. ونأتي إلى قصة الذبيح الواردة في التوراة. فهذه الأخيرة تخبرنا أن الذبيح هو إسحاق. وعندما تموت سارة، تدفن في أرض كنعان ثم يزوج إبراهيم ابنه إسحاق من فتاة من آرام النهرين كما أراد من أرضه وعشيرته، ثم يموت أبرام التوراة، وعمره مئة وخمسة وسبعون سنة.

خلاصة القول إن القارئ لسيرة هذه الشخصية، كما وردت في التوراة، لا يسعده الانتماء إليها.

إبراهيم في بعض الدراسات العربية الحديثة

انطلاقا مما جاء في التوراة نرى بأن إبراهيم تحرك مع أبيه من "أور الكلدانيين" الموجودة حسب الخريطة التوراتية في الجنوب الغربي للعراق. ولم يذهب مباشرة إلى كنعان أي ما يُعرف بفلسطين رغم قربها من مكان استقراره الأول. إذ تقع في الغرب مباشرة، وإنما انتقلوا إلى حاران، وأقاموا هناك) سفر التكوين 311-1، .(30إلا أننا نجده في السفر نفسه (12 -1) يقول له الرب »ارحل من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريدك.«

إن التوراة تشير صراحة إلى أن حاران الموجودة في الشمال داخل الحدود الأرمينية التركية القديمة هي أرض وموطن عشيرة أبرام، وتؤكد ذلك عندما أمر أبرام ابنه إسحاق بأن يتزوج امرأة من أرضه وعشيرته، فيرسل رئيس عبيده إلى آرام النهرين أي مدينة ناحور. وناحور هذا، كما سبق الذكر، هو جد إبراهيم .ولو بحثنا عن هذه المدن لوجدناها تقع في شمال بلاد الشام، وشمال غرب العراق.

إن السؤال المطروح: ما هو الموطن الحقيقي للنبي إبراهيم؟ هل هو "أور الكلدانيين" أم حاران أم آرام النهرين أم فدان آرام؟ وهل هو من أقصى جنوب العراق على الحدود العربية؟ أم في أقصى الشمال داخل الحدود الأرمينية؟

هذا ما سيحاول سيد القمني الإجابة عنه من خلال دراسة مستفيضة في هذا المضمار. يذهب سيد القمني إلى القول بأن رحلة إبراهيم من "أور الكلدانيين " الموجودة في الجنوب الغربي للعراق إلى بلاد كنعان الواقعة في الغرب من "أور" لا تفصلهما سوى بادية الشام الأردنية. أما المسافة بين هاتين النقطتين فهي قصيرة لا تستغرق على ظهور الحيوانات أكثر من أسبوع. في حين نجد أن الطريق التي سلكها إبراهيم عبر حاران دامت حسب التدقيق التوراتي خمسة عشر سنة ما بين خروج الركب من "أور" والاستقرار في بلاد كنعان .والغريب في الأمر أن حاران كما وردت في التوراة تبدو وكأنها محطة ترانزيت معروفة على الطريق من أور إلى كنعان. بينما في الحقيقة هي تقع في الشمال بعيدا عن هذا الطريق بمسافات شاسعة. ويؤكد سيد القمني أن حاران التوراتية لم يُقصد بها مدينة بعينها، فهي في التوراة منطقة واسعة تضم مجموعة من الدويلات الآرامية (آرام صوبا وآرام النهرين وآرام معكة وفدان آرام وآرام بيت رحوب). تلك الدويلات التي ضمتها بلاد الحور أو الحوريون. وفي تحليله لاسم ناحور جد إبراهيم يقول بأن هناك إمكانية لأن تنطق ناحار على غرار هارون هاران، وبظاهرة القلب المعروفة في اللغويات السامية يقلب الاسم ناحار إلى حاران.

وهنا لم يعد التناقض قائما ما بين آرامي أي أبرام الآرامي وحاراني كأصل للعشيرة الإبراهيمية. غير أن الإشكالية التي تُطرح هي أولا من جهة العلاقة الجغرافية ما بين "أور الكلدانيين" (أقصى الجنوب الغربي للعراق) وبلاد الحور (أقصى الشمال)، ومن جهة أخرى العلاقة التاريخية إذ أن دولة الكلدانيين (أي أور الكلدانيين) لم تقم إلا بعد انقضاء زمن إبراهيم بحوالي ألف سنة أو يزيد. هذا بالإضافة إلى أن كلمة "أور" تدل في اللغات السامية على معنى المدينة بوجه عام مثلا "أورشليم" "أوركوكينوس" أوروك وأورآرتو المشهورة باسم "آرارات". والجدير بالذكر أن "آرارات" هذه هي نفسها المنطقة التي رست فيها سفينة نوح. ويؤكد المؤرخون أن هذه المنطقة تقع في أرمينيا .ويحاول سيد القمني أن يربط ما بين هذا الاستنتاج الأخير وبين أرفكشد بن سام بن نوح متبعا المنهج اللغوي السامي. وهكذا فإن اسم أرفكشد يُنطق أيضا أربكسد والمنطقة الواقعة جغرافيا بين أرارات أرمينيا وبلاد الحور كانت تُعرف باسم أرابخيتيس، وتعرف حاليا باسم البك. ولا حاجة للتذكير بأن أرابخيتيس بحذف التصريف الاسمي (الياء والسين) تُصبح الكلمة أرابخيت، وبتبادل حرف الكاف مع الخاء والتاء مع الدال في اللسان السامي والهندوأوروبي فإنه

يسوغ لنا القول دون تردد بأن ارابخسد هي ذات التسمية أربكسد.

وتجدر الإشارة إلى أن الخاصية التوراتية تقتضي أن تُسمى البلدان بأسماء الأبطال. وهكذا فإن اسم أربكسدا يلتقي تماما مع اسم أربكسد أو أرفخشد بن سام بن نوح جد إبراهيم. ومن هنا يستنتج سيد القمني أن منطقة أربكسد هي المعنية في التوراة بأور الكلدانيين التي هي في الأصل العبري "أور كسديم) "وهي جمع لمفرد كسد أي الكلداني). وقد أشار ماير في كتابه "حياة إبراهيم "أن الرأي السائد قديما أن مدينة "أور" تقع ما بين النهرين. لهذا تكون النتيجة التي خلص إليها سيد القمني هو أنه لم يعد هناك أي مبرر للبحث عن حاران تجاور أور الكلدانيين أو ما يُعرف بأور العراق. فلم يعد مرور إبراهيم بمنطقة حاران مثيرا للتساؤل والاستغراب لأنه في هذه الحالة لم ينطلق من "أور الكلدانيين" في الجنوب متجها إلى حاران في الشمال ليعود مرة أخرى نحو كنعان، وإنما سيغادر إبراهيم منطقة أربكسد جنوب غرب أرمينيا، ويتجه نحو بلاد حور أو حاران، وتصبح بذلك حاران محطة ترانزيت. هي منطقية تماما في الطريق نحو كنعان. من هنا فإن العشيرة الإبراهيمية وافدة على المنطقة من أرمينيا، وقد وصفت التوراة إبراهيم بأنه رجل آرامي، وأقر التراث الإسلامي أنه ليس من أبناء الجنس العربي، ولم يكن عربيا. وقد أكد ذلك ابن هشام حينما قال بأن لسانه كان سريانيا (لسان شمال بلاد الشام)، وأنه عندما عبر نهر الأردن نحو كنعان حول الله لسانه إلى اللغة العبرية. وليس ذلك على الله بعزيز.

وقد أدى الاضطراب في شخصية أبرام أو إبراهيم التوراتي ببعض الباحثين إلى الحديث عن أبرامات وأبراهامات كثيرة بدلا من أبرام أو أبراهام واحد. فقد تحدث كمال الصليبي عن أبرام العبراني وأبرام الآرامي وأبرام التكوين وأبرام الشباعة، وأبرام اليمن. حيث تميزت كل شخصية من الشخصيات الخمس بصفة خاصة مختلفة تماما عن الشخصية الأخرى.

المراجع:

-الكتاب المقدس.

-ابن كثير (1977): البداية والنهاية، تحقيق مجموعة من الأساتذة، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1

-حنفي ناصف، عصام الدين (1985): اليهودية بين الأسطورة والحقيقة، دار المروج، بيروت.

-حسين، طه (1926): في الشعر الجاهلي، دار الكتب المصرية، القاهرة.

-الصليبي، كمال (2002): خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل، دار الساقي، بيروت.

-الشوك، علي (1989): الأساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة، شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط.

-القمني، السيد (1990): النبي ابراهيم والتاريخ المجهول، سينا للنشر، القاهرة

-ماير، د.ف.ب (1980): حياة النبي إبراهيم وطاعة الإيمان، ترجمة القس مرقس داود، مكتبة المحبة، القاهرة.

لقد تشكل تاريخ الأمم والحضارات مما راكمته من تراث فكري وثقافي وحضاري عبر مختلف مراحل تطور هذه الأمم التاريخي،و يشكل التراث العربي الإسلامي جزءاً هاماً من حضارتنا وهويتنا العربية الإسلامية.بل وأكثر من هذا و ذاك ،فقد أضحى تدريس هذا التراث يندرج وبشكل مباشر في المنهجيات التعليمية في التعليم العالي،وليس في الجامعات المغربية فقط وإنما في مختلف تخصصات العلوم الإنسانية في جامعات الوطن العربي ،وبالتالي أمسى الاهتمام بتراثنا المخطوط والحرص على إيصاله وتلقينه للأجيال الصاعدة وحث الباحثين في الدراسات العليا لتحقيقه وجمعه وفهرسته ونشره ومن ثم خلق الآليات المستحدثة لتوثيقه و رقمنته وتوسيع مدار انتشاره والاستفادة منه بشكل علمي منطقي ما هو إلا تخطيط واع لاستمرار تواجده في عصرنا ومستقبلنا.ومع انتشار التقنيات الالكترونية الحديثة من وسائل الاتصال وتكنولوجيا المعلومات،أصبح لزاماً علينا كأساتذة جامعيين وباحثين مهتمين بالتراث المغربي والعربي المخطوط أن نستفيد من هذه التقنيات والبرمجيات ومواكبة تطورها،وأقلمتها مع ميكانيزمات الحفاظ على هذا الكم الضخم من تراثنا المخطوط وتطويعها لخدمته والعمل على نشره في العالم بطرق سهلة وميسرة ومتاحة للجميع.

كما أن هذه الآليات والتقنيات الالكترونية التي أصبحت وفي وقت وجيز تغزو مناحي حياتنا لما تمتاز به من الجاذبية والسهولة في الاستعمال والسلاسة في الشكل،ومادام هدفنا الأساس من استعمال هذه العولمة الحديثة الزاحفة نحو التطور والنماء هو خدمة تراثنا المخطوط وإعادة نشر مصادرنا التراثية في شكل إلكتروني أو رقمي ومن تم تحريرها من الركود في رفوف الخزانات العامة و الزوايا والمساجد ومكتبات الأسر الخاصة فلا مانع من جعلها غاية لا وسيلة.

المحور الأول:مفاهيم اولية للتوثيق الرقمي للتراث العربي المخطوط:

تنبع أهمية المفاهيم والمصطلحات عمومًا من أنها الوعاء الذي تُطْرَحُ من خلاله الأفكار،فإذا ما اضطرب ضبط هذا الوعاء أو اختلت دلالاته التعبيرية أو تَمَيّعَت مُعطياته اختل البناء الفكري ذاته واهتزت قيمه في الأذهان،أو خفيت حقائقه، فضبط المصطلحات والمفاهيم ليس من قبيل الإجراء الشكلي أو التناول المُصطنع بقدر ما هو عملية تمس صُلب المضمون وتتعدى أبعادُها إلى نتائج منهجية وفكرية.وفي هذا الإطار يقول الأستاذ محمد عمارة في معرض بيانه للخصوصية الحضارية للمصطلحات:"إذا نظرنا إلى أي مصطلح من المصطلحات باعتباره وعاء يوضع فيه مضمون من المضامين، وبحسبانه أداة تحمل رسالة المعنى، فسنجد صلاح وصلاحية الكثير من المصطلحات لأداء دور الأوعية والأدوات على امتداد الحضارات المختلفة.

أما إذا نظرنا إلى المصطلحات من زاوية المضامين التي توضع في أوعيتها ومن حيث الرسائل الفكرية التي حملتها الأدوات أي المصطلحات فسنكون بحاجة ماسة وشديدة إلى ضبط المصطلح، لأننا سوف نجد أنفسنا أمام أوعية عامة، وأدوات مشتركة بين الحضارات والأنساق الفكرية،وفي ذات الوقت أمام مضامين خاصة ورسائل متميزة تختلف فيها وتتميز بها هذه الأوعية العامة والأدوات المشتركة لدى أهل كل حضارة من الحضارات المتميزة"([1]).

والمتأمل عموما في تراثنا الفكري العربي يلاحظ فعلاً مدى أهمية ضبط الكلمات والألفاظ والمصطلحات،حتى ولو كان التقارب بين اللفظين شديدًا ومثاله قوله سبحانه وتعالى:{لا تَقُولُوا رَاعِنَا وقُولُوا انظُرْنَا}(2).

وانطلاقا من هذا فقد ارتأيت وقبل أن أخوض في صلب موضوع الدراسة التي بعنوان:(التوثيق الرقمي للتراث العربي المخطوط: بين الأهمية والواقع والآفاق)أن أقدم بعض التعاريف الأولية لمفاهيم ومصطلحات ذات صلة بالموضوع ولو بشكل موجز مادام الأمر سيمنحنا مساحة لإمكانية الشرح وسهولة الاستيعاب والفهم:

1:مفهوم التوثيق :

أ:لغة واصطلاحا:لقد ورد فعل(وثق) بمختلف اشتقاقاته اللغوية في القران الكريم في عدد من السور وأذكر منها قوله سبحانه وتعالى:{واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به}([3])،{فيومئذ لا يعذب عذابه احد ولا يوثق وثاقه احد}([4])،{فقد استمسك بالعروة الوثقى}([5])،{قد اخذ عليكم موثقا من الله}([6])،{فلما أتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل}([7])،{وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله}([8]).

و أصله من وَثُقَ يَوْثُقُ وَثَاقَة الشيء، أي ثبت وقوى وكان محكماً،فهو وثيق وهي وثيقة، ويقال: وَثَّقَ الأمر: أي أحكمه، وَوَثَّقَ الرجل قال فيهأنه ثقة، ووَثُقَ الشيء وثاقةً ووثقاً، أو أوْثَقَ الشيء إيثاقاً ووثاقاً:أي شده وربطه بحبل لئلا ينفلت.والوثائق أو الوثاق اسم الإيثاق، وهو ما يشد به الأسير،ويجمع على الوُثُقبمنزلة الرباط والرِّبط،ومنه قول الله سبحانه و تعالى:{فشدوا الوثاق}([9]).واستوثق منه: أي أخذ منه وثيقة،وتجمع الوثيقة على الوثائق، وهي العقود التييسجلها الموثقون العدول ، ووثق العَقد ونحوه أي سجله بالطريق الرسمي. وتوثق في الأمر ومن الأمر أي اخذ فيه بالوثيقة أو بالثقة.و استوثق

---

[1]) انظر:محمد عمارة، معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة،1996، ص 4.وعن أهمية تدريس وتلقين المفاهيم في مختلف العلوم الإنسانية راجع: - محمد رضا البغدادي،التدريس المصغر،برنامج لتعليم مهارات التدريس،ط1،مكتبةالفلاح،الكويت ، 1979، ص61.- محمد محمود الخوالدة وآخرون ، طرائق التدريس العامة ، ط1 ، مطابع الكتاب المدرسي، صنعاء ، 1995،ص 128- 129.- رشدي أحمد طعيمة،الأسس العامة لمناهج تعليم اللغة العربية:إعدادها ـ تطويرها ـ تقويمها،ط1 ،دار الفكر العربي،القاهرة ، 1998،ص48.- ميرل وتينسون،تدريس المفاهيم ، نموذج تصميم تعليمي ،دار الأمل ،اربد ، 1992. - سعادة جودة أحمد وجمال يعقوب اليوسف،تدريس مفاهيم اللغة العربية والرياضياتوالعلوم والتربية الاجتماعية ، دار الجيل ، بيروت ، 1988. - ناهدة عبد الكريم حافظ:"المفاهيم بين التجريد والنظرية والتعريف الإجرائي"، مجلةالقادسية للعلوم التربية ، المجلد 2 ، العدد2 ،حزيران ـ تموز 2002.

[2])سورة البقرة الآية 104

[3])سورة المائدة الاية7

[4])سورة الفجر الاية26

[5])سورة البقرة الآية 256 – وسورة لقمان الآية 22.

[6])سورة يوسف الآية 80

[7])سورة سورة يوسف الآية 66

[8])سورة النساء الآية 92

[9]) سورة محمد، الآية 4.

من فلان أي اخذ منه وثيقة([1])، واستوثق من الأمر أي اخذ فيه بالوثاقة ،والوثيقة مؤنث الوثيق،وهي ما يحكم به الأمر،والوثيقة في الأمر إِحْكَامُه ،و الوثيقة هي المستند وما جرى هذا المجرى،وتجمع على وثائق. والموثق من يوثق العقود ونحوها بالطريق الرسمي"([2]) ،و التوثيق يدل في معناه الشامل على توثيق كل أثر مكتوب أو محفورأو منقوش على الرق والكاغد والنسيج والقرطاس.وقد أصبح التوثيق علما مستقلا قائما بذاته والغاية منه الإدراكوالإحكام والتقوية والتثبيت.

ب: مفهوم علم التوثيق: يقول الإمام الونشريسيفي كتابه(المنهج الفائق،والمنهل الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثق و أحكام الوثائق) :"اعلم أن علم التوثيق منأجَلِّ العلوم قدراً وأعلاه إنابة وخطراً إذ به تَثْبُتُ الحقوق، ويتميز الحرمن الرقيق،ويتوثق به، ولأجل ذلك سميت معانيه وثاقاً "([3]).ولقد أصبح للتوثيق في وقتنا الحاضر مفهوم آخر له ارتباط كبير بالمكتبات،ويعني مجموع العمليات والأساليب الفنية اللازمة لتوفير أقصى استخدام ممكنللمعلومات المنشورة في المطبوعات العلمية والفنية القومية منها والعالميةحتى لا ينفق الوقت والجهد والمال على بحوث سبق القيام بها في مكان ما علوجه الأرض، وتشمل هذه العمليات تقويم وجمع ونسخ أو تصوير وتحليل وتنظيموخزن واسترجاع ونشر المعلومات العلمية والفنية وفق احتياجات العلماءوالباحثين المختلفة. ويعرف علم الوثائق في اللغات الأوروبية باسم "علم الديبوماتيك"([4])، وقد اشتقذلك الاسم من الكلمة اليونانية (Diplom) ومعناها صحيفة مطوية، و قد سميتكذلك لأنها كانت تكتب في الأزمنة الماضية، إما على قراطيس البردي، أو قطعالرق، أو الورق عندما انتشرت صناعته في العالم، ثم تطوى الصحيفة بحيث تصيرملفوفة، وتحزم أحياناً بشريط من الجلد أو القماش، وقد يختم على هذا الشريطحفظاً للوثيقة من العبث والتزييف([5]).

إذن فعلم التوثيق أصبحت له معان متعددة، فهو الذي يهتم بضبط أمور الناس عنطريق الإثبات بالكتابة([6])، وأيضاً يقوم بتنظيم محتويات المكتبات وضبطها لتسهيل البحثعلى الباحث([7])، وفي هذا الصدد يُقر الأستاذ قاسمالسامرائي:" وهو أمر متعب لأن الدارس لهذا الفن يجمع بين عمل ألآثاري فيحفره وتنقيبه، وبين عمل المحقق الباحث في فك رموز النص"([8]).ومن نماذج التعاريف الاستشراقية للتوثيق في معناه الشامل نذكر:

:يعرف المستشرق (موريتمر تاوبة)التوثيق بأنه مجموعة العمليات التي يشتمل عليها توصيل المعلومات المتخصصة و التي تتضمن العمليات التي تكون العمل المكتبي المتخصص إلى

---

[1]) الوثيقة كتبت لحفظ الحقوق أو الهوية أو لتسيير النظام الإداري اولارتباطها بعلاقات الناس وتكون لها الصفة القانونية ، وتعرفالوثيقة بأنها كل وسيط يقدم معلومات أو حقيقة أو يساعد على تقديمحقيقة ما، فالمصادر المادية مناثار وعمارة ونقوش وأختام و مسكوكات وآلات حرب ولباس هي منأنماط الوثائق ،كما ان المصادر الروائية من مخطوطات وكتب وصحفومواد سمعية وبصرية هي أيضاً وثائق

[2]) انظر:المعجم الوسيط،ابراهيم انيس واخرون، ج2، ص1012-1011 ،مادة(وثق).

[3]) تحقيق عبد الرحمان الاطرم، في جزأين،نشر دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث،ط1، 1426هـ/2005م.وقد افتتحه المؤلف بمقدمة تحدث فيها عن أهمية علم الوثائق والتوثيق، وسبب تأليفه لهذا الكتاب.كما قسَّمه إلى 16بابا :15الأولى جعلها في آداب الموثِّق وأحكام الوثائق، ويذكر في ثناياها بعض الفوائد والتنبيهات المرتبطة بموضوعه،ويذكر أحيانا أقوال العلماء ويُرَجِّحُ بينها، وقد يَستدركُ عليهم أحيانا.وخصص الباب 16لفتاوى ونوازل فقهية في كتابي النكاح والطلاق، وما يتعلق بهما من الأحكام. وقد تميَّز على ما سواه من المؤلفات في هذا الباب الفقهي لشموله جوانب التوثيق المختلفة، وعرضه لفتاوى ونوازل كثيرة وخاصة في الباب16، وكثرة مصادره التي رجع إليها في بناء مادته وتنوعها، وخاصة كتب المالكية.ولأهميته من بين كتب الأحكام والوثائق اعتمده الكثيرون في مؤلفاتهم ونقلوا عنه واستدلوا ببعض آرائه في تآليفهم، كابن فُتُوح في "بلوغ الأمنية"، وابن فرحون في "تبصرة الحكام"، ولسان الدين ابن الخطيب في رسالته "مُثْلَى الطريقة في ذَمِّ الوثيقة "وغيرهم كثير.

[4])A.GIRY.MANUEL DE DEPLOMATIQUE.VOL2.PARIS 1925.

[5])انظر: الدبلوماتيك :علم دراسة الوثائق ونقدها، سالم الالوسي،بدون تاريخ ومكان

[6]) انظر:عبد المجيد عابدين، التوثيق تاريخه وأدواره،المجلس الدولي للتوثيق،بغداد،1982.

[7]). انظر:- كشف الظنون،لحاجي خليفة،دار العلم ،بيروت.ط.د.ت.- سلوى علي ميلاد، قاموس مصطلحات الوثائق والأرشيف، (عربي – فرنسي- انجليزي)،دار الثقافة للطباعة والنشر،القاهرة، 1982.

[8])انظر:- حسن حلوة ،"الدبلوماتيقا"،مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة،المجلد 27،الجزء1-2، ماي – ديسمبر1965،القاهرة.

جانب العمليات المبدئية الخاصة بإعداد و نسخ المواد و ما يتبعها من عمليات التوزيع.

: ويعرفه المستشرقان (جيمس ماك jams mack) و(روبرت تايلورROBART TAYLO) بأنه مجموعة من العمليات اللازمة لتجميع و تنظيم و توصيل المعرفة المتخصصة وذلك لغرض توفير أقصى استخدام ممكن للمعلومات التي تشتمل عليها .

:ويعرفه المستشرق(براد فوردBRADFORD)بأنه عملية جمع و تصنيف جميع سجلات المعرفة و المعلومات الحديثة و تيسير استعمالها لمن يحتاجها من الباحثين و المخترعين .

:ويعرفه المستشرق الايطالي(يوجينو Youjinou) بأنه التجميع المنظم للوثائق الناتجة عن فعاليات الدوائر والمؤسسات أو الأشخاص، والتي تقرر حفظها لأهميتها السياسية أو القانونية أو الشرعية لتلك الدائرة أو الشخص.

ويعرفه المستشرق (شيرا Shera) بأنه شكل أخر من العمل المكتبي يمتاز بكونه أكثر عمقا في التناول و التحليل الموضوعي و الاهتمام بالتغطية الشاملة في تجميع مصادر المعلومات بصفة خاصة للمتخصصين في مجال تغطية مركز التوثيق (1).

أما قاموس وبستر WABASTR dictionary فيعرف التوثيق بأنه تجميع للمعرفة المسجلة و ترميزها و بثها على أن تعامل هذه المعرفة بطريقة شاملة و بإجراءات متكاملة و مع الاستعانة بعلم المعاني و الوسائل الآلية بأساليب التصوير المختلفة و ذلك حتى تنال المعلومة اكبر قدر من الإتاحة و الاستخدام (2)،وفي هذا الإطار يقول الأستاذ عبد الله أحمد حقيل: "(...)وفي العصر الحديث أصبحت الوثائق علمأيدرس ، فالعلوم الوثائقية والأرشيفية أصبحت اليوم تحتل مكانة رفيعة(...)ونظراً لهذه الأهمية، أنشئ الاتحاد الدولي للتوثيق)([3]).

[1])انظر:"التوثيق: المنهجيات و النظم في علم تحليل الوثائق"،أنور عبد القادر الرشيد،نشر مركز التوثيق والمعلومات،الكويت، بدون تاريخ.

[2])انظرعبد الله الحجيلي ، علم التوثيق الشرعي، مكتبة الملك فهد الوطنية،2003.

[3])انظر:عبد اللطيف زكي أبو هاشم،"الوثائق وأثرها في كتابة التاريخ"،مجلة دنيا الرأي ، بتاريخ 1-12-2005.

2: مفهوم الرقمنة:رقمنة التراث العربي المخطوط ونشره إلكترونياً:

يعد مصطلح الرقمنة Digitization ([4])بصفة عامة مصطلحا جديدا في أوساطنا العربية ،وفي أوساط النشر الإلكتروني بصفة خاصة،وبالتالي فإن مصطلحات"رقمنة التراث العربي" هي ألفاظ مستحدثة بالتبعية.وقد شاع استخدام تقنية الرقمنة بمفهومها الشامل في مجالات عديدة وأصبح من المفيد والضروري استخدام هذه التكنولوجيا في مجال النشر الإلكتروني عامة وفي نشر التراث العربي خاصةً،والمقصود منها هو تحويل هذا التراث المخطوط من شكله الرقي او البردي غيرهما من أنواع الحوامل وحتى المطبوع الورقي إلى الشكل الرقميDigital،أو الإلكتروني Electronic، وتخزينه على وسائط متنوعة،وإتاحتها على أقراص مليزرة CD-ROMs أو جهاز القرص المضغوط ويعرف بالإنجليزية باسم Compact Disc player([5])أو عبر الشبكة العنكبوتية Internet وبالطبع فهذا التراث الإلكتروني لا يمكن الاستفادة منه وقراءته إلا من خلال المصادر الإلكترونية التي أصبحت منتشرة اليوم وفي متناول الجميع سواء كانت الأجهزة Hardware ([6]) كالحواسيب أو البرمجياتSoftware([1]).

[4])Digitization is the process of converting information into a digitalformat . In this format, information is organized into discrete units of data (called bit s) that can be separately addressed (usually in multiple-bit groups called byte s). This is the binary data that computers and many devices with computing capacity (such as digital camera s and digital hearing aid s) can process.

[5])Un CD-ROM (acronyme de *Compact Disc - Read Only Memory*), parfois écrit cédérom, est un disque optique utilisé pour stocker des données sous forme numérique destinées à être lues par un ordinateur ou un lecteur compatible (salon, console de jeu, etc.).Le CD-ROM est une évolution du CDaudio original, qui était destiné aux données numériques musicales prévues pour un lecteur de CD de chaîne Hi-fi ou de baladeur. Grâce à leur grande capacité de stockage et leur compacité, les cédéroms ont supplanté les disquettes dans la distribution des logiciels et autres données informatiques.

[6])Computer hardware (usually simply called hardware when a computing context is concerned)

وقد تعددت المفاهيم المتعلقة بمصطلح "الرقمنة"، وذلك وفقاً للسياق الذي يستخدم فيه، فينظر المستشرق"تيري كاني" "Terry Kuny" إلى الرقمنة على أنها عملية تحويل مصادر المعلومات على اختلاف أشكالها من (الكتب، والدوريات، والتسجيلات الصوتية، والصور، والصور المتحركة....) إلى شكل مقروء بواسطة تقنيات الحاسبات الآلية عبر النظام الثنائي (البيتات Bits) ، والذي يعتبر وحدة المعلومات الأساسية لنظام معلومات يستند إلى الحاسبات الآلية، وتحويل المعلومات إلى مجموعة من الأرقام الثنائية، يمكن أن يطلق عليها "الرقمنة"، ويتم القيام بهذه العملية بفضل الاستناد إلى مجموعة من التقنيات والأجهزة المتخصصة([2]).

وتشير المستشرقة "شارلوت بيرسي" "Charlette Buresi" إلى الرقمنة على أنها منهج يسمح بتحويل البيانات والمعلومات من النظام التناظري إلى النظام الرقمي.في حين يقدم المستشرق "دوج هودجز" "Doug Hodges" مفهومًا أخرًا تم تبنيه من طرف المكتبة الوطنية الكندية، ويعتبر فيه الرقمنة عملية أو إجراء لتحويل المحتوى الفكري المتاح على وسيط تخزين فيزيائي تقليدي، مثل (مقالات الدوريات، والكتب، والمخطوطات، والخرائط....) إلى شكل رقمي.

وما يمكن استخلاصه أن المفاهيم السابقة تتشارك في أن عملية الرقمنة لا تعني فقط الحصول على مجموعات من النصوص الإلكترونية وإدارتها، ولكن تتعلق في الأساس بتحويل مصدر المعلومات المتاح في شكل ورقي أو على وسيط تخزين تقليدي إلى شكل إلكتروني، وبالتالي يصبح النص التقليدي نصًا مرقمنًا يمكن الاطلاع عليه من خلال تقنيات الحاسبات الآلية.

وهناك العديد من الأسباب التي رجحت كفة الشكل الإلكتروني لمصادر التراث العربي عن نظيره الورقي، وخاصة أننا تعودنا الآن على سماع بل واستعمال مصطلحات مثل: "المكتبات الرقمية"،و"المكتبات الإلكترونية"،و"كتب إلكترونية قابلة للتحميل" و"ملفات محملة بتقنية PDF"،وغيرها في مقابل مصطلحات كانت متداولة الى وقت قريب مثل:"المكتبات التقليدية"، و"الكتب المطبوعة"والمخطوطات المحفوظة بالخزائن والعامة والخاصة وغيرها من المصطلحات.

3: التراث:

أ: لغةً:التراث في اللغة مشتق من الفعل الثلاثي (ورث)([3])،و الورث أو الإرث بمعنى البقاء، والوارث بمعنى الباقي، والميراث أو التراث سمي بذلك لأنه يبقى بعد انتقال صاحبه إلى دار البقاء، والورثة لأنهم يبقون بعد موروثهم ، والوارث اسم من أسماء الله الحسنى(4)،وقد ورد الفعل(ورث) في القران الكريم بمختلف

---

is the collection of physical elements that constitutes a computer system. Computer hardware is the physical parts or components of a computer, such as the monitor, mouse, keyboard, computer data storage, hard disk drive (HDD), graphic cards, sound cards, memory, motherboard, and so on, all of which are physical objects that are tangible. In contrast, software is instructions that can be stored and run by hardware.

[1])Software is any set of machine-readable instructions that directs a computer's processor to perform specific operations.A combination of hardware and software forms a usable computing system.

[2])انظر:حافظي زهير،"دور تكنولوجيا المعلومات في حفظ المخطوطات العربية"، cybrarians journal، العدد 14 ،شتنبر 2007.

[3])انظر:ابن فارس، أبي الحسن أحمد بن زكريا (ت 395ه)، معجم مقاييس اللغة، مطبعة مصطفى الحلبي، 1400ه/1980م الطبعة الثالثة، ج6، ص105.

[4]) روى البخاريُّ ص 526 برقم 2736، ومسلم ص 1075 برقم 2677 في صحيحيهما ،من حديثِ أبِي هُرَيرة - رضِي اللَّه عنْه - أنَّ النَّبِيَّ - صلَّى الله عليْه وسلَّم - قال)) :إنَّ لله تسعةً وتسعين اسمًا مائة إلاَّ واحدًا، مَن أحْصاها دخل الجنَّة) ،و قال الزجَّاج: "الوارثُ كلّ باقٍ بعد ذاهبٍ فهو وارث"،و قال الحليمي: "الوارث معناه الباقي بعد ذهاب غيره".وانظر:أبو إسحاق إبراهيم الزجاج تفسير أسماء الله الحسنى،تحقيق أحمد يوسف الدقاق،دار الثقافة العربية ،مصر،بدون تاريخ،ص65.-أبو عبد اللهالحسين بن الحسن الحليمي، المنهاج في شعب الإيمان،تحقيقحلمي محمد فودة ،نشردار الفكر،بيروت،ج 1،ص189. –محمد المحمود النجدي،النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى،نشر مكتبة الإمام الذهبي،الكويت،بدون تاريخ،ج2،ص289.

وورد في قوله تعالى :(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ) الحجر الاية23،وقوله سبحانه وتعالى(رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) الأنبياء الآية 89،وقوله تعالى :(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ

اشتقاقاته اللغوية(فعل ماض، فعل مضارع، فعل مبني للمجهول، اسم فاعل، اسم، وبالإفراد والجمع)وبدون تكرار23 مرة ،ومنها قول الله سبحانه وتعالى :{وتأكلون التراث أكلا لما}(1)،وقوله عز وجل:{ فَخَلَفَ من بَعْدهمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ }(2)، وقوله سبحانه وتعالى:{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}(3)،وقوله عز وجل:{وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ }(4) وغيرها من الآيات(5).

وعلى العموم يطلق التراث أو الميراث عل الأمور المادية والمعنوية التي يخلفها الآباء والأجداد للأبناء والأحفاد(6) ،وفي هذا الإطار قال النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأهل عرفة: "اثبتوا على مشاعركم هذه، فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم"(7)،وقال صلى الله عليه وسلم "إن العلماء ورثة الأنبياء إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر(8)"(9)،وأنشد عمرو بن كلثوم في بعض أبيات معلقته قائلا:

"وَرِثْنَا المَجْدَ قَدْ عَلِمَتْ مَعَدٌّ*** نُطَاعِنُ دُوْنَهُ حَتَّى يَبِيْنَا(...)
وَرِثْنَاهُنَّ عَنْ آبَاءِ صِدْقٍ *** وَنُوْرِثُهَا إِذَا مُتْنَا بَنِيْنَا(...)"(10)

وعليه فان"التراث" هو "كل تركة مورثة من جيل إلى جيل" ونعني هنا التراث العربي الثقافي.

بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ)القصص الآية 58.

1)الآية 19 من سورة الفجـر.

2) سورةالأعراف :الآية 169
3) سورة فاطر:الاية32
4) سورة غافر: الآية :53
5) انظر:إسماعيل ابن كثير،تفسير القرآن العظيم،دار المعرفة،بيروت ،1980، ج4، ص509

6)انظر:خليل عماد الدين،"حول مصطلح التراث"،سلسلة عالم الكتب،دار تثقيف للنشر، الرياض، المجلد13 ،العدد2،شهر رمضان 1412 هـ، ص139-140

7)" حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُوسَى ، حدثنا الْحُمَيْدِيُّ ، وَسَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ ، قالا :حدثنا سُفْيَانُ ، حدثنا عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ ، قَالَ أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَفْوَانَ الْجُمَحِيُّ ، أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلا مِنْ أَخْوَالِهِ مِنَ الأَزْدِ ، يُقَالُ لَهُ : يَزِيدُ بْنُ شَيْبَانَ ، قَالَ : أَتَانَا ابْنُ مِرْبَعٍ الأَنْصَارِيُّ وَنَحْنُ بِعَرَفَةَ ، فَقَالَ : إِنِّي رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْكُمْ ، يَقُولُ " : كُونُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ هَذِهِ ، فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ إِبْرَاهِيمَ . " وَكَانَ سُفْيَانُ رُبَّمَا قَالَ: "اثْبُتُوا "وَرُبَّمَا قَالَ:"مِنْ إِرْثِ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ" وانظر :معجم الصحابة ،لعبد الله بن قانع أبو الحسين ،تحقيق صلاح بن سالم المصراتي، نشر مكتبة الغرباء الأثرية،ج2،بدون مكان،بَابُ الزَّايِ،حديثزَيْدُ بْنُ مِرْبَعٍ،رقم الحديث: 408

8) أخرجه أحمد (21207)، والترمذي(2682) ،وأبو داود (3641)، وابن ماجة(223)،والدارمي(343)، وابن حبان(88)، والبيهقي في الشعب(1571)، وفي المدخل (347)، والشهاب القضاعي في مسنده(975)، والطبراني في مسند الشاميين(1231)،والبغوي في شرح السنة(129)، وفي معالم التنزيل (224)، والخطيب في الرحلة (134/1).

وانظر:-رزق الطويل،مقدمة في أصول البحث العلمي وتحقيق التراث،المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، 2003،ص141. -نعمات أحمد فؤاد، تراث وحضارة،دار الهلال، القاهرة،1984، ص15-22.

9)انظر:الديب عبد العظيم،نحو موسوعة شاملة للحديث النبوي الشريف: الكمبيوتر حافظ عصرنا، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،1989، ص 21-22.

10) توفي الشاعر عمرو بن كلثوم سنة 600م،وتعد هذه المعلقة الخامسة التي تضم 100 بيت من أغنى المعلقات في الشعر الجاهلي بأغراض الملحميات والحماسة والعزة والفخر. ومطلعها:

أَلاَ هُبِّي بِصَحْنِكِ فَاصْبَحِيْنَا ***وَلاَ تُبْقِي خُمُوْرَ الأَنْدَرِيْنَا

مُشَعْشَعَةً كَأَنَّ الحُصَّ فِيْهَا*** إِذَا مَا المَاءَ خَالَطَهَا سَخِيْنَا

تَجُوْرُ بِذِي اللَّبَانَةِ عَنْ هَوَاهُ*** إِذَا مَا ذَاقَهَا حَتَّى يَلِيْنَا

وخاتمتها:

إِذَا مَا المَلْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفاً*** أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِيْنَا

مَلأْنَا البَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا*** وَظَهرَ البَحْرِ نَمْلَؤُهُ سَفِيْنَا

إِذَا بَلَغَ الفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ*** تَخِرُّ لَهُ الجَبَابِرُ سَاجِدِيْنَا

ب: اصطلاحاً:هو الثقافة المتناقلة بين الأجيال بما تتضمنه من أفكار وفلسفات وعادات وتقاليد ورؤى وجماليات وأذواق([1])،ويتضمن أيضا التراث العلمي المخطوط الذي يحمل في طياته فكراً علمياً قيماً، في مختلف فروع العلم، والذي سلمه سلف علماء الأمة ومفكريها جيلا بعد جيل للأجيال اللاحقة عليهم، وبهذا يُعد التراث العربي عموما والمغربي خصوصا القلب النابض بالحياة، لكل من أراد أن يغترف من معينها بقصد الدراسة والتحقيق والفهرسة.

ويبقى التراث عبارة عن مفهوم عميق، في أمة وارثة، وأمة موروثة وضرورة الحفاظ إليه مسؤولية تثقل كاهل حامله ،فالأجيال تتوارثه وتوارثها فيه بقاؤه فهو يمكن من سمو الهدف، ونبل المقصد، في الروح والمعنى، فكل ما كان التراث عريقا كان له مجد تليد، واستمرارية في العطاء.

4:المخطوط: le manuscrit :

هو كل كتاب قديم كتبه مؤلفه بخط اليد سواء بخط يده أو خط أيدي تلاميذه أو خط أحد النساخ من بعدهم،والصحيح أن يقال"الكتاب المخطوط"لأن هناك العديد من الأشياءتكتب باليد ولا تدخل في إطار المخطوطات مثل النقائش وما كتب على الأحجاروالأبواب([2]).إن الكتاب المخطوط حسب ما أكده العديد من الدارسين والباحثين هو مخزن المعارف وسجل التجارب والخبرات في الحضارات الراقية، وقد لاقى عناية فائقة ومعلومة في الحضارة العربية الإسلامية على مر تاريخها،ففيه دونت علوم المسلمين ومعارفهم وآدابهم...،وتعدت هذه العناية إلى جانب ما حوته المخطوطات من العلوم إلى المخطوط ذاته صناعة وكتابة وحفظا،فتفنن المسلمون في فنون صناعة الورق والحبر والتجليد وأدوات الكتابة والتزيين والتذهيب وأساليب الحفظ من كراسي([3]) وصناديق و ربعات([4])،بل وذهبوا ابعد من ذلك حين شيدوا للمخطوط العربي المكتبات والخزائن ودورا لحفظه وعرضه ومجالس لنسخه وتدوينه تحت رعاية الأمراء والملوك([5])،وقد عبر

---

[1])انظر: " مفهوم التراث"،جريدة عكاظ، العدد : 1850،الثلاثاء 1427/06/15هـ - 11/ يونيو/2006 .

[2])إلا أن كتاب المعجم الموسوعي لمصطلحات المكتبات و المعلومات لمحمد الشامي أحمد حسب الله، الرياض،دار المريخ ،1988.ص704، يذكر عكس هذا الأمر فيقول في تعريف المخطوط :"و هو أيضا المكتوب باليد في أي نوع من أنواع الأدب سواء كان على ورق أو على أي مادة أخرى كالجلود والألواح الطينية القديمة والحجارة وغيرها ".وراجع:- عامر إبراهيم قندليجي،مصادر المعلومات من عصر المخطوطات إلى عصر الانترنيت،دار الفكر ،عمان،2000،ص44.- عمر احمد همشري،أساسيات علم المكتبات والمعلومات،دار الشروق،عمان،1997،ص74.

[3]) وتعرف ايضا بمحمل الكتب وكرسي القراءة وعود النساخة وحمار الكتب وهذا الاسم الاخير اطلقه حسب العلامة احمد السجلماسي عامة اهل فاس عليه، وهو محمل من لوحين تسد أواسطهما فيفتح ويطوى ثم يوضع عليه الكتاب للاستنساخ او القراءة ويسند جانباه الى لوح الملزم. ويقول لسان الدين بن الخطيب في وصف الملزم:

"يا حسنه من ملزم آثاره — لذوي الوراقة احسن الآثار
وكانما الكراس طرف أشبه — شدوا على شفتيه عود زيار
وكأنما قلم الكتاب بصفحه — مكوى وذاك النفط نفط النار"

وانظر: الذهب الابريز،لاحمد بن مبارك السجلماسي،المطبعة الأزهرية ،مصر،1346، ص149.-لسان الدين ابن الخطيب، الاحاطة في اخبار غرناطة، الشركة المصرية للطباعة والنشر،القاهرة،1977، ج4،ص 714.- ايمن فؤاد السيد،الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات،2ج،الدار المصرية اللبنانية ،القاهرة،1997،ص185.

[4]) ومفردها الرَّبْعَة بضم الراء،وقدعرفها سيدي محمد العربي الفاسي في شرح كتاب دلائل الخيرات للجزولي ، مخطوط بالخزانة العامة في الرباط، قسم حرف كاف تحت رقم 1532، ص179-180 فقال:"أن المراد بالربعة صندوق مربع الشكل من خشب مغشى بالجلد ذو صفائح وحلق يُقَسَمُ داخِلُه بيوتا بعدد أجزاء المصحف ، يُجْعَلُ في كل بيت منه جزء من المصحف وإطلاقها على المصحف مجاز"،وعرفها قاموس تاج العروس ،ج5، ص343 فقال:"وأما الربعة بمعنى صندوق فيه أجزاء المصحف الكريم، فإن هذه مولدة لا تعرفها العرب ،بل هي اصطلاح أهل بغداد...."و للإشارة فالرَّبْعَةُ بفتح الراء هي :"المصحف مجزأ ثلاثين جزءا" ،وانظر:المعجم الوسيط ، ابراهيم انيس واخرون،م.س،ج1 ،ص365

[5]) يراجع مثلاً: -ألكسندر سيبتفيتش، تاريخ الكتاب، ترجمة محمد الأرناؤوط، سلسلة عالم المعرفة، عدد 169، يناير 1993، ج 1، ص222.- توبي أ. هف، فجر العلم الحديث، ترجمة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرف، عدد 219، غشت 1997،ص 90.- تقرير التنمية الإنسانية العربية، نحو مجتمع للمعرفة، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، المكتب الإقليمي للدول العربية، عمان - الأردن، 2002، ص71.كما أُقيمت في مركز عُمان الدولي للمعارض، بالعاصمة العُمانية (مسقط) في الفترة من10 إلى 16 نوفمبر 2012، تظاهرة علمية كمشاركة دولية ضمن «المعرض الوثائقي الثالث»، تتناول رحلة المخطوط من الصناعة إلى الحفظ مروراً بالكتابة، وتُركِّز على الآلات والأدوات التي استخدمت في الصناعة الورق، الحبر والتجليد والنِّساخة والحفظ تحت عنوان:"صناعة المخطوط

المؤرخ وول ديورانت عن ذلك بقوله:" لم يبلغ الشغف بإقتناء الكتب والمخطوطات في بلد آخر من بلاد العالم اللهم إلا في بلاد الصين بما بلغه في بلاد الإسلام في هذه القرون، حين وصل إلى ذروة حياته الثقافية، وأن عدد العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند لم يكن يقل عن عدد ما فيها من الأعمدة "([1]). وقد عرفه صاحب كتاب القاموس المحيط فقال :"أن المخطوط لغة مأخوذ من خط بالقلم وغيره خط يخط خطا كتب أي صور اللفظ بحروف هجائية"([2])،وقد ظهر هذا المصطلح مع دخول الطباعة للمغرب إذ لم يطلق عليه المغاربة مصطلح"المخطوط" بل أطلقوا عليه اسم"النسخة القلمية"، وتداولوا كلمة المخطوط عندما احتكوا بالمشارقة.

ومن أحسن التعاريف للفظ (الكتاب) الذي نقصده هنا مخطوطا كان أو مطبوعا هو تعريف بول أوتليه **paul otlet** الذي يصف الكتاب بأنه:"دعامة من مادة وحجم معين قد يكون من طينة أو لغة معينة تنقل عليه رموز تمثل محصولا فكريا معينا"([3]).ويخبرنا المستشرق فرانسوا ديروش أن هذا العلم هو:" ابتكار علمي حديث" ([4])،وهو علم مرتبط بالمخطوط شكلا ومضمونا، فشكلا :هو ما يسمى بالجانب المادي للمخطوط أو الكوديكولوجيا **Codicologie** ومضمونا:هو ما يسمى بتحقيق المخطوطات.و في هذا الإطار يقول الأستاذ احمد شوقي بنبين:"

تعرف "الكوديكولوجيا" بأنها العلم الذي ينصرف الى دراسة المخطوطات باعتبارها مادة أساسية تدرس لذاتها،من خلال الإدراك بأنه لا يمكن البحث، في توثيق النص وتحقيقه ودراسته، دون الإلمام بالأسس المادية، وتحديد الظروف العلمية والاجتماعية، التي تم خلالها إنجاز المخطوط، ثم معرفة الطرق التي وصل بها هذا النص"([5]).

و لفظ كوديكولوجيا**codicologie** يوناني الأصل يتركب من لفظين أو مقطعين هما **codex** وتعني كتاب و **logos** وتعني علموبحث([6]) ،ولم يدخل هذا المصطلح المحدث إلا في عام 1959 إلى المعجم الفرنسي **le dictionaire encyclopèdie grande**.وفي الاصطلاح علم المخطوطات هو علم دراسة كل اثر لا يرتبط بالنص الأساسي للكتاب الذيكتبه المؤلف أي انهيعنى بدراسة العناصر المادية للكتاب المخطوط متمثلة فيالورق،الحبروالمداد،التذهيبو التجليد وأيضا حجم الكراسة والترقيم والتعقيبات وكل ما دون على صفحة الغلاف (الظهرية) من وقراءات وإجازات ومناولات ومقابلات وبلاغات ومعارضات ومطالعات وتقييدات ووقفيات، وما يسجل في أخر الكتاب فيما يعرف بالكولوفون أي (قيد الفراغ من كتابةالنسخة) من اسم الناسخ ومكانه والنسخة المنقول عنها وكذالك معرفة الصدرالذي جاءت منه النسخة والجهة التيآلت إليها وما على النسخة من أختام وصور ورسوم...وماشابه ذالك،وقد أطلق الأوروبيون عليها اسم خوارج الكتاب**libiri_ EX** ([7]).و يعد علم المخطوطات تجربة تنمو بالممارسة أي بواسطة الاحتكاك الدائم

الإسلامي: الآلات والأدوات . وهي بإشراف وتنسيق محمود زكي من (معهد المخطوطات العربية بالقاهرة)، وذلك تحت رعاية وتنظيم «هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية».

[1])انظر: ديورانت وول،قصة الحضارة، تعريب أحمد بدران،مجلد13،نشر لجنة التأليف و الترجمة والنشر،مصر، 1950،ص171.

[2])انظر: بطرسالبستاني،قاموسمحيطالمحيط،بيروت،لبنان،1870 ، ج1 ، ص563 .

[3])انظر:عبد الهادي الفضلي، تحقيق التراث،مكتبة العلم ،جدة،ط1، 1402/ 1982، ص34.-عبد السلام هارون،قطوف أدبية دراسات نقدية في التراث العربي حول تحقيق التراث،مكتبة السنة ،الدار السلفية لنشر العلم،القاهرة،الطبعة 1، 1988.

[4])انظر: المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي، ترجمة أيمن فؤاد السيد،مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن 2005. ولمراجعة الشروط التي أدخلت فيها الكلمة في منتصف القرن 20 وراجع:
-j- lemaire.introduction.p 1. The shorter oxford English dictionary 1 et 2

[5]انظر:أحمد شوقي بنبين،"نحو تأسيس علم مخطوطات عربي التجربة الغربية"، مجلة التاريخ العربي، العدد25، الجزء3.

[6]) انظر:مدخل إلى علم الكتاب المخطوط ، فرانسوا ديروش، م.س، ص13.

[7])وبهذا المفهوم تستقل"الكوديكولوجيا"عن كل من"الفيلولوجيا"التي تنصرف إلى الاهتمام بالنص في دراسة المخطوط،و"الباليوغرافيا"التي كانت تعني"علم المخطوط" بالإضافة إلى"علم الخطوط القديمة"والتي انصرفت للاهتمام بدراسة الخط والشكل في المخطوطة من جميع الوجوه.وانظر:-محمد الشويخات،الموسوعة العربية العالمية،مؤسسة أعمال الموسوعة،الرياض ،ج22، 1999،ص25.–المدخل إلى علم الكتاب المخطوط بالحرف العربي،فرانسوا ديروش،م.س،ص 14.– عباسهانيالجراخ ،"ماألفيفيمناهجالتحقيق ،قائمةوراقيةتحليليةلتوثيقودراسة"،مجلةمجمعاللغةالعربيةبدمشق،المجلد 82، الجزء 2،ص (1- 24).

بالمخطوط والمرابطة بدور الأرشيفوالخزانات العامة والخاصة،وهو علم يكتسب أيضا بالتلقين، ويقال إن علم المخطوطدراية يلقنها المحترف للمبتدئ، والتلقين هو خبرة تكتسب بواسطة الأستاذالمحترف لمهنة علم المخطوطات وبواسطة سعة الاطلاع على فهارس المخطوطاتوكتب قواعد تحقيق النصوص.

وإذا كان هذا العلم -الكوديكولوجيا- جديدا بالنسبة للتراث العربي المخطوط،فهوعلم قديم عند الغربيين يستمد أصوله ومقوماته من أعمال علماء الفيلولوجياالكلاسيكيين في القرن17م،وعلى الأخص منهم الرهبان البنديكتيون(Les Bénédictin)كالراهب الفرنسي مونتفكون (Montfaucon) الذي يعتبر كتابه المسمى:la bibliotheca(bibliothecarum) ([1])،من أهم مصادر هذا العلم،وحتى العصر الحديث كان علم المخطوطات يعتبر جزءا من الباليوغرافيا،وكان العلماء الألمان يستعملون لفظ الباليوغرافية التطبيقية(Palagraphie)أو التاريخية للتعبير عن علم المخطوطات قبل أن يستعملوا لفظ هاندشري فتنكونده (Handschri ftenkunde) واحتفظوا بلفظ الباليوغرافيا لعلم الخطوط القديمة([2])،وقد جاء في كتاب"علم المخطوطات" للمستشرق جاك لومير أن كلمة كوديكولوجيا تشوبها مسحة من الغموض شأنها في ذلك شأن مجموعة من المصطلحات العلمية الجديدة، وقد وضعها –اي كلمة كوديكولوجي – المستشرق ألفونس دان A.dain المختص في المخطوطات اليونانية واللاتينية والذي صرح في كتابه أن:"الكلمة جديدة في الفرنسية وهي إنما تنسب إلي،فلها مكانها منذ الآن،منذ 1959 في (اللاروس الموسوعي الكبير Grand larousse encyclopedique)،وقد تبنتها ودونتها مختلف لغات العالم (...)"([3]).وقيل تنسب إلى المستشرق شارل سامران CH.samaran، إذ يخبرنا جلبير أوي G.ouyبما نصه:"(...)ولم تتأسس أثرية الكتاب ،باعتبارها ميدانا مستقلا إلا حديثا،وسماها شارل سامران خلال تدريسه في مدرسة الدراسات العليا"علم المخطوطات codicologie"وهي لفظة نابية بعض الشيء،إلا أنها ملائمة وهي التي أصبحت تلقب بها الآن"([4]).إذن فكل واحد من هذين الباحثين الفرنسيين يدعي نسبتها إليه.والاهم أن الكلمة اكتسبت على مر الزمن معاني ربما قد لا يكون روادها الأوائل قد عرفوها ،واغتنت بمجموعة من الدلالات التي يصعب علينا في غالب الأحيان أن نلتمس من ضمنها الرأي الصائب، وأن نميز بين مختلف المعاني التي أعطيت اليوم لمصطلح"علم المخطوطات"،وأن نحدد من ضمنها الاقتراحات المناسبة ([5]).

ويتعلق هذا العلم بأحد أهم مصادرالدراسات التاريخية وهي المخطوطات التي شكلت المادة الخام للعديد منالرسائل والأطروحات الجامعية، سواء بالاعتماد على نصوصها أو بدراستهاو تحقيقها. وينقل الأستاذ عبد الستار الحلوجي في كتابه تعريف المستشرق الهولندي جان جاست ويتكام الذي يُعَرِّفُعلْم المخطوطات بأنَّه: "الدِّراسة المخْتَصَّة بتناولجميع جوانب المخطوطة باستثناء محتواها، كما يوصف بأنه: ذلك العلم الذييُرَكِّز كليًا على الخصائص المادية للكتاب المخطوط باليد، وهذه تعاريفمُفيدة إلا أنها مُسْرفة في التبسيط".وانالعلم الذي عرف بالكوديكولوجيا لاستمد بعض الشرعية من الطريقة التي عرف بها الغرب عادة كُتُبَهُ،فعلى العكس من اللغة العربية التي تنوه بالمُؤَلَف المكتوب – في كلمات مثل كتاب ومخطوط – فان اللغة الفرنسية بعد اللغة اللاتينية تحيل بطريقة اشتقاقية قبل كل شيء إلى المواد: (كتاب) (كراس) (مجلد) التي تشير على التوالي إلى الشَكِّير([6])،والألواح الخشبية،أو لفائف البردي([7]).وان

---

[1])استعمله لأول مرة في اللغة الفرنسية بهذا الشكل في إحدى رسائله المؤرخة بتاريخ 14 دجنبر 1708. وقد درس هذا الراهب اللغة الإغريقية واللغات الشرقية، وله كتاب في المنهج بعنوان "علم الخطوط الإغريقية القديمة(Paleographia graeca).

[2])انظر:أحمد شوقي بنبين،دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي،مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء،1993،ص11-12.

[3])انظر:-ألفونس دان،كتاب المخطوطات،باريز،1964،ص76.- جاك لومير،مدخل إلى علم المخطوط ،ترجمة مصطفى طوبى ،المطبعة والوراقة المغربية،مراكش،الطبعة2006،1 ،الهامش رقم 1،ص23

[4])انظر:جلبير أوي،الخزانات في التاريخ ومناهجها،باريس،مطبعة غالمار ،1961،ص1088

[5]) انظر:جاك لومير،مدخل إلى علم المخطوط ،م.س،ص 23.

[6])هو الخشب الطري بين اللحاء والخشب الصلب في ساق النبات

[7]) انظر:- عبد الستار الحلوجي،نحو علم مخطوطات عربي،م.س،ص16. -جان جاست ويتكام،دراسة المخطوطات الإسلامية بين اعتبارات المادة والبشر ،ترجمة وتحقيق رشيد

البنية التي تحدد موضوع علم المخطوطات هي بنية الكتب التي مازلنا نستخدمها إلى اليوم، رغم أن المطبعة حلت فيها محل الناسخ و الرقمنة الحديثة محل الناشر.

وصفوة القول فلتحقيق الأهداف المتوخاة من علم المخطوطات فقد أصبح لزاما علينا كباحثين ومهتمين بهذا المجال أن نطور من ملكاتنا المعرفية وقدراتنا الاكتسابية وذلك بموازاة مع مواكبة السيرورة المعلوماتية من خلال نهج اتجاهين: أفقي وعمودي،أفقي من خلال توسيع الباحث لمجال بحثه في مختلف المكتبات العامة والخاصة في المدن والبوادي بغرض جمع مادته العلمية والإلمام بالمخطوطات وأماكن تواجد نسخها وميزة كل مكتبة واهم محتوياتها وأقدم كنوزها إلى غير ذلك،وعموديا من خلال الاستعانة بما تقدمه الطرق المخبرية الحديثة من آليات تسمح بالإجابة على الأسئلة التي لا يسمح الفحص الدقيق بحلها كتركيب الألوان و تحديد ألياف ورق معين وزمن الكتابة وغيرها، إضافة إلى الاستفادة من التطورات المعلوماتية بشتى وسائلها ودعاماتها،مادام أن الهدف العلمي الأسمى للباحث هو خدمة التراث المخطوط والحفاظ عليه وإيصاله في صورة سليمة للأجيال القادمة .

ولكن هذا الإحداثيات المعاصرة والتطورات التقنية والالكترونية لازالت مكتباتنا العربية عموما والمغربية خصوصا بعيدة كل البعد عنها اللهم بعض الخزانات الخاصة في بعض دول الخليج وبعض الدول الأجنبية التي انفتحت بمحتويات خزاناتها في وجه الرقمنة وسهلت على المتصفح لمواقعها الالكترونية عملية قراءة وتحميل الكتب والمخطوطات ،وهو ما نفتقد إليه في خزاناتنا إذ لازال الباحث يبذل جهدا في عملية التنقل من خزانة إلى أخرى و البحث عن المخطوط ونسخه وان تعذر عليه الحصول على مبتغاه وعدم توفر إمكانية الطبع امضي أياما وهو يقصد الخزانة لنسخ المخطوط ونقله وربما مقارنته ليعود أدراجه ليبدأ مرحلة جديدة وهي تحقيقه والبحث عن المصادر والمراجع وكتب التراجم والطبقات وغيرها لإثبات هوامشه وتعليقاته إلى غير ذلك من الخطوات المنهجية التي تضني كاهل الباحث وهو ما يفسر العزوف الذي نشهده ألان في العلوم الإنسانية عن تحقيق الطلبة للمخطوطات في أطروحاتهم للدراسات العليا.

المحور الثاني: التوثيق الرقمي للتراث العربي المخطوط: بين الأهمية والواقع والآفاق:

لقد اجمع الباحثون على أن من بين ابرز الأسباب التي ساهمت في الانتشار الواسع للتوثيق الرقمي للمخطوط العربي و رجحت كفة صياغته والإقبال عليه بشكله الإلكتروني ما يلي:

قلة التكاليف: حيث أصبحت تكنولوجيا المعلومات متوفرة في متناول الغالبية وبتكاليف ميسرة، وبالتالي يمكن للفرد ولوج مراكز المخطوطات ومواقع المكتبات العربية والأجنبية التي تتيح الاطلاع على مخطوطاتها وقراءتها وتحميلها بصيغة البدف(PDF)([1]) أو بأي صيغة من الصيغ الكترونية المتاحة بسهولة ويسر.

توفير الحيز المكاني: حيث لا يحتاج المخطوط بشكله الرقمي أو الإلكتروني إلى حيز كبير لحفظه ،إذ أصبح من السهل الآن حفظها على الحاسوب مباشرة وحتى إن كانت في وسائط خارجية كالاسطوانات المليزرة فإنها لا تحتاج إلى حيز كبير، مجرد رف بمكتبة الباحث أو درج بخزانة تجعلنا نحمل آلاف المخطوطات والكتب، وأحيانا في قرص واحد خاصة إذا كانت طاقته الاستيعابية تتجاوز (16 MG) .

سهولة الحصول عليها:إن تقدم تكنولوجيا المعلومات ووسائل الاتصالات الحديثة جعلت من السهولة بمكان الحصول على المخطوط مرة ثانية ، ولا نحتاج في ذلك إلا الاتصال بالشبكة العالمية العنكبوتية ودخول الموقع ذاته طلب المخطط وتصفحه،وفي حالة إذا ما كان الباحث قد سبق له وان حمل هذه

العناني،نشر مؤسسة الفرقان للتراث العربي، بيروت، 1997، ص168.

[1]) وهي تقنية العرضوتعرف بالفرنسية باسم (PORTABLE DOCUMENT FORMAT)،وهي طريقة تتم عبرها رقمنة النصوص أو على الأصح تصويرها بالماسح الضوئي، كما هي في أصولها الورقية، ويشبهها بعض الباحثين بالطباعة الحجرية في فجر ظهور الطباعة حيث كانت المنشورات الأولى تشبه إلى حد كبير المخطوطات بمحافظتها على أصالة الخط وعلى نوعية الكتب، وتعد هذه الطريقة أفضل التقنيات من حيث احترام ضوابط الأصالة والتوثيق العلمي، وأكثرها خدمة للباحثين في مختلف المجالات بإتاحتها عرض الكتب كما هي في الأصل بصفحاتها وهوامشها، فتصبح التقنيات الرقمية، وسيطاً لنقل الكتاب لا بديلاً عنه، ولهذا السبب اختارتها مكتبات رقمية عالمية لتخزين النصوص والوثائق وعرضها ومنها المكتبة الوطنية الفرنسية في موقعها GALICA ،ومؤسسة الملك عبد العزيز للمخطوطات،ومكتبة جامعة الملك سعود للمخطوطات بمختلف فروعهما في العالم.

المخطوطات من الإنترنت،فلا يحتاج إلا لوجود قارئ الاسطوانات المليزرة CD-ROM Readers ،ومن أي مكان هو متواجد فيه مادام يحمل حاسوبه ومتصل بشبكة الانترنيت.

المشاركة في المصادر: تتيح تقنية رقمنة مصادر التراث المخطوطة فرصة المشاركة بين الأفراد والجهات في أماكن متباعدة، ويمكن الإطلاع والاستفادة من نفس المادة لأكثر من جهة أو أكثر من شخص في نفس الوقت وبذلك تتعمم الفائدة ويتسع مجال التواصل والاتصال بين الباحثين والمهتمين. الشكل الإلكتروني للمخطوطات: يسهل عمليات مقارنة النصوص بين نسخ له أخرى كانت مخطوطة أو مطبوعة ،بل أكثر من ذلك يمكن للباحث أن يكبر الصورة ويصغرها كيفما يشاء ويغير ألوان المخطوط إن كانت باهتة و إزالة بعض البقع السوداء التي تعلو جنبات صفحات المخطوط وغيرها من التقنيات المساعدة للباحث.

العمل على تسهيل نشر الثقافة بين أفراد المجتمع وخصوصاً في حالة النشر الإلكتروني على الشبكة العالمية، وفي ذلك تعريف أبناء الأمة العربية والإسلامية بمصادرها العتيقة من التراث العربي الإسلامي المخطوط وأمهات الكتب([1]).

وصفوة القول إن النشر الإلكتروني قد أحدث تطوراً هاماً على صعيد الاستفادة من تكنولوجيا المعلومات في مجال نشر التراث العربي المخطوط وذلك على عدة أصعدة ومستويات.

1:أهمية التوثيق الرقمي للتراث العربي المخطوط ونشره إلكترونياً:

لقد حظي التراث العربي المخطوط منذ القدم وإلى عصرنا الحالي بعناية كبيرة رسميا وشعبيا ،رسميا من قبل الملوك والأمراء وشعبيا من قبل العلماء و الباحثين والمحققين والمهتمين وهو الذي يهمنا الآن، فنجد في كل مكان وزمان من يقضي السنوات في عمليات جمع المخطوطات ونسخها وترتيبها وتصنيفها وفهرستها أو تحقيقها ونشرها أو تحبيسها لتكون في متناول الباحثين وكل ذلك بمجهوده الشخصي وبإمكانياته الشخصية ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه علينا وبإلحاح ،إذا كان العلماء والمحققون والباحثون قد قاموا بهذا الجهد المضني للحفاظ على هذا التراث الفكري المخطوط وإيصاله بصورة سليمة جيلا بعد جيل فما هي الفائدة إذاً من عمليات نشر هذا التراث المخطوط بالشكل الإلكتروني وبصيغته الرقمية؟ أهو مجرد ترف فكري؟ أم تكرار لجهود السابقين؟ أم أن الأمر بالفعل ضرورة علمية وعملية أصبحت ملحة في عصر المعلومات؟

للإجابة على هذه الأسئلة لابد لنا أن نقرر أولاً صعوبة البحث في مصادر التراث العربي المخطوط في شكله العادي، وهذا ليس بجديد فالعلماء القدماء وعلى مر العصور كانوا يشتكون من صعوبة الوصول إلى المخطوط ،واقتنائه وقراءته وتفحص صفحاته وما يتبع ذلك من المشاكل المادية والمعنوية التي تصادف الباحث،كغزارة المعلومات الواردة في المخطوط و طريقة ترتيب موضوعاته والتي تختلف في كل مصدر عن الآخر وفقا لطبيعة المؤلف وزمانه ومكانه وموضوع الكتاب في حد ذاته،وكل هذا يتطلب من الباحث المهتم بذل الجهد والوقت وتوفر المادة وربما يصل إلى مبتغاه وربما يضيع جهده سودا.

إن النشر الإلكتروني اليوم يمثل فرصة كبيرة لعمليات إحياء التراث العربي الحضاري، كما يمثل أيضاً تحدياً كبيراً لهذا التراث العربي المخطوط ، فهذا التحدي يجعلنا أمام خيارين فإما أن نستطيع أن نستغل هذه التكنولوجيا الحديثة ووسائل الاتصالات المتطورة بطرق علمية ومعقلنة في عملية إحياء تراثنا العربي الإسلامي المخطوط ونشره في بقاع العالم بالطرق الحديثة التي أضحى لا غنى عنها اليوم في حياتنا المعاصرة، وإما أن نرضخ للأمر الواقع ونُقر بأننا بالفعل كما اصْطُلِحَ علينا"بشعوب العالم ثالث" حتى في طرق نشر وتداول ثقافتنا وحضارتنا وتراثنا الفكري والذي كان هو منبع وشعاع النور لدول العالم اجمع بدأ بمرحلة الخلافة الإسلامية ووصولا إلى حقبة طويلة في التاريخ، وذلك سيجعل لا محالة من تراثنا عامة والمخطوط خاصة وبالطبع لغتنا العربية في حالة انزواء وركود هائل ، ويصدق علينا قول القائل من مُدعي الثقافة و العصرنة:إن الحضارة العربية والتراث الإسلامي ولغة الضاد مجرد جبال وقمم عالية يكسوها فقط بياض الثلوج لا تحركها رياح ولا تصلها سحب وبالتالي لا يصلحون لنشر تراثهم و لا مواكبتهم للعلم الحديث.وللوقوف على ما يعانيه التراث العربي والإسلامي المخطوط من إهمال وانزواء نستعين بنتائج دارسة حديثة قام

[1])انظر: زكار معتصم:"استعمال تكنولوجيا المعلومات في استكشاف و نشر التراث"،ضمن اعمال ندوة نظمت تحت عنوان:(توظيف تقنيات المعلومات و الاتصالات في التعليم برعاية الاتحاد الدولي للاتصالات) جامعة دمشق ، يوليو 2003.

بها مركز التراث الحضاري و الطبيعي بمكتبة الإسكندرية في مصر سنة 2009، كشف فيها المسئولون على أن حجم المحتوى من التراث العربي المخطوط على شبكة الإنترنت لا يتعدى نسبة 0. 5 في المائة من المحتوى التراث العالمي على الشبكة العنكبوتية العالمية،كما كشفت الدراسة نفسها على أن نسبة التراث العربي الإسلامي على الشبكة العالمية لا يتجاوز 16.5 في المائة مما تم تسجيله على قائمة التراث العالمي، وذلك لا يتوافق بأي حال من الأحوال بالكم الهائل الذي أسهم به التراث العربي والإسلامي وحضارته في الفكر البشري على مر العصور.

من هنا فالسؤال الذي يفرض نفسه علينا في هذا السياق وربما يطرحه الأغلبية:هو لماذا الرقمنة؟، لماذا يجب أن تتجه مؤسسات المعلومات سواء كانت خزانات خاصة أو مكتبات عامة إلى رقمنة مجموعاتها من مصادر المعلومات المخطوطة كانت والمطبوعة؟.إن الإجابة عن مثل هذه الاستفسارات وغيرها،لَرهِينٌ بضرورة التعريف بأهمية عملية الرقمنة ثم الإحاطة بمجموعة الأهداف التي يمكن تحقيقها من ورائها.

فالرقمنة تعتبر مبادرة أصبحت لها قيمة متزايدة لدى مؤسسات المعلومات على اختلاف أنواعها، كما أنها تتمتع بأهمية كبيرة بين أوساط المكتبيين واختصاصيي المكتبات والمعلومات، حيث يستلزم تشييد مكتبة رقمية أو إعادة برمجة محتويات خزانة ما تقليدية في طبيعتها الى خزانة عصرية بمحتوياتها،يستلزم أن تكون محتوياتها من مصادر المعلومات كيفما كانت متاحة في شكل إلكتروني، وهناك الكثير من النماذج المنوه بها لمكتبات عامة وخاصة عربية- شرق أوسطية بالخصوص وأجنبية عفي العموم تبنت المبادرات التي تدور حول مفهوم "الطريق السريع للمعلومات" والتي أعطت الدافع نحو تحويل الكثير من مصادر المعلومات من شكلها التقليدي إلى مجموعات متاحة على وسائط رقمية حديثة يتداولها الباحثون بكل سهولة مع إمكانية مشاركتها بين عدة مستفيدين في الوقت نفسه، وبالتالي يمكن لها أن تستوعب الزيادة المتنامية في أعداد المستفيدين، وذلك بالمقارنة مع المجموعات التقليدية التي تبقى حكرا على مُطلعِهَا إلى أن يُرجعها لقيم الخزانة ([1]) .

وللتعرف إلى أهمية عملية الرقمنة، من الجيد الإشارة إلى أن رقمنة الوثائق تزيد من إمكانية الاستفادة منها، من خلال تيسير عمليات الوصول والاطلاع عليها، حيث أصبح في الإمكان إجراء البحث أو الاستعلام داخل النصوص الكاملة لمصادر المعلومات،والاستعانة بمجموعات من الروابط الفائقة "Hypertext"([2])،والتي تحيل القارئ مباشرة إلى النصوص

---

[1]) وعرف قديما أيضا باسم الوثاق والموثق وهما أسماء لمهمة واحدة ترتكز على الإجراءات الفنية التي تتخذ على الوثيقة و تيسير استعمال المعلومات الأصلية التي سجلت في الوثيقة الكتابية بخاصة: الدوريات والنشرات، التقارير والمواصفات وبراءات الاختراع وما كان مماثلا لها في المدونات الخطية ومن هذا العمل بالذات عرف التوثيق بأنه عملية جمع وتصنيف جميع المدونات والمعلومات الحديثة، وتيسير استعمالها لطالبيها،وإن المعلومات مهما تكن قيمتها العلمية تفقد هذه القيمة إن لم تخضع لعملية التوثيق بمفهومها المتقدم لوظيفة الوثاق أو الموثق.وفي الحقيقة ومهما تضاربت الآراء حول التعريف بالمهمة التي يقوم بها الموثق أهي مرتبطة بعلم المكتبات، أم منفصلة عنه، فهي تؤكد على أن التوثيق ما هو إلا جانب من علم المكتبات، إلا أن له خاصيته وطبيعته ودراساته الخاصة من ناحية في ما تنطبق عليه أكثر النظم المكتبية، وهذه الطبيعة يجب أن يدركها الوثاق ويعمل في ضوئها. وانظر:- مصطفى علي ابو شعيشع،دراسات في الوثائق ومراكز المعلومات الوثائقية، بدون تاريخ ومكان.- يحيى وهيب الجبوري، منهج البحث وتحقيق النصوص،دار الغرب الاسلامي،بيروت،1993.- هاني صبحي العمد، المعالجة الفنية للمعلومات: الفهرسة التصنيف التوثيق التكشيف والارشيف، بدون تاريخ ومكان.- ابي الفتوح حامد عودة، نظم التصنيف الحديث في المكتبات والارشيفات المتخصصة، بدون تاريخ ومكان.-وظيفة القيم في تاريخ الخزانات المغربية،احمد شوقي بنبين،ضمن كتاب دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي، مطبعة النجاح،البيضاء،1993،ط1،ص57-69 .

[2])Un système hypertexte est un système contenant des nœuds liés entre eux par des hyperliens permettant de passer automatiquement d'un nœud à un autre. Et Un document hypertexte est donc un document qui contient des hyperliens et des nœuds. Et Un nœud est une « unité minimale d'information », notion assez floue qui signifie simplement que l'information d'un nœud sera toujours présentée entière. Puis Les liens entre les parties du texte sont gérés par ordinateur et permettent d'accéder à l'information d'une manière associative ou, tout au moins, d'une façon de naviguer personnalisée, de manière non linéaire, au

التي يبغي الاطلاع عليها، إلى جانب إحالته إلى المصادر الخارجية المرتبطة بموضوع بحثه. وجدير بالذكر أن الرقمنة لا تستهدف فقط استبدال مقتنيات وخدمات المكتبات التقليدية بمجموعات وخدمات إلكترونية، فالهدف الرئيسي لها ومنها يكمن في تطوير وتحسين الاستفادة من مقتنيات المكتبات جنباً إلى جنب مع تطوير الخدمات المقدمة،وفي هذا الإطار يحدد المستشرق"بيير إيف دوشومانPierre Yves Duchemin" مجموعة الأهداف الأساسية المنشود تحقيقها من وراء الرقمنة والغاية من تعميمها، والتي يمكن تلخيصها في أنها تتيح الفرصة أمام:

حماية المجموعات الأصلية والنادرة:حيث تمثل الرقمنة وسيلة فاعلة لحفظ مصادر المعلومات والمخطوطات النادرة والقيمة والفريدة في نوعها، أو تلك التي تكون حالتها المادية هشة ومهترئة وبالتالي لا يُسمح للمستفيدين بالاطلاع عليها، كما تعمل على تقليص أو إلغاء الاطلاع على المصادر الأصلية، وذلك بإتاحة نسخة بديلة في شكل إلكتروني توضع في متناول المستفيدين ورهن إشارتهم.

التشارك في المصادر والمجموعات: تمثل إمكانية استخدام المصدر الرقمي من جانب عدة مستفيدين في الوقت نفسه، اتجاهًا ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار من أجل القضاء على مشكلة النسخ المحدودة من المجموعات التقليدية، والتي تحدد عدد المستفيدين الراغبين في الاطلاع على مصدر المعلومات في ضوء عدد النسخ المتاحة منه.

الاطلاع على النصوص: بالرغم من أن الاتصال الفيزيائي للمستفيد مع مصدر المعلومات التقليدي قد ينقطع مع عملية الرقمنة،وهو الأمر الذي يرفضه بعض الباحثين والمختصين في تحقيق المخطوطات نظرا للعلاقة الروحية الخفية التي يجب على المحقق أن يربطها مع المخطوط المراد تحقيقه والتي تتأسس بدءا من عملية اللمس وتصفح ورقات المخطوط وقراءته مرات عدة بروية وتأني،إلا أن عملية الرقمنة أيضا يمكن أن تتيح إن كانت متقنة و جودتها عالية قراءة أفضل من تلك التي يتيحها النص الأصلي المخطوط، كما توفر بعض الإمكانيات والخدمات التي من شأنها تسهيل قراءة النص مثل إجراء تكبير النص وتصغيره "الزوم Zoome"، والانتقال السريع إلى أي جزئية من جزيئات النص من خلال منظومة الروابط الفائقة، إلى جانب إمكانية محاكاة وسيط الاطلاع الرقمي "الكتاب الرقمي" للكتاب التقليدي الورقي.

زيادة قيمة النصوص: يمكن أن تمثل الرقمنة الحديثة فرصة الاستفادة القصوى من مصادر المعلومات القيمة أو النادرة، والتي يمكن أن تكون في بعض الأحوال غير منشورة على نطاق واسع. ويمكن أن يتحقق ذلك من خلال إعادة إتاحة هذه المصادر سواء في شكل أقراص مليزرة "CD-ROM" أو أقراص مدمجة تفاعلية"Compact Disc Interactif"(CD-I)([1])،أو إتاحتها من خلال الشبكة الداخلية للمكتبة"Intranet"([2])أو الشبكة العالمية "Internet". وذلك في حال ما إذا كان الجمهور المستهدف يمثل قطاعًا عريضًا. ويعتمد أسلوب الإتاحة على السياسة العامة التي تتبعها مؤسسة المعلومات في هذا الشأن.

إتاحة المصادر عبر منظومة شبكات المعلومات: يمثل إتاحة وتبادل مصادر المعلومات عن بُعد إحدى السمات الأساسية

---

gré de l'utilisateur. La notion d'hypertexte a trouvé sa plus grande réalisation dans le World Wide Web.et Lorsque les nœuds ne sont pas uniquement textuels, mais aussi audiovisuels, on peut parler de système et de documents hypermédias

[1])Le CD-i, sigle de Compact Disc Interactif, a été conçu par Philips, Sony et Matsushita pour imposer un nouveau standard « multimédia », concept très en vogue depuis le début de l'année 1991. Le succès n'a pas été au rendez-vous .Il peut contenir aussi bien des données brutes que de la vidéo ou du son. Ses spécificités sont données dans le Green book. Les CD-i ne peuvent pas être lus dans un lecteur de CD standard et ont été conçus pour être utilisés avec la télévision.

[2])Un intranet est un réseau informatique utilisé à l'intérieur d'une entreprise ou de toute autre entité organisationnelle qui utilise les mêmes protocoles qu'Internet (TCP, IP, HTTP, SMTP, IMAP, etc...). Parfois, le terme se réfère uniquement au site web interne de l'organisation, mais c'est souvent une partie bien plus importante de l'infrastructure informatique d'une organisation.

التي تتميز بها المجموعات الرقمية، فقد يكون في وسع المكتبة إمداد أي مكتبة أخرى بنسخة إلكترونية من مصدر المعلومات عبر منظومة الشبكات، ويجب أن تتم هذه العملية بشكل متبادل بين المكتبات حتى يتمكن المستفيد من الاطلاع والمقارنة في موقع واحد على كل مصادر المعلومات المتاحة في عدة مكتبات أو مؤسسات المعلومات.

وصفوة القول تنبع أهمية نشر التراث المخطوط العربي والإسلامي بالشكل الإلكتروني المرقمن، فمن المعلوم أن كل أمة ليس لها تراث ليس لها تاريخ وتكمن قيمة الأمم فيما تحتفظ به من تراثها القديم الذي تراكم عبر العصور من خبرات السابقين، وأن هذا التراث المخطوط القديم إنما هو أرض صلبة يقف عليها الحاضر ويُوَلِّد دفعة قوية إلى مستقبل الأمم،وتراثنا المخطوط هو دفعة هائلة لنا للتطلع إلى المستقبل، فقد ساد العلماء العرب والمسلمون العالم قروناً في كل ميادين العلوم والمعرفة، وبالتالي فإن عملية بعث هذا التراث ونشره يشكل لنا بحق دافعا للوصول إلى مصاف الأمم الرائدة،إلا أن ما نعيشه اليوم في عصرنا الراهن يحتم علينا التطور والتقدم والرقي ومواكبة العصرنة،فمع أن العالم أصبح كما يقال مجرد قرية صغيرة بفضل وسائل النقل والاتصالات الحديثة،والتكنولوجيات المتطورة إلا أنه من العيب بمكان أن تواصل خزاناتنا ومكتباتنا الوطنية العامة والخاصة مشكورة العمل على إتاحة محتوياتها للباحثين وفتح أبوابها أمام الوافدين عليها بالشكل التقليدي المعتاد المتعارف عليه،لقد أصبح من اللازم عليها أن تيسر لهم سبل البحث عن بعد بخلق موقع شامل يجمع هذا التراث المخطوط ويسمح للباحث بتحميل غرضه مساعدة للباحثة ومساهمة في نشر المخطوط العربي عامة والمغربي خاصة أو اضعف الإيمان تحميل المخطوطات تبعا لفهرسة معينة على اسطوانات مكتنزة CD-ROMأو على المصغرات الفيلميةMicroforms([1])او الميكروفيلم([2]) Microfilms وجعلها في متناول الباحثين خدمة للبحث العلمي ومساهمة في نشر التراث المخطوط والتوعية بتاريخه ومكانته وأهميته.

2:واقع التوثيق الرقمي للتراث العربي المخطوط وآفاقه:

إن ما شهده العصر الحديث ويشهده التاريخ المعاصر من طفرة نوعية في الاختراعات وتواصل مستمر في الاكتشافات العلمية المرتبطة بتطور مصادر الثقافة منذ اختراع المطبعة التي مكنت من تجاوز عائق نشر المعارف والعلوم وإتاحتها لقاعدة عريضة من الناس، إلى الثورة المذهلة التي تفوق في قوتها وتأثيرها ظهور الطباعة، وهي الثورة الرقمية: ثورة المعلومات والاتصالات والنشر الإلكتروني والشبكة العالمية للمعلومات(الانترنيت)،وأثر كل ذلك في المفهوم التقليدي للمكتبات، ساهم في إبراز تصورات جديدة وطرق حديثة متطورة للاستفادة من أوعية المعرفة تمثلت في استغلال تقنيات الحاسوب والاتصالات في تخطي حواجز الزمن والمكان وحدود القدرة البشرية في البحث والاستقصاء والتحليل.

والحقيقة التي لا غبار عليها اليوم أن الساحة العالمية تشهد حالياً منافسة حادة وحامية الوطيس بين الثقافات والحضارات واللغات في طرق استغلال هذه التقنيات والاستفادة من الحيز الأوفر من المجال الرقمي الذي تتيحه المعلوماتية، ولعل أجلى مثال على ذلك دراسة إحصائية قيمة أجرتها منظمة اليونسكو وشاركت فيها 39 مكتبة وخزانة وطنية وجامعية من مختلف أنحاء العالم ومنها ثلاث بلدان إسلامية لا يوجد بينها أي دولة عربية وهي إيران وأندونيسيا وماليزيا،وقد أفرزت نتائج هذه

---

[1])Microforms are any forms, either films or paper, containing microreproductions of documents for transmission, storage, reading, and printing. Microform images are commonly reduced to about one twenty-fifth of the original document size. For special purposes, greater optical reductions may be used.All microform images may be provided as positives or negatives, more often the latter.And Three formats are common: microfilm (reels), aperture cards and microfiche (flat sheets). Microcards, a format no longer produced, were similar to microfiche, but printed on cardboard rather than photographic film.

[2])Le microfilm, dans sa forme documentaire, est un support de stockage analogique reproduisant des documents, tel des pages de livres ou périodiques, des documents juridiques ou comptables ou des dessins techniques.et Il existe aussi un microfilm dit COM (Computer output microfilm) réalisé par impression directe d'un film photographique à partir d'un fichier numérique.

الدراسة حقائق صادمة،ذلك أن52% من المكتبات المشاركة في الإحصاءلا زالت أغلبيتها في طور التفكير و بداية الإعداد لوضع مخططات تهدف إلى استعمال برمجيات الرقمنة و تحيين محتوياتها الرقمية،مقابل48% من المكتبات التي تعمل بجد في مشاريع رقمنة تراثها الخزائني، و أوضحت الإحصائية نفسها أن 42% من مشاريع هذه المكتبات انطلق العمل فيها ابتداء من سنة 1995-1996([1]).

ولم تعد المنافسة متعلقة بمجرد النشر على الشبكة العالمية للمعلومات، أو إنشاء المواقع الكثيرة العامة والمتخصصة و التي تهدف إلى نشر المعرفة وتعميمها،بل تجاوز الأمر ذلك إلى إنشاء مكتبات رقمية افتراضية او كما يحلو للبعض تسميتها بالخائلية([2])،وهي مواقع علمية مُوثَّقة ومُتخصِّصَة،و القصد منها تجميع النصوص التراثية والوثائق والمخطوطات القديمة على اختلاف أشكالها وترتيبها وفق نظم معينة لتوفيرها للمتصفحين المهتمين،بطرق متنوعة ومتخصصة ومتكاملة ومرتبطة فيما بينها بروابط تشعبية. ومن المكتبات العالمية الرائدة في هذا المجال أذكر على سبيل الذكر لا الحصر :مكتبة الكونغرس الأمريكية ومشروعها المسمى المكتبة الرقمية الأمريكية American Digital Library([3])، والمكتبة الوطنية الفرنسية المعروفة باسم Gallica([4])،والمكتبة الوطنية الإسبانية ([5])،ومكتبة سيرفانتس الإسبانية(CERVANTESVIRTUAL)([6])، ومكتبة جامعة هافارد الأمريكية ([7])، ومكتبة اوكسفورد([8])،والمكتبة البريطانية للمخطوطات العربية([9])،وغيرها من المكتبات الكثيرة و المتنوعة ،دون أن نغفل الإشارة إلى مشروع المكتبة الكونية Bibliotheca universalis الذي وضع أساسه قادة الدول السبع الأكثر تصنيعاً في العالم ضمن مشروع المجتمع المعلوماتي سنة 1995 والذي يقدم فكر هذه الدول - أي الفكر الغربي - على أساس كونه فكراً كونياً ([10]).أما عربيا فقد برزت في الآونة الأخيرة بوادر الرقمنة للمكتبات العربية وان كانت محدودة ومعدودة على رأس الأصابع إلا أنها تبقى مبادرات ينوه بها لما تكابده في جمع التراث العربي المكتوب خاصة منه المخطوط وإخضاع هذه المحتويات لعملية المسح الضوئي ومن تم الرقمنة،وساذكر من هذه المكتبات :مكتبة جامعة الملك آل سعود للمخطوطات ([11])،ومكتبة جامعة ام القرى

---

[1]) انظر:"تحقيق حول الرقمنة والصيانة"،إشراف ماري تيريز فارمالوف،برعاية الاتحاد العالمي لجمعيات المكتبيين وبتعاون مع منظمة اليونسكو، في إطار برنامج (مكتبة العالم).

[2]) أو الوهمية أو الخيالية وهي ما يعرف بالفرنسية virtual - potentiel-virtuel ،وضدها réel– effectif.وانظر:معجم لاروس ،2015،باريس،ص1070.-معجم اوكسفورد،ص782.- سهيل ادريس،المنهل،دار الاداب للنشر والتوزيع،بيروت،ص344.- نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات،سلسلة عالم المعرفة،نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، عدد 276، دجنبر 2001ص. 103.

[3]) ورابطها الالكتروني هو: www.loc.gov،وقد اعلن يوم الخميس 26 ابريل2013 عن اطلاق المكتبة الرقمية العامة الامريكية على شبكة الانترنيت وتهدف الى:البحث وتصفح واتاحة التراث الثقافي والعلمي للانسانية بالمجان،لايمانها بمبدا الوصول الحر والشامل للمعرفة.وانظر:محمد عبد الحميد معوض،"المكتبةالرقمية الامريكية"،مجلة التسجيلة،العدد25،ذو القعدة1434هـ/شتنبر 2013م،ص 78-85.

[4]) بدأ العمل بها سنة 1988 وشملت حتى الآن 50 ألف كتاب و35 ألف صورة،ورابطها الالكتروني هو www.gallica.bnf.fr .

[5]) ورابطها الالكتروني هو : WWW.BNE.ES

[6]) موقعها على الشبكة العالمية: www.Cervantesvirtual.com وقد افتتحت سنة 2000 بهدف نشر مائة ألف كتاب بلغات متعددة على رأسها الإسبانية.

[7]) جامعة هارفارد الأمريكية تعد من أقدم الجامعات في العالم، تقع في مدينة كامبردجبولاية ماساتشوستسالأمريكية. أسسها القسالبروتستانتيجون هارفاردعام 1636لتناظر جامعتي كامبريدجوأوكسفوردفي بريطانيا،وتعتبر من أقوى الجامعات واحتلت جامعة هارفارد الأمريكية المرتبة الأولى على قائمة أفضل 100 جامعة في العالم في ترتيب نشر في ملحق لصحيفة "تايمز" البريطانية خصص لشؤون التربية.،وقد تخرج منها شخصيات عالمية.وتعد مكتبتها من أغنى المكتبات من حيث المخطوطات العربية. ورابطها الالكتروني المباشر هو: http://library.harvard.edu

[8]) ورابطها الالكتروني المباشر هو:https://www.ox.ac.uk/research/libraries?wssl=1

[9]) ورابطها الالكتروني المباشر هو: http://www.bl.uk/subjects/middle-east

[10]) انطلق التفكير في هذا المشروع بمشاركة سبع مؤسسات هي المكتبة الوطنية الفرنسية ووزارة الثقافة والاتصال الفرنسية والمكتبة الوطنية لمجلس النظام باليابان، ومكتبة الكونغرس الأمريكية والمكتبة الوطنية الكندية، والمكتبة الألمانية والمكتبة البريطانية ودار المحفوظات السمعية بإيطاليا. وانضمت إليها لاحقاً المكتبات الوطنية بكل من سويسرا والبرتغال وإسبانيا وجمهورية التشيك والمكتبة الملكية لألبير الأول ببلجيكا ومنظمة اليونسكو بصفة مراقب. ويمكن الاطلاع على معطيات المشروع في الموقع التالي: www.konobid.nl/gabriel.

[11])ورابطها الالكتروني المباشر هو: http://makhtota.ksu.edu.sa

للمخطوطات[1]،ومؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للمخطوطات بالدار البيضاء [2]،ومكتبة المصطفى الالكترونية[3]،ومكتبة مخطوطات ويلكوم الأسيوية العربية وهو عبارة عن مشروع الكتروني ضخم جاء نتيجة شراكة بينمكتبة الإسكندريةبمكتبة ويلكوموكلية كينج بلندنمع تمويل من برنامج(JISC) للدراسات الإسلامية[4]،وموقع الوراق[5] الذي أطلقته شركة القرية الإلكترونية بأبو ظبي[6] عام 2000،وغيرها من مراكز المخطوطات العربية،وأملنا كبير في أن تحدو خزاناتنا الوطنية المغاربية العامة والخاصة هذه النماذج الرقمية والتحرر من عقدة الأنا ورغبة التملك.

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل عملت مراكز البحث والتخطيط في الدول المتقدمة على وضع مشاريع مكتبات افتراضية حول الحضارة الإسلامية العربية في الوطن العربي شرقه وغربه لتضم المخطوطات وأمهات الكتب والمصادر والمجلات والجرائد خاصة النادر منها[7].وهكذا أضحت الشبكة العالمية للمعلومات كما قال أحد المستشرق بول دولاني كتاباً عالمياً بلغات متعددة يكتب فيه الجميع ويتصفحه

---

[1]) ورابطها الالكتروني المباشر هو:
https://uqu.edu.sa/lib/ar/198412

[2]) ورابطها الالكتروني المباشر هو:
http://digital.fondation.org.ma/cgi-...0&a=d&cl=CL3.2

[3]) ورابطها الالكتروني المباشر هو: http://www.al-mostafa.com/disp.php?page=scripts

[4]) ورابطها الالكتروني المباشر هو:
http://wamcp.bibalex.org/ar/home

[5])ورابطه الالكتروني المباشر هو www.alwaraq.net: ويُنظر إلى موقع الوراق على أنه من أولى المحاولات في مجال استخدام التقنيات الحديثة لتكنولوجيا الاتصالات وثورة المعلومات في توثيق وإتاحة مصادر التراث العربي وأمهات الكتب التي أوشكت على الاندثار، وذلك عن طريق رقمنة هذه المصادر ونشرها إلكترونياً على شبكة الإنترنت، ولعل أهم ما يميز هذه التجربة عما سبقها وعما لحقها من تجارب النشر الإلكتروني العربي أن موقع "الوراق" ركز وبصفة أساسية على مصادر التراث العربي والإسلامي، وحتى وقت قريب كان الوراق هو الناشر الإلكتروني الوحيد الذي يتيح كتب تراثية مثل كتاب الأغاني للأصفهاني، وكتاب الطبقات الكبرى لابن سعد، وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير وغيرهم من أمهات كتب الحضارة العربية الإسلامية التراثية. وقد تطور الوراق تدريجيا منذ التخطيط له في عام 1996 من مجرد قرص مليزر(CD)يتضمن مكتبته الخاصة إلى إصدار الموقع الإلكتروني على الشبكة العالمية في عام 2000.والجدير بالذكر ان موقع"الوراق"يقدم مصادر التراث العربي الإلكتروني في طريقة سهلة ومبسطة وتتيح عمليات الوصول إليها من خلال امتلاكه آليات بحث متميزة، تسهل في عملية الوصول إلى الكتب، كما يقدم "موقع الوراق" مجموعة من مصادر التراث على هيئة مواد سمعية وبصرية، وذلك للاستفادة من تكنولوجيا المعلومات في جعل مصادر التراث العربي أكثر ألفة وقرباً من القراء، وكذلك خدمة لبعض جمهور القراء الذين يفضلون الاستماع أو المشاهدة عن مباشرة القراءة.

[6]) هي شركة رائدة في تطوير المحتوى الإلكتروني العربي وتطوير المواقع العربية الثقافية على الإنترنت، و قد بدأت مسيرتها منذ عام 1998، وقد استمرت بإطلاق موقع المسالك www.almasalik.comعام 2005 وهو موقع يعنى بتتبع الحضارة الإنسانية من خلال الرحلات والرحالة. وفي عام 2006 أطلقت القرية الإلكترونية موقع أطلس المعلقات لتقديم المعلقات العشر مع مجموعة من أدوات البحث والأدلة الزمنية. وفي عام 2007 تم إطلاق موقع واحة المتنبي www.almotanabbi.comالذي يضم شعر المتنبي. وفي عام 2008 أطلقت القرية الإلكترونية موقع حوايا للشعر النبطي، وهو الموقع الأول الذي جمع بين منتخبات من الشعر النبطي في منطقة الخليج عموماً والإمارات خصوصاً.وتكمن رسالة القرية في الاستفادة من أحدث ما توصلت إليه تكنولوجيا المعلومات، ومن التطور الهائل في وسائل الاتصال لخلق بيئة تمكن الباحثين والدارسين والمثقفين والمهتمين من الوصول إلى مجموعة من أهم المصادر التراثية العربية.وذلك من منطلق أن أمتنا العربية والإسلامية تواجه تحدياً حضارياً شاملاً، وإن مواجهة هذا التحدي تبدأ من إعادة قراءة تراثنا الثقافي والفكري ونفض الغبار الذي علق به بعد قرون من التخلف والجهل، وإبراز قيمة ودور الثقافة العربية في الحضارة الإنسانية.

[7]) وتبرز خطورة هذه المكتبات في كونها تقدم تراث الأمة وفكرها حسب تصورات الغرب التي تجانب في الغالب الأعم الدقة والإنصاف. ومن نماذج هذه المكتبات مشروع "ميناليب Menalib المكتبة الخائلية للشرق الأوسط وشمال إفريقيا" the Virtual Library MiddleEast-North Africa - الذي تنجزه جامعة هالي الألمانية منذ أكتوبر 2000، والذي يستهدف إنشاء قاعدة بيانات حول شمال إفريقيا والشرق الأوسط ويمكن الاطلاع على مزيد من المعلومات بشأنه في الموقع التالي:
www. menalib.org.

الجميع([1])،وتبحث فيه كل أمة عن مكان تنشر فيه فكرها وهويتها وتاريخها... ([2]).

إن آفاق النشر الإلكتروني لتراثنا العربي الإسلامي المخطوط يحتاج فعلا إلى تضافر جهود مؤسساتية ومساندة رسمية و إشراك جماهيري بكل ما تحمله الكلمة من معنى،فكم من أسرة تختزن في سراديب بيوتها كنوزا مخطوطة،وكم من زاوية تحتفظ بين رفوف خزاناتها بتراث امة بأكملها، ولعل هذه المعاناة التي يعيشها تراثنا العربي بشكل عام والمخطوط بشكل خاص هي التي أثارت حفيظة رجال الفكر والباحثين والاختصاصيين على إحيائه وبعثه من جديد في ثوب الحداثة والعولمة،فانبرت الجامعات و المؤسسات الثقافية في الوطن العربي للقيام بعمليات نشر مصادر التراث العربي المخطوط الكترونيا،نظرا لقلة الدراسات الميدانية في هذا الجانب،فيمكن القول ان بداية الجهود في هذا الموضوع انطلقت منذ عام 1992 من خلال المؤتمرات والندوات التي أثمرت عن مشروعات و توصيات مهمة تحث على استخدام النظم الآلية في معالجة المخطوطات العربية، وسأتطرق إليها بإيجاز شديد مراعيا سياقها الزمني ومتوقفا عند حدود سنة2006،على اعتبار ان ما بعد هذه السنة كان حاسما في تاريخ رقمنة المخطوطات العربية وافرز ثورة عارمة تمثلت في إحداث مواقع قيمة وتحديث و تحيين مواقع أخرى منوه بها :

-في سنة 1992: بدأ الاهتمام بتوظيف تكنولوجيا المعلومات لخدمة قضايا المخطوطات وذلك بإنشاء قاعدة معلومات وطنية للأدبيات التراثية،والهدف الأساسي من إنشاء هذه القاعدة هو:

-غزارة الأدبيات التراثية المخطوطة و تنوعها، وعدم قدرة وسائل التوثيق على وضعها بشكل متكامل في أيدي الباحثين والمؤرخين، وتوافر وسائل جديدة يمكنها من تقديم خدمات من خلال قاعدة المعلومات.

-وجود خطط تهدف إلى إعادة تحقيق تاريخ الأمة لكثير من المصادر الأولية التي لا تزال مخطوطة و غير موثقة، وإن تأسيس هذه القاعدة سيؤدي إلى توفير معلومات تراثية و إحصائيات متنوعة ذات أهمية في كتابة التاريخ.

و أساس هذه القاعدة هي قواعد بيانات ببليوغرافية نصية تتمثل في مجموعة نصوص مخزنة على أجهزة ذات طاقة إستيعابية عالية مرتبطة بالحاسوب قادرة على تقديم خدمات المحتويات النصية أو الرسوم أو الزخارف أو النقل على القرص المكثف.و ما يمكن الإشارة إليه هو أن إنشاء هذه القاعدة النصية من منطلق إتاحة نصوص المخطوطات في شكل النص الكامل للمستفيدين من ناحية، وحفاظا على أصولها من ناحية أخرى، أما أسلوب تنفيذ هذه القاعدة فيتم في إطار التعاون العربي وتنسيق مع منظمة اليونيسكو والجهات المعنية بالتراث العربي الإسلامي.

أما ثاني مشروع طموح فتبناه مركز المعلومات التابع لرئاسة مجلس الوزراء المصري الذي يهدف إلى توثيق التراث الحضاري، ففي مارس من عام 1992 أصدر المركز مشروع إنشاء نظام معلومات المخطوطات العربية بدار الكتب المصرية. محددا الأهداف العامة للمشروع ومخرجاته و برنامج العمل والأنشطة،والموارد،ومن بين الأهداف العامة للمشروع الحفاظ على التراث الحضاري العربي، ونشر هذا التراث، وتوفير قواعد بيانات تساعد الباحثين على التعرف إلى هذا التراث، وأخيرا نشر تكنولوجيات المعلومات الحديثة في المراكز الأخرى بالوطن العربي، أما الأهداف التنفيذية التي كان المركز يطمح إلى تنفيذها خلال ستة أشهر في إنشاء مجموعة قواعد بيانات المخطوطات فيما يلي:

-قواعد البيانات البيليوغرافية للمخطوطات في دار الكتب المصرية.

-قواعد البيانات لمصطلحات المخطوطات العربية المنشورة.

-قواعد البيانات للمخطوطات المصورة " النسخ الكاملة لمجموعات المخطوطات ذات القيمة التاريخية والفنية".

---

[1]) انظر: .- بول دولاني،"الحاسوب والنقد الأدبي"، ترجمة نجيب غزاوي، مجلة ثقافات بكلية الآداب، جامعة البحرين ، عدد 3، صيف 2002. وراجع:-المحتوى الرقمي العربي على الانترنت.. نظرة على التخطيط الاستراتيجي العربي والعالمي،لمحمد رامي عبود،نشر دار العربي للنشر والتوزيع بالقاهرة،بدون تاريخ.-النشر الالكتروني ومشروعات المكتبات الرقمية العالمية والدور العربي في رقمنة وحفظ التراث الثقافي ،لاحمد يوسف حافظ، نشر دار نهضة مصر للطباعة والنشر،ط1،مصر ، 2013.

[2])انظر:المهدي السعيدي،"الدور الحضاري للمكتبة العربية في العصر الرقمي"،مجلة التاريخ العربي،العدد38.

-استخدام التكنولوجيا متعددة الأوساط في دعم قواعد بيانات المخطوطات.

و بعد أن تم تصميم نظام المعلومات، تم تكوين فريق عمل من موظفي قسم المخطوطات بدار الكتب المصرية، ليبدأ العمل الفعلي في إنشاء قاعدة البيانات البيبليوغرافية في ماي 1992 و استمر العمل لمدة عام ثم توقف في غشت 1993 لأسباب قيل إنها تقنية محضة([1]).

-في عام 1993:اهتمت مراكز المخطوطات الإسلامية بالرباط بالتعاون مع كلية التربية بجامعة محمد الخامس على الإستفادة من تكنولوجيا المعلومات الحديثة، و إنشاء قواعد المعطيات التي تخزن فيها فهارس المخطوطات ونصوصها([2]).

-في عام 1995:نتيجة مشروع قاعدة بيانات مخطوطات دار الكتب المصرية الذي أشرنا إليه سابقا أثمر العمل عن إدخال بيانات ما يقارب 37 ألف مخطوط، و أتيحت للاستخدام المحدود من طرف المستفيدين وعند تقييم هذه القاعدة ظهرت عدة سلبيات .

-في سنة 1996:نظمت الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية بمصر بالتعاون مع المنظمة الإسلامية للتربية و العلوم والثقافة، الندوة العالمية للمخطوطات و اجتماع رؤساء مراكزها في العالم الإسلامي و خصصت لدراسة " تكنولوجيا المعلومات لحفظ التراث المخطوط و نشره " حيث حددت مجموعة من المبررات للاهتمام بتكنولوجيا المعلومات في مجال المخطوطات([3]) .

-في عام 1997:اهتم معهد المخطوطات العربية بعرض تجارب عربية في فهرسة المخطوطات و دور الحاسوب في معالجتها و كذلك قضية الفهرسة الآلية للمخطوطات و اتجه اهتمام المتخصصين إلى ضرورة الاستفادة من تكنولوجيا المعلومات و توظيفها في خدمة قضايا المخطوطات، و إنشاء قواعد بيانات تمهيدا لتكوين قاعدة بيانات موحدة للمخطوطات العربية([4])

-في عام 1998:ظهر أول نظام معلومات آلي للمخطوطات العربية و من أبرز ملامح هذا النظام أنه موجه لفئتين، هما المكتبات والباحثون المهتمون بتحقيق التراث، و يتكون هذا النظام من نظامين فرعيين، الأول موجه للمكتبيين لإنشاء قواعد البيانات البيبليوغرافية و من أبرز ملامحه إمكانية تخزين صفحتين فقط لكل مخطوط مع الضبط والإتاحة، أما النظام الفرعي الثاني و هو موجه لمحققي المخطوطات و هو عبارة عن برنامج حاسوبي يتولى إجراء عملية المقابلة بين نسخ المخطوطات و إظهار الفروق بينها وجوهر هذا النظام يتمثل في اختزان نسختي المخطوط، كل في ملف نصي قياسي Standard text file بأسلوب التعرف الضوئي للتمثيلات أو الحروف([5]).

-في عام 1999:تم وضع إستراتيجية شاملة للعمل في التراث عامة و المخطوطات على وجه الخصوص وذلك من أجل إنقاذ ذاكرة الأمة من الضياع، و من أجل الاستفادة منه حاضرا ومستقبلا. وفيما يتصل بقضية الضبط والإتاحة فإن توظيف تكنولوجيا المعلومات ينصب على إنشاء قاعدة بيانات بيبليوغرافية شاملة تستوعب كل الجهود السابقة من فهارس و بيبليوغرافيات.أما بالنسبة للإتاحة فيجب خلق تشريعات متطورة تيسر تداول المخطوطات في شكل ورقي أو فيلمي أو على الأقراص الضوئية لضمان وجود نسخة منها في مواجهة أي خطر على المخطوط([6]).

-في عام 2000:شهد عام 2000 تطوير نظام معلومات المخطوطات العربية الذي أصدره مركز المعلومات التابع لرئاسة مجلس الوزراء المصري و أصدر الطبعة الثانية بإسم " النظام الآلي المطور للمخطوطات " Advanced Manuscripts

---

[1])انظر:أيمن فؤاد السيد، التجربة المصرية في التجارب العربية في فهرسة المخطوطات،معهد المخطوطات العربية،القاهرة ،1998،ص59.

[2])انظر:- أحمد شوقي بنبين،تكنولوجيا المعلومات لحفظ التراث المخطوط ،معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 1996، ص16.

[3])انظر:- عمر أحمدهمشري،أساسيات علم المكتبات والمعلومات،دار الشروق،عمان،1997.- عامر إبراهيم قندليجي و ربحي مصطفى عليان،مصادر المعلومات من عصر المخطوطات إلى عصر الإنترنت،دار الفكر،عمان،2000.

[4])انظر:أحمد شوقي بنبين، التجربة المغربية في:التجارب العربية في فهرسة المخطوطات،نشر معهد المخطوطات العربية، القاهرة ،1998،ص،141.- معتصم زكار، "استعمال تكنولوجيا المعلومات في استكشاف و نشر التراث العربي"،م.س.

[5])راجع:رجب عبد الحميد حسنين،"أثر النشر الإلكتروني في الارتقاء بالتراث العربي : تجارب رائدة"، Cybrarians Journal ،العدد 23، شتنبر 2010

[6])انظر:الصوفي عبد اللطيف،المراجع الرقمية والخدمات المرجعية في المكتبات الجامعية،دار الهدى للطباعة، قسنطينة،2004.

Integrated system،والذي يُعرف باختصاره (AMIS)،و يتم استخدامه في كل من دار الكتب المصرية و مكتبة الأزهر([1]).

-مابين سنوات 2001 – 2006:تزامنا مع استخدام النظم الآلية في خدمة التراث العربي المخطوط بدأت مشاريع رقمنة المخطوطات العربية لحمايتها من التلف والضياع بوضعها على وسيط آلي و تسهيل الإطلاع عليها عن بعد من قبل الباحثين([2]).من هنا كانت البداية اذ تعددت المشاريع لرقمنة المكتبات وارشفتها الكترونيا وكثرت المحاولات بين مؤيد ومعارض كل يُدلي بدلوِه الى وقتنا الراهن.

خاتمة استنتاجية:

و صفوة القول لقد انطلقت الثورة الرقمية حوالي سنة 1971 مع بداية انتشار استعمال الحواسيب الشخصية،وإطلاق خيوط شبكة الانترنت بحوالي عقدين من الزمن بعد ذلك،وخلال هذه المرحلة تعالت الأصوات بضرورة الإسراع في إجراء مراسيم الوداع الرسمي لزمن جوتنبرج([3])،لتجد ورشة المطبعة في العالم العربي و الأجنبي اليوم نفسها مرغمة على الدخول في العد العكسي نحو الاضمحلال ورويدا رويدا بداية النهاية للتوقف و الاندثار،حتى انه يتداول اليوم في شبكات التواصل الاجتماعي وعلى صفحات الشبكة العنكبوتية أطروحة خطيرة مفادها:(نهاية الورق مع حلول العقد الثاني من القرن الحالي) ([4]).

وعلى اعتبار الرقمية تقنية لتسجيل المعلومات وتخزينها ونشرها عبر نظام للتشفير يُحوِّلُ سائر الوثائق(خطية،مصورة،صوتية) إلى ملفات مجردة،وغير مادية، ويقوم بهذا التشفير وسيط الحاسوب الذي يُشكل أداة للقراءة والكتابة، واستقبال سائر أنواع المعلومات (كتابة، صوت، صورة) وبثها، بكلفة منخفضة جداً، خارج إكراهي الزمان والمكان، وتخزين كميات هائلة من البيانات في مساحة صغيرة، فالرقمية أضحت في خضم ذلك تتيح إنجاز أضعاف ما تقوم به المطبعة مما يجعل المقارنة بين الوسيطين غير مُجدية،وهو ما يسّر فتح ورشتين ضخمتين في العالم العربي:

- الأولى رقمنة التراث العربي المخطوط بمعناه التقليدي ممثلاً بآلاف كتب التراث العربي الإسلامي ومخطوطاته،وأمهات المصادر والمراجع....

- والثانية رقمنة التراث بمعناه الحديث متجسداً في عدد كبير من مواقع المكتبات والمدونات والمجلات والصحف الإلكترونية والتجمعات الثقافية والفكرية والأدبية....

ورغبة في الحفاظ على ذاكرتنا العربية وتاريخ الأمة الإسلامية وصيانة التراث العربي عامة والمخطوط خاصة،وتعريفه للأجيال القادمة،وإيصاله إليهم بطرق تواكب عصرهم ومرحلتهم الزمكانية،وتتفق وعقلياتهم وميولاتهم،كان من الضروري الاستعانة بتكنولوجيا المعلومات و توظيفها في الحفاظ على الهوية والتراث من الاندثار، بهدف حماية التراث الإنساني:المادي والمعنوي،وذلك باستخدام الوسائل العلمية والإلكترونية الحديثة، التي تأتي أهميتها نتيجة لتوسّع شبكة الإنترنت وزيادة محتوى المعلومات بها باللغات الأجنبية وتضاؤل محتوى المعلومات باللغة العربية ،حتى صار العالم قرية صغيرة محركها الأساس هو الانترنيت أما لغتنا العربية فهائمة تسبح في هذا الفلك العظيم دون محرك أو موجه،لهذا تم التنبه بضرورة توثيق كل ما يمكن توثيقه والإسراع في حفظه وترقيمه وإتاحته في أقراص مدمجة، وبات التوثيق الإلكتروني للتراث حاجة ملحّة تستوجب التوحد والتوحيد:توحد الجهود وتضافرها وتوحيد الأهداف والغايات،وذلك من خلال:

-ضرورة تبني إستراتيجية عربية لدعم المحتوى الرقمي، على أن تتضمن هذه الإستراتيجية آلية لل-تنفيذ وخطط للانجاز،وذلك في إطار سياسي يتبناه ويدفع بتطبيقه صانعي ومتخذي القرار، ووضع مسألة تطوير المحتوى العربي ضمن السياسات الوطنية لوزارات المعلومات والاتصال.

---

[1])انظر:احمد أميمة،النظام الآلي للمخطوطات المطور لمركز المعلومات بمجلس الوزراء المصري،دراسة تحليلية تقييمية،إشراف شعبان عبد العزيز خليفة، جامعة القاهرة،2001،القاهرة،ص158.

[2])انظر:هالة كيلة،الرقمنة كوسيلة تكنولوجية حديثة لحفظ المخطوطات العربية في مدينة القدس،ضمن كتاب الوقائع:المكتبات العربية في مطلع الألفية الثالثة،المجلد1،الشارقة،2003.

[3])هو جوهانس جوتنبرج (1395 - 1468)، أدخل سنة 1455م على الطباعة تحسينات كثيرة قفزت بها إلى الأمام خطوات واسعة.و راجع: - Wallau, Heinrich. "Johann Gutenberg." The Catholic Encyclopedia. Vol. 7. New York

[4]) وراجع:-علي القاسمي،الجامعة والتنمية،سلسلة المعرفة،العدد27،دجنبر 2002.

-رفع درجة الاهتمام برقمنة الإرث الثقافي والحضاري للمجتمعات العربية والاهتمام بنشر التراث المخطوط الكترونيًا لتعزيز اتصال الحضارة العربية بالحضارات الإنسانية الأخرى،ومد جذور استمرارها عبر الزمن.

-الإسراع في تأسيس مواقع عربية للمكتبات والمتاحف والزوايا ومختلف المؤسسات سواء كانت عامة او خاصة ذات رصيد من المخطوطات والكتب القديمة وأمهات المصادر والمراجع،والتنسيق بينها وبين المراكز المشتغلة والمتخصصة في التوثيق والأرشفة،ولم لا تخصيص دعم سنوي لها لضمان استمراريتها.

-دعوة الدول العربية إلى إحداث مراكز متخصصة في مجال التوثيق الإلكتروني تتعاون فيما بينها وفق منهجية واحدة لتوثيق التراث العربي.

-صناعة محتوى معلومات عربي قوي قادر على المنافسة العالمية، انطلاقاً من الميزة المتمثّلة في وحدة اللغة في العالم العربي، ودعم هذا المحتوى عبر تقديمه في صورة ملفات إلكترونية تشمل المحتوى الثقافي والمعرفي والعلمي والفني.

-التأسيس لتراث رقمي الكتروني موثق يجعل تكنولوجيا المعلومات أداة إيجابية فاعلة لخدمة تراثنا العربي.

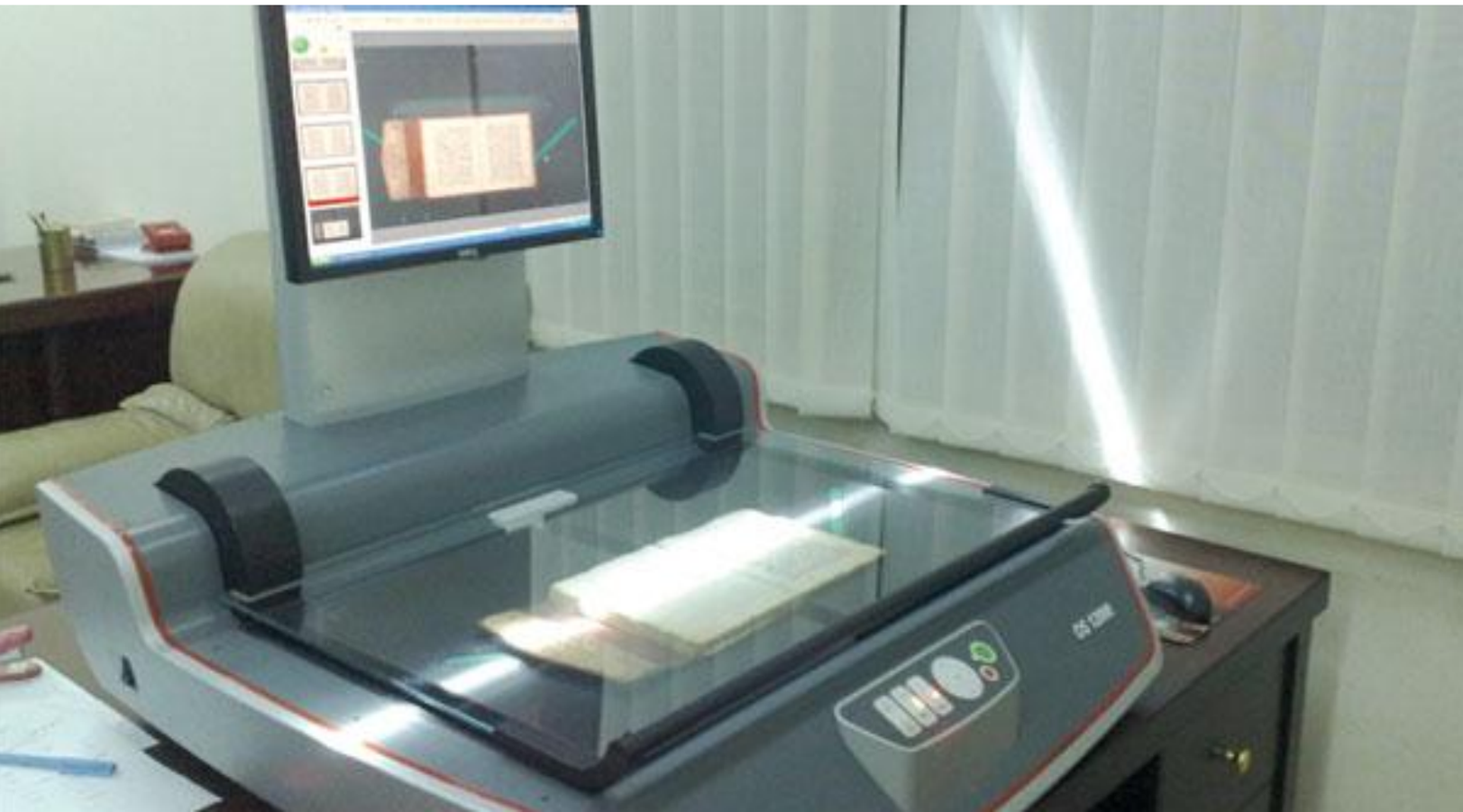

كان عكرمة بن عبد الله ثائرا ضد الحكم الأموي بسبب المعاملة السيئة التي لقيها الأمازيغ، السكان الأصليون لشمال أفريقيا، من طرف ولاة بني أمية.

تقديم

نقر بداية، أن هناك حقيقة تاريخية كانت محط إجماع جل من تناولوا تاريخ منطقة الشمال الإفريقي بالدرسوالتحليل، مفادها أن سكان هذه المنطقة، الأمازيغ، قاوموا العرب مقاومة عنيفة، منذ بداية الغزو العربي، وهي المقاومة التي استمرت زمنا ليس بقليل، حيث تعددت أسبابها، منها الذاتي، الذي يرجع لطبيعة سكان المنطقة أنفسهم، وهم الميالون للاستقلال والحرية والتعلق بالأرض، لا يبرحونها .. **"وعلى الرغم من سوء معلوماتنا بسبب الروايات المتفاوتة في درجات عدم الاحتمال والتي رواها المؤرخون العرب عن هذا العصر، فإنه لا محل للشك في أن البربر قاوموا الفتح الإسلامي "**[1]، حتى أن تسمية أمازيغ تعني، من جملة ما تعنيه، الرجال الأحرار. فتراهم يستجمعون قوتهم كل مرة ليسترجعوا سلطانهم وملكهم، لدرجة قتل عقبة بن نافع الفهري بالقيروان.

معلوم أيضا أن الأمازيغ عانوا الكثير بسبب المعاملة العنصرية التي لقوها من طرف العديد من القواد العرب المتوالين على حكم المنطقة، وكذا عدم إنصافهم من طرف دار الخلافة، رغم اعتناقهم الإسلام، حيث رفض الخليفة استقبالهم وسماع شكواهم، كانت سببا مباشرا لثورتهم، ثم الاعتداء على عرضهم ونسائهم من طرف العرب الوافدين على شمال الإفريقي بدعوى نشر الدين الجديد.

إن الأمازيغ أهل حضارة ضاربة في التاريخ، عكس العرب الذين خلصهم الإسلام من براثين الجهل وحمية الجاهلية،

[1] ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم . ترجمة عبد الرحمان بدوي. الطبعة الثانية 1981. ص 83.

وبالتالي فالحضارة ليست غريبة عن سكان الغرب الإسلامي، باعتبار أنهم احتكوا بحضارات أخرى، الرومانية والقرطاجية وغيرهما من حضارات الشعوب التي احتلت بلادهم، مع الحفاظ على خصوصياتهم، إن على مستوى العمارة أو المعتقدات (مقدمة ابن خلدون).

لقد تم إخضاع الشمال الإفريقي بعد عدة حملات، ولم يستتب الإسلام بين أهله إلا بعد أن فتح طارق بن زياد الأندلس سنة 93 هـ / 711 م .(أورده ابن خلدون في كتاب العبر)، فلو أن نشر الإسلام جاء بعيدا عن الاعتداء والعنصرية، والمساس بالحريات، وانتهاك الأعراض، لكان الأمر أهون، ولسرت العقيدة في نفوس الأمازيغ سلسة راضية.

لقد وجد المذهب الخارجي الطريق معبدا إلى نفوس سكان شمال أفريقيا، في النصف الثاني من ق 8م، تلك النفوس الثائرة. وقد ساهم تفشي المذهب الخارجي في نشر الإسلام على نحو واسع، وبعده المذهب الشيعي ... فالمذهب الخارجي تغلغل بين عدد كبير من القبائل الأمازيغية، وقد كان له دور في الصراع حول السلطة مع الأمويين، فالشيعة الإسماعيلية كانت وراء تأسيس الدولة الفاطمية (على يد عبيد الله المهدي الذي لقب نفسه بأمير المؤمنين) على أنقاض الأغالبة (800 م / 910 م، على يد ابن سليم الأغالبي، عاصمتها القيروان الموالية للعباسيين بالمشرق / حكمت تونس الحالية وصقلية)، ومن بعدهم الأدارسة.

المؤكد أيضا، حسب جل المؤرخين، أن الأمازيغ احتفظوا بالعديد من معتقداتهم الدينية على مستوى ممارسة الشعائر، وتجدر الإشارة هنا أنه لا يعرف الكثير عن معتقدات القبائل الأمازيغية بالأرياف، خاصة في المنطقة الشمالية، كما يؤكد ذلك المفكر المغربي عبد الله العروي في "مجمل تاريخ المغرب".

أما على عهد الأدارسة، فقد عمد إدريس بن عبد الله إلى نشر الدعوة الإسلامية على المذهب السني، وساعدته القبائل الأمازيغية على ذلك، (إحالة على "الشريفية" أو الأشراف في بلاد المغرب بداية من ق15م والنتائج السياسية والاجتماعية والدينية لذلك، منذ ق16م حتى اليوم). وقد حدا حدوه من خلفه من أبنائه. فابنه إدريس الثاني، رغم كون أمه أمازيغية فقد تأثر بتربية خادم والده الرشيد بحيث أبعد الأمازيغ واتخذ لنفسه بطانة من العرب لتدبير الملك والسلطان تضم العلماء والفقهاء (دائما حسب ألفرد بل في كتاب الفرق الإسلامية).

والجدير بالذكر هنا هو تأثر الشمال الإفريقي والغرب عامة، بما يحصل من نزاعات أو تقاطبات بدار الخلافة بالمشرق، كما حدث عند نقل عاصمة الخلافة من الشام عند الأمويين إلى بغداد لدا العباسيين.

كانالإسلام السني ضعيفا بالمغرب، حسب "ألفرد بل" الذي يتحدث عن تأثر الأمازيغ "وضعف شكيمتهم الدينية، فهم سرعان ما يخوضون في البدع كما حدث أيام روما المسيحية مع الأسقف دونات ... فكان من السهل خوضهم في بدعة الخارجية خلال ق2هـ / النصف الأول من ق8م (دائما حسب ألفرد بل في كتاب الفرق الإسلامية). وهذا قول مردود عليه، لأنه لا مجال للمقارنة بين المسيحية ومذهب الخوارج، لأن الخوارج لم يزيغوا عن ملة الإسلام وعقيدة التوحيد، فهم يشكلون مذهبا قائما على غرار المذاهب والفرق الإسلامية الأخرى التي كان في اختلافها انتصارا للعقيدة الإسلامية، وبالتالي، ف"ألفريد بل" لم يتوخ الموضوعية التي تقتضيها منهجية البحث ...

1. الأمازيغ: التسمية والمعتقد

لعل تسمية "البربر"، من حيث معناها الاصطلاحي، صفة لساكنة الشمال الإفريقي أطلقها عليهم الرومان لصعوبة التواصل اللغوي معهم، وتحميلهم صفة الوحشية والهمجية للتقليل من شأنهم، وهو حدوهم مع جميع شعوب البلاد التي يحتلونها، بدافع الخيلاء والتعالي، إذ يعتبرون أنفسهم أهل حضارة دون سواهم، وتختلف هذه التفسيرات التي قامت حول تلك التسمية (مقدمة ابن خلدون وغيره). لكن عين الرومان، كما حدث مع العرب،

ظلت ناظرة للشمال الإفريقي، بكل ما يزخر به من جمال الطبيعة والموقع الجغرافي والمزارع والغلال، فأضحى طبيعيا أن تصبح هذه الأرض محط أطماع الأجانب والدخلاء. لكن ساكنتها ظلوا عبر التاريخ متشبثين باستقلالهم، قد يتعايشون مع الآخر ويتأثرون بثقافته، لكن دون أن يحدث ذلك الانصهار الكلي، فكان همهم هو الحرص على سلطانهم .

لهذا لما حل العرب ببلاد الأمازيغ وجدوا مقاومة عنيفة كلفتهم الشيء الكثير لغرس جذور الدعوة هناك، لأن سكان الأرض ظلوا متشبثين بمعتقداتهم الدينية، يمارسون شعائرهم في استقلالية، وقد استعاروا بعضا من العبادات عن القرطاجيين (الحمام المقدس والمأخوذ أيضا عن الفينيقيين – حسب هنري باسيه / راجع ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي) ثم فاكهة الرمان التي كانت رمزا للخصوبة من القرطاجيين، وكذا بعض العبادات من البونية (السمكة وعلاقتها بالخصوبة، باعتبار السمكة كثيرة البيض، وهذا يتجلى عند الأمازيغ في طقوس الزواج)، وما تلا ذلك من عبادة السلحفاة وثعابين السمك والأحجار وغيرها، ثم على مستوى الطقوس حيث كانت هناك -- حسب الفرد بل دائما في كتاب "الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي" -- النيران الشعائرية للقضاء على التأثيرات الشريرة والأرواح المؤذية، وبالتالي تقوية قوى الخير بفضل لهيبها ودخانها ... وهي طقوس راسخة متجذرة لدا المغاربة، قاومت المسيحية والإسلام، ولعل العديد من طقوس حفل الزفاف لا تزال قائمة إلى يومنا هذا بكل ما تحمله من رمزية الإخصاب، لهذا نقف على علاقتهم بالأرض وما يرتبط بها من زراعة وحبوب ومطر و....

لم يؤثر احتكاك وتواصل سكان المغرب بالرومان والقرطاجيين على معتقداتهم الدينية و"**الشعائر الزراعية التي صمدت خلال العصور حتى وصلت إلينا**"[1]، فالاحتكاك الأمازيغي بالقرطاجيين كان من شأنه الارتقاء بتناولهم وفهمهم للإله من حيث شخصيته المتميزة والألوهية المحددة في طبيعتها وصفاتها، عكس اعتقادهم في الكبش أمون حامي القطعان ذي القوة السحرية الغامضة.

لقد ظل الاعتقاد، لدا الأمازيغ، بوجود قوتين متجاذبتين: قوى الخير وقوى الشر، يسعون لرضاها أو تجنبها (ألفرد بل). تصورات الأمازيغ الدينية لم تتغير كلية رغم عقيدة التوحيد التي جاء بها الإسلام و"**الحاصل أننا لا نعرف الكثير عن سكان الأرياف في إفريقيا. يقول البعض أنهم كانوا نصارى ـ خاصة المنطقة الشمالية، وإنهم حافظوا على نصرانيتهم مدة طويلة، اعتمادا على بعض النقائش. لكن النصوص التي تروي بداية الدولة الفاطمية (أوائل ق 4 هـ) لا تؤيد هذا الادعاء. ويؤكد آخرون أن سكان المنطقة الشرقية والجنوبية اعتنقوا الإباضية ولم يكونوا يتصلون بالقيروان إلا في ظروف استثنائية. ويبدوا هذا القول أكثر احتمالا ..**"[2].

2.سكان المغرب : اعتناق مذهب الخوارج

كل الحركات التي عرفتها منطقة الغرب الإسلامي، سواء منها التي استتبت بالأندلس أو تلك التي ظهرت في الشمال الإفريقي، كانت تخفي بين طياتها بعدا سياسيا، بمعنى أنه كان هناك وعيا مزدوجا لدا شعوب المنطقة، تتطلع من خلاله للاستقلال في العقيدة والسياسة. إن لديها قناعة ثابتة في المغايرة والتميز والاختلاف، وهذا ما يمكن ملاحظته عند الفاطميين والأغالبة على حد سواء، وحتى الإمارة الأموية بالأندلس[3]، أو بقول آخر، ظلت التقاطبات الدينية والسياسية قائمة بين العباسيين والأمويين من دار الخلافة بالمشرق إلى الامتدادات بالغرب، فانتعشت المذاهب الدينية. فالأمازيغ، السكان الأصليون لشمال أفريقيا، لهم

---

[1]ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم . ترجمة عبد الرحمان بدوي. الطبعة الثانية 1981. ص 68.

[2]عبد الله العروي .مجمل تاريخ المغرب.ج2.ط1/1994.ص 35 .المركز الثقافي العربي.

[3]نفسه

طباعهم وحمولات عقدية تتوزع بين الوثنية واليهودية ولم يؤثر النصرانية (مقدمة ابن خلدون).

لقد ظل الأمازيغ، عبر التاريخ، متشبثين بحريتهم على مستوى المعتقد والاستقلال والحرية، وعند نزول العرب على أرضهم، أي الشمال الإفريقي، وبناء القيروان والمساجد والاختلاط بأصحاب الأرض، تجلت المعاملة السيئة والميز والتسلط والغلظة تجاه العنصر الأمازيغي، لهذا **"كان أهل إفريقية من البربر يظهرون الاستياء وعدم الرضا، ذلك لأنهم كانوا يعاملون معاملة الرعايا الملزمين بأداء الجزية على الرغم من كونهم مسلمين صالحين ومقاتلين متحمسين في الحرب المقدسة [الجهاد]. وهكذا وجد رسل الخوارج المقبلين من العراق إلى إفريقية، النفوس مستعدة لتلقي تعاليمهم، فحرضوا البربر على الخليفة الأموي وحركوهم لرفع راية العصيان"**[1]. كأن التمرد فطريا فيهم. ميالون إلى القسوة وركوب الصعاب. إن في مقتل الملكة داهية (ديهية) في إحدى المعارك ضد العرب سنة 702م، إشارة لرفض الاندماج بالمسلمين العرب، وقبل ذلك بسنوات، توحدت قبائل الأمازيغية بالأوراس وقتل عقبة على يد الملك كسيلة عام 673 م. ثم انهزم بعدها العرب وتم إخضاعهم إلى حين. حيث أنه في سنة 740 هـ قامت ثورة الخوارج ضد تجبر الأمويين. هذا يحيلنا على تسابق المغاربة، في البداية، نحو اعتناق **"المفاهيم الأكثر قساوة في الإسلام، كالخوارج والشيعة"**[2].

ظهرت فرقة الخوارج بالغرب الإسلامي قبل منتصف القرن الهجري الأول، وبذلك تكون أول فرقة كلامية تظهر بهذه البلاد، خاصة بالمغرب الأقصى. ويعتبر عكرمة بن عبد الله أول[3] من دعا لاعتناق مبادئ هذه الفرقة، بالعدوة الإفريقية لما تشتمل عليه مبادؤهم من دعوة للمساواة بين جميع المسلمين، ومن ذلك أن الخلافة من حق أي مسلم وليس حكرا على قريش وآل البيت. لقد كان عكرمة ثائرا ضد الحكم الأموي بسبب المعاملة السيئة التي لقيها الأمازيغ السكان الأصليون لشمال أفريقيا من طرف ولاة بني أمية. هذا ويعتبر سلمة بن سعد الإباضي من أبرز الداخلين إلى المغرب. وقد أثمرت صراعات وثورات الخوارج عن تأسيس دولتين بالمغرب هما: بني مدرار الصفرية بسجلماسة ودولة بني رستم الإباضية بتاهرت[4].

ظهر الخوارج في بلاد المغرب لأول مرة إبان حكم هشام بن عبد الملك، الذي قام بتعيين العديد من الولاة الظالمين للأمازيغ، منهم عبد الله بن الحبحاب السلمي المتعصب للقيسية بحيث عمل على اضطهاد الأمازيغ ... هكذا ظهرت الإباضية في شمال المغرب ووسطه والصفرية في الجنوب ...

يمكن تسجيل ملاحظة هامة، هي أن إخضاع سكان منطقة الشمال الإفريقي ظل في بداية الغزو ذا بعد سياسي، حيث أن **"اعتناق الإسلام، أيام الفتح الأول، كان في العمق اعترافا بالولاء السياسي للخلافة، وكان مضمونه الديني ضعيفا، ومع الابتعاد عن الأمصار، حيث الفقهاء والعلماء والتوغل في الصحاري والاختلاط مع الزنوج الوثنيين تلاشى حتى ذلك المضمون الديني"**[5].

هذا الوضع جعل سكان المغرب (صنهاجة) يتخلون عن معتقدات الدين الإسلامي، حتى إذا رجعوا إلى جنوب المغرب في ق 4 هـ سيجدون أن الإسلام قد انتشر أكثر وأكثر

---

[1] كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية . ترجمة نبيه أمين فارس و منير البعلبكي . دار العلم للملايين .

بيروت . الطبعة السادسة /1974 . ص 158 – 159

[2] عبد القادر جغلول : مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم و الوسيط . ترجمة فضيلة الحكيم . الطبعة الأولى

1972 . دار الحداثة لطباعة والنشر والتوزيع بيروت . ص 42 .

[3] خير الدين الزركلي : الأعلام 5 . عكرمة بن عبد الله البربري ت 105هـ/732م. ص 43 – 44

[4] حسن جلاب: الحركة الصوفية بالمغرب / الإحالة على كتاب [الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، لمحمود إسماعيل عبد الرزاق ط . دار الثقافة 1976 ص 109 – 208] و كتاب [الدولة الموحدية : أثر العقيدة في الأدب] ص 9 . ط الأولى 1983 لـ حسن جلاب)

[5] عبد الله العروي .مجمل تاريخ المغرب.ج2.ط1/1994.ص 47 .المركز الثقافي العربي.

بين صفوف أهل المغرب وأضحى شريعة واضحة المعالم وقد امتد المذهب السني. (تجدر الإشارة هنا إلى قيام يحيى بن إبراهيم أمير صنهاجة الغربيين بأداء فريضة الحج).

إن ثورة الخوارج في النصف الثاني من ق8 م **"مع أنها تعبر عن رغبة في استقلال المغرب، إلا أنها سمحت للدين الإسلامي بالانتشار فوق كافة أراضي المغرب"**[1]. إن مصدر فكر الخوارج هو الدين وليس العصبية، كما أورد ابن خلدون في المقدمة. **"إلا أن الطابع الديني وسمة التطرف في فكر الخوارج السياسي، خفت حدتهما في أواخر القرن الأول الهجري، فاتخذت مبادئهم طابعا عمليا وجنحت نحو الاعتدال"**[2]، خاصة مع الإباضية والصفرية، فقاموا بتجويز التقية[3].

3. أثر الخوارج على سكان المغرب

لقد تميزت الإباضية عن الصفرية بالتزامها بمبادئ نهج المذهب الخارجي، إن على مستوى خوض الحروب، إذ لم تكن تعلنها إلا بعد إقامة الحجة على العدو، ولم تكن لتسبي النساء وتقتل الأطفال وتغنم ما دون السلاح، عكس الصفرية الذين اتسموا بالقسوة والعنف[4]. وقد كان لسلوك عبد الرحمان بن رستم (بويع سنة 144 هـ) الأثر البالغ في نفوس الناس، لما اتسم به من عدل ومساواة والكيفية التي تصرف بها في الأموال التي بعث بها إليه خوارج المشرق، فقد اجتمع **"برؤساء القبائل وشيوخ المذاهب في المسجد الجامع، وإنفاقه هذه الأموال وفقا لنصيحة أهل الرأي منهم < ثلث في الكراع وثلث في السلاح وثلث في فقراء المسلمين >"**[5].

وتجدر الإشارة هنا، رغم ما تقدم، إلى كون خوارج المغرب لم يلتزموا بالفكر السياسي لهذا المذهب وشرائعه، كما كان مع مؤسسي دولتيهما في سجلماسة وتاهرت،بسبب العصبية والنزاع حول السلطة، ويتجلى ذلك في تحويل الحكم من الإمامة إلى الوراثة واحتكاره من طرف قبيلة مكناسة في أسرة بني مدرار[6]، فكان أن تدهورت أحوال الناس وطفحت الخلافات والاختلالات في الحكم، وهو الأمر الذي ستكون له حتما انعكاسات سلبية على المجالات الأخرى، اقتصادية واجتماعية لساكنة المغرب، فعلى المستوى الاقتصادي، ساهمت نزاعات وصراعات الخوارج في كساد الزراعة والتجارة والصناعة، انضافت بذلك إلى الحروب الطويلة التي خاضها سكان المنطقة ضد العرب، وكذا سياسة عدد من عمال وولاة بني أمية الذين كان همهم هو جمع الأموال والنساء وإرسالها للخلفاء في دمشق[7]، ثم ثورات الخوارج التي استمرت زهاء نصف قرن. كل هذا لم يمنع الخوارج ـ بنو مدرار ـ من استغلال مياه نهر ملوية للزراعة وغرس الأشجار[8]. إضافة إلى ازدهار التجارة عبر الصحراء وازدهار بعض الحرف والصناعات كالحدادة والبناء والثياب والصوف[9].

إن أثر الخوارج على المجتمع المغربي، ظل بارزا رغم كل الاختلافات التي اعترت العلاقات القائمة بين العناصر الأمازيغية، أي بين السكان الأصليين للمنطقة، من بتر وبرانس بين الوبر والمدر، فقد استطاع هذا المذهب، إلى حد بعيد، توحيدهم ضد خصومهم العرب وحاربوا تحت راية

---

[1] عبد القادر جغلول : مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم و الوسيط . ترجمة فضيلة الحكيم . الطبعة الأولى. 1972 دار الحداثة لطباعة والنشر والتوزيع بيروت، ص. 40

[2] محمود إسماعيل عبد الرزاق : الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري. الطبعة الثانية 1985.دار الثقافة. ص 258 – 259.

[3] نفسه ص 259

[4] نفسه ص 261. (إحالة على الرقيق : ص 117 و 147. ثم السوفي : شرح السؤال ورقة 57،الشهرستاني، ص 121. و أبو زكريا : ورقة 8، الشماخي : السير، ص 129. و ابن الأثير: ج 5. ص 222، ابن خلدون : ج 4، ص 193.

[5] نفسه ص 263. (إحالة على النفوسي، ص 91).

[6] نفسه ص 263. (إحالة على ابن عذارى ج 1 ص 215 و البكري ص 149-150-151).

[7] نفسه ص 271. (إحالة على ابن عذاري ج 1 ص 83).

[8] نفسه ص 274. (إحالة على البكري ص 184).

[9] نفسه ص 275-276. (إحالة على البكري ص 148 و ابن عذاري ج 1 ص 280).

واحدة وأسسوا دولتين (الرستمية وبني مدرار)[1]،**"فدولة بني مدرار ضمت صفرية المغرب من البتر والبرانس على السواء، وتكاتفت مكناسة وزناتة من البتر مع صنهاجة وزويلة ومسوفة ولمتونة من البرانس على تأسيسها. والجولة الرستمية عاشت في كنفها قبائل هوارة ولواته ومكناسة ومزاتة ولماية وغيرها"**[2]، بل وفسح انتشار مذهب الخوارج المجال أمام أقليات من الأفارقة والأندلسيين واليهود للاستقرار بالمغرب، وكذا من السودان الذي انتشر فيه الإسلام.

و قد أثرى الخوارج الحياة الثقافية المغربية، بحيث استمرت العلاقة مع المشرق، فتم إرسال العديد من طلاب العلم هناك ليتفقهوا في الدين والعودة إلى المغرب ليقوموا بنشر تعاليم المذهب الخارجي، من أمثال الشيخ مهدي النفوسي وابن يانس أبو حسن الأبدلاني وعبد العزيز بن الأوز ويعقوب بن سيلوس وابن سهل الفارسي الذي له كتاب بلغة الأمازيغ[3]. واستمر نشاط الفقهاء الخوارج في المساجد عبر حلقات الوعظ والإرشاد، إلى أن **"تولى سحنون القضاء فحظر عليهم ذلك، وبدد حلقاتهم وشتت شملهم. ودرج من جاء بعده من القضاة المالكية على اضطهاد الخوارج في أفريقية وإذلالهم"**[4]. علماأن الخوارج فعلوا عكس ذلك معالمالكية، إذ كانوا متسامحين إلى أبعد الحدود مع شيوخهم. بل منهم من تولى مناصب عامة في تاهرت في أواخر حكم بني رستم[5]. ويمكن هنا التأكيد على دور الخوارج في إرساء دعائم الإسلام ونشر الدعوة، بدليل أنه عندما حل إدريس بن عبد الله ببلاد المغرب لتأسيس دولة الأدارسة (ليست الدولة بمفهموها الحديث) وجد الأرض منبسطة أمامه وأن الإسلام كان **"قد مد جذوره منذ سنوات طويلة، في صورة مذهب الخوارج، وتغلغل في عدد من القبائل، وذاع اسم النبي (محمد) بينهم ومجدوه"**[6].

خاتمة:

تعتبر المعتقدات الدينية جزء من ثقافة الفرد والمجتمع وسلوكه وتراثه كيفما كانت تلك المعتقدات، فهي تتطلب من الآخر احترامها كخصوصية. هذا ما تشبث به الأمازيغ طيلة قورن وناضلوا من أجل ذلك سنين طوال من خلال مذهب الخوارج الذي وجدوا فيه ضالتهم. **"هكذا نشأ [البربر] في ثقافة إسلامية تتفق مع مزاجهم ـ هي ثقافة الخوارج ـ وقبلوها عن طيب خاطر وبحرية، ولم تفرض عليهم بالقوة ولا بسلطان الحكومة ـ مثل تلك التي فرضها عليهم أهل السنة"**[7]. لقد وجدوا في مذهب الخوارج ما يشفي غليلهم ويطفئ نارهم ضد ظلم أئمة السنة، وهذا لا يعني أن المغاربة لم يعرفوا غير مذهب الخوارج، فقد عرف المغرب تواجد عدة مذاهب **"سواء منها ما لقي التأييد الشعبي المطلق، أو ما تعامل معه المغاربة بقصد: كالمذهب الخارجي والشيعي والمذهب الحنفي والشافعي (لم يكن له إقبال كبقية المذاهب) والأوزاعي "**[8].

وتجدر الإشارة هنا إلى التطاحن بين المذاهب، لأن كلا منهم كان يرى في المغرب فضاء لغرس جذوره وفلسفته،

---

[1]نفسه ص 287. (إحالة على ابن عبد الحكم ص 294 و ابن الأثير ج 5 ص 70).

[2]نفسه ص 287. (إحالة على اليعقوبي : البلدان ص 359. و ابن خلدون ج 6 ص 129 – 121).

[3]نفسه ص 293. (إحالة على أبو زكريا ورقة 20. و الشماخي : السير ص 155. و النفوسي ص 70- 48 – 68)

[4]نفسه ص 294.(إحالة على المالكي ج 1 ص 409. و الدباغ ج 2 ص 192.

[5]نفسه ص 294. (إحالة على الشامخي : السير، ص 263. و البرادي : الجواهر المنتقاة، ورقة 103. و سيرة الأئمة الرستميين ص 57).

[6]ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم . ترجمة عبد الرحمان بدوي. الطبعة

الثانية 1981. ص 87.

[7]ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم . ترجمة عبد الرحمان بدوي. الطبعة

الثانية 1981. ص 147.

[8]د.حسن جلاب : الحركة الصوفية بمراكش و أثرها في الأدب . ج 1 : ظاهرة سبعة رجال . المطبعة و الوراقة

الوطنية مراكش 1994 . ص 21 - 22).

ولعل استمرار البعض من هذه المذاهب إلى أيامنا هذه فيه أكبر دليل على ذلك المد. ولا غرابة في أن يكون مذهب الخوارج لا يزال قائما إلى أيامنا هذه في منطقة مزاب في الجزائر[1].

الحديث عن الخوارج بالمغرب يحتاج إلى مجال أفسح من هذا، لأنهم يمثلون الحركة الثورية المتمردة بالمغرب، بكل ما حملوه معهم من شحنة عقيدية وسياسية وقيم وتعاليم المساواة في الحقوق والواجبات.

[1]ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم . ترجمة عبد الرحمان بدوي. الطبعة الثانية 1981. ص 150.

تشكل الحركات السلطانية رمزا للسلطة المخزنية، وأداة لفرض السلطة على القبائل المغربية، من خلال التنقل باستمرار لإخضاع السكان سلما أو عنوة[1]. ومن هذا المنطلق قاد السلطان المغربي المولى الحسن حركتين إلى سوس؛ الأولى سنة 1299هـ/1882م والثانية سنة 1303هـ/1886م، لإقرار الأحكام السلطانية بالجنوب المغربي.

لن نخوض في تفاصيل الحركتين لأن العديد من الباحثين تطرقوا للموضوع[2]، وإنما سنتوقف عند دور قواد إحاحان في تمويلهما، وانعكاسات الوضع على منطقة الأطلس الكبير الغربي.

حرص المخزن على مواجهة تداعيات التسرب الأجنبي بالثغور الساحلية الجنوبية للمغرب، من خلال تنظيم الحركة الأولى إلى سوس سنة 1299هـ/1882م، ومن دوافعها تركيز التواجد المخزني بالسوس، ووضع حد للتسرب الأجنبي. وبالرغم من أن الحركة لم تتمكن من التوغل في سوس الأقصى وتوقفت في تراب أكلو إلا أنها حققت جزءا كبيرا من أهدافها التي نجملها فيما يلي:

- توسيع الإشعاع المخزني بالجنوب، وتقسيم السوس إداريا إلى قسمين: السوس الأدنى: وقاعدته تارودانت وتولى عليه الخليفة المولى عثمان، والسوس الأقصى وقاعدته تزنيت وتولى عليه مسعود الراشدي[3]. ونزولا عند رغبة قبائل جزولة وتكنة ولى السلطان عليها القائد بوعزة السريفي البخاري[1].

---

[1]- رحمة بورقية،**الدولة والسلطة والمجتمع: دراسة في الثابت والمتحول في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1991، ص ص. 51-57.

[2]- راجع أطروحة البحاثة شفيق أرفاك حول تمنارت، ودراسة محمد زرهوني حول العلاقات بين السلطان والسكان، ومقال الباحث أحمد علمي حول حركتا السلطان الحسن الأول إلى سوس.

[3]- شفيق أرفاك، **قيادة تمنارت بين التزام المحيط القبلي والسلطة المخزنية 1110-1352هـ/1706-1934م**، ج2، أطروحة لنيل

- استخلاص الواجبات والكلف المخزنية، ووضع حد للتسرب الأجنبي بمساندة القوى المحلية والمخزنية، وتم الشروع في بناء مرسى أكرسيس لتسهيل المبادلات التجارية، وفتح مرسى أكادير بوسق الحبوب به، وجلب المؤونة للمحلة.كما تم إنزال محلتين بكل من تزنيت وأيت باعمران[2].

لا نتوفر على معلومات مفصلة عن مشاركة قبيلة إحاحان في الحركة الأولى إلى سوس، لكن هناك ما يدل أنها لعبت دورا مهما في تزويد الحركة بالمؤن والرجال على يد القائد المحجوب الكلولي. ويتضح ذلك من خلال رسالة السلطان إلى القائد المحجوب الكلولي بتاريخ 18 ربيع الثاني 1299هـ/1882م، وجاء فيها **"فنأمرك أن تفرض على من إلى نظرك من خدامنا حاحا ما ينوبهم وسط القبيلة في ألفي رام بقصد الحركة ومصاحبة ركابنا السعيد"**[3]. واشترط السلطان أن يكون الرجال **"صحاحا، أبطالا، أنجادا، ولتكن عدتهم معتبرة سالمة جعبةً وزنادا، وليكونوا من وجوه القبيلة وأعيانها، وأهل الثروة والجد، والجد في المقاصد، وإتيانها حتى تكون سَرِيَتك نِعم السريَة، وتصير في سِربِك من أهل الغناء في المشاهد والفوز بتحصيل المزية، ولتكن على أهبة استعداد بحيث تكون أذنك، بعد بدل المجهود في تيسيرها، مُصْغية لإصدار أمرنا الشريف إليك، بالنهوض ممتثلا على الفور مع نشاط ..."**[4]. ولم يكتفي السلطان بهذه الشروط بل حذر القائد الكلولي من التقاعس في تجهيز قواته، بل اشترط عليه أن يجهز محلة تكون في مستوى المحال التي يجهزها القائد عبد الله أوبيهي الحاحي، فقال **"واحذر أن تأتي بها على خلاف معهود القديم حياة الطالب عبد الله أوبيهي رحمه الله أو تتساهل في أمرها كتساهلكم فيها بعد، فإنا لا نقبل منكم ذلك، وانظر فيما ينضبط به أمرها. بحول الله ستحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور، واعلم أنها تسرد أمامنا بحول الله وقوته رجالا وعدة وعند الامتحان يعز المرء أو يهان والله سبحانه المستعان"**[5]، وأعطى السلطان القائد الكلولي الإذن "**في فرض نصف زاد الحراك وزاد العامل بتمامه على نحو ما بُين لكم في حركة الغرب**"[6]. ويتضح مما سبق، أن الحاحيين أسهموا كعادتهم في تموين الحركة إلى سوس، فتكلف القواد والأمناء بجمع المؤن وتوفير الحراك[7]، وكانوا ملزمين بتقديم جميع "لوازم الحركة" منذ أن حلت الحركة بمراكش، ولما اقتربت من تراب إحاحان، تزايد الاهتمام بدفع المؤونة[8]. وقد تضررت القبائل الحاحية كثيرا من هذا العبء في وقت بلغت فيه الكارثة الطبيعية ذروتها بإحاحان.

وجهز السلطان المولى الحسن الحركة الثانية إلى سوس سنة 1303هـ/1886م لتحقيق مقاصد لخصها فيما يلي: **"إخماد الفتن والحفاظ على أمن الطرق وسلامتها والتعاضد بين ممثلي المخزن"**[9]، ووضع حد للتسرب الأجنبي بالسواحل الجنوبية للبلاد[10]. ولإنجاح هذه الأهداف عمل المخزن على تنويع مصادر تموين الحركة بالاعتماد على وسوس والصويرة وإحاحان، وكان نصيب الأخيرة الأكثر بحكم العوائد[11].

لقد تحمل ممثلوا السلطة المركزية في إحاحان أعباء توفير المؤن والحراك وفرض التسخيرات المخزنية على القبائل، ويستفاد من المظان ما يبين أن قواد إحاحان تلقوا أوامر للاستعداد للحركة الثانية إلى سوس منذ سنة

دكتوراه الدولة في التاريخ، تحت إشراف الأستاذ محمد حمام، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن زهر بأكادير، 2007، ص. 377.

[1]- نفسه، ص.378.

[2]- نفسه، ص. 379 و390.

[3]- رسالة السلطان المولى الحسن إلى القائد المحجوب الكلولي، مؤرخة بـ 18 ربيع الثاني 1299هـ/ 1882م، مح. الصويرة، رقم 4، م. و. م.(مديرية الوثائق الملكية الرباط)

[4]- ن. ر.

[5]- ن. ر.

[6]- ن. ر.

[7]- الحراك هم الرجال المتطوعون الذين تجندهم القبائل للمشاركة في الحركات السلطانية.

[8]- نفس الرسالة السابقة.

[9]- رسالة السلطان المولى الحسن إلى الايليغي، مؤرخة بـ 17 ربيع الأول 1303هـ/1886م. راجع: شفيق أرفاك، م.س، ص. 392.

[10]- Nordman (Daniel.) : **Les Harkas Hassaniennes D'après L'œuvre D'A. Ibn Zidane**, Hespéris Tamuda, V. 19, Fascicule Unique, Edition techniques Nord Afrique, Rabat, 1980-1981, p. 183.

[11]- شفيق أرفاك، م.س، ص. 393.

1302هـ/1885م، حيث فرض المخزن على القواد توفير "الخزاين" التي يحتاجها، فكتب السلطان إلى أمناء إيالة الزلطني بقوله: "**فإن العامل طلب تجديد الخزاين لتلاشي التي عنده من طول الحال، وأمرنا أمناء مرسى الصويرة بتنفيذها له وتوجيهها في الحال، وأن يحسبوا ثمنها على القبيلة**"[1]، وكلف السلطان القائد عدي النكنافي بإصلاح الطريق التي ستمر منها الحركة[2]. ومع حلول سنة 1303هـ/1886م تلقى قواد إحاحان التعليمات بجمع المؤن وتجهيز الرجال والخيل والسلاح.

ونستشف من المراسلات المخزنية أن السلطان فرض على إحاحان تزيد الحركة بـ 1500 رام، ويكونون "**من وجوه رجال القبيلة ورماتها، ومن ذوي النجدة والشدة، وبيدهم أجود عدة، بقصد مصاحبة ركاب مولانا السعيد لنواحي سوس**"[3]. ويتضح من القرائن أن بعض القبائل الحاحية كإِدَاوْتُغْمَا وإِدَاوْكَازُّوا وإِدَاوكَلُولْ وأَيْتْ تَامْرْ لم تستطيع توفير ما ألزمها به المخزن من الكلف، كما جاء في رسالة أمناء إيالة الزلطني إلى السلطان: "**أن قبيلة غْمَاوَة وقبيلة كَزُوتَة يتعذر عندهم خروج هذا العدد إذا أضيف ما أمره به مولانا أولا لسوس والعسكر، وأما بنو جْلُولَة وبنو تَامْرْ فإن كان على تمام صيامهم كبيرهم وصغيرهم يكون ذلك العدد مع المكاحل عندهم**"[4].

وطرحت الاستعدادات للحركة مشكلة أجور الحراك فرسانا ومشاة، فقرر السلطان تحديد الأجرة التي ستدفعها القبيلة للحراك، وقدرت بـ 30 ريالا للمشاة، و60 ريالا للفارس[5]. ولكن وقع الاختلاف حول هذه الأجرة بين القواد والأمناء، فبعث السلطان رسالة إلى القائد عدي النكنافي بتاريخ 20 جمادى الثانية 1303هـ/1886م تتضمن تعديلا لأجرة الحراك، "**للفارس عشرون ريالا والراجل عشرة ريالا، ولك خمسمائة ريال**"[6]، وهناك ما يومئ أن نصيب قواد إحاحان من التسخيرات وصل إلى 2000 ريال خلال هذه الحركة[7].

وفي إطار الاستعداد للحركة كلّفت السلطة المركزية الأمناء والقواد بتوفير الشعير للمحلة السلطانية، وهكذا وجه الأمين عبد الله بوخليق في 13 جمادى الأولى 1303هـ/1886م ما يقدر بـ 38 خروبة ونصف الخروبة من الشعير إلى أمناء مرسى الصويرة[8]. كما استطاع أحد الأمناء بإحاحان جمع ما تيسر من الشعير والقمح بالمنطقة "**وذكر أنه في غاية الوقوف والتردد للأسواق في شأن ذلك، وأن يصدر للرجوع لإتمام الباقي من القدر المعين لكل مرحلة**"[9]، وبلغ مجموع

---

[1]- رسالة السلطان المولى الحسن إلى أمناء إيالة الزلطني، مؤرخة بـ 11 رمضان 1302هـ/1885م. خ.ح.ر، ك. 364. راجع: فاطمة العيساوي، **كلف البوادي في القرن التاسع عشر**، ضمن أعمال ندوة البادية المغربية عبر التاريخ، تنسيق إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم 77، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1999، ص. 141.

[2]- رسالة السلطان المولى الحسن إلى القائد علي بن عدي، مؤرخة بـ 28 صفر 1303هـ/1885م. خ.ح.ر، مح. 185. راجع: فاطمة العيساوي، م.س، ص. 139.

[3]- رسالة أمناء إيالة القائد المحجوب الكلولي إلى السلطان المولى الحسن، مؤرخة بـ 1 جمادى الأولى 1303هـ/1886م، خ. ح. ر. مح. ح، رقم 97. رسالة القائد عدي النكنافي إلى السلطان المولى الحسن، مؤرخة بـ 7 جمادى الأولى 1303هـ/1886م، خ. ح. ر. مح. ح، رقم 105.

[4]- رسالة أمناء إيالة القائد المحجوب الكلولي إلى السلطان المولى الحسن، مؤرخة بـ 1 جمادى الأولى 1303هـ/1886م، خ. ح. ر. مح. ح، رقم 97.

[5]- رسالة السلطان المولى الحسن إلى القائد المحجوب الكلولي، مؤرخة بـ 7 رجب 1302هـ/1885م، خ. ح. ر.

[6]- رسالة السلطان المولى الحسن إلى القائد عدي النكنافي، مؤرخة بـ 20 جمادى الثانية 1303هـ/1886م، خ. ح. ر.

[7]- مصطفى الشابي، **الجيش المغربي في القرن التاسع عشر (1830-1912)**، ج2،أطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، تحت إشراف الأستاذ محمد حجي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس بالرباط، 2000-2001، ص. 655.

[8]- رسالة السلطان المولى الحسن إلى الأمين عبد الله بوخليق، مؤرخة بـ 13 جمادى الأولى 1303هـ/1886م، خ. بوخليق.

[9]- رسالة محمد بريشة ومحمد زاكور وعبد الرحمان بن الحسن إلى السلطان المولى الحسن، مؤرخة بـ 25 جمادى الأولى 1303هـ/1886م، مح. الصويرة، رقم 5، م. و. م.

ما تحصل عليه الأمين "**180 خروبة من القمح و662 خروبة من الشعير**"[1].

وما لبث المخزن أن اصطدم بعزوف الفلاحين عن بيع الشعير للمخزن، ولتشجيعهم على ذلك، اقترح القائد عدي النكنافي على السلطان أن يتكلف كل قائد بشراء نصيب ما وجب إيالته، فقال: "**والآن إن أردت الشعير الذي يكفيك وتفرقه على العمال، وادفع لهم ثمنه، وكل واحد يقبض ثمن ما وجب إيالته، ويدفع لهم ذلك الثمن، ويقبض منهم الشعير، ويدفعه لدار المخزن**"[2].

وقد استمرت الاستعدادات لتأمين المؤن بعد وصول السلطان إلى الصويرة في 27 جمادى الثانية 1303هـ/1886م، فقد أخبر الوزير محمد الصنهاجي أمناء الصويرة "**بأن الأمين الموجه لإكتيال الشعير بإحاحان وجه لكم على ثمانمائة ريال بقصد ذلك، فوجهتهما له، وقد أنهينا أمرهما لسيدنا أيده الله**"[3]. وفي 20 رجب 1303هـ/1886 بعث السلطان من جديد الأمين محمد بن الغازي لـ"**كيل الشعير من بلاد حاحة**"[4]، لتستمر عمليات توفير المؤن للحركة السلطانية من طرف أمناء إحاحان ذهابا وإيابا إلى سوس.

تعد الدواب من بين الكلف التي كان يفرضها المخزن على قبائل إحاحان، لحمل أثقال الحركة من الصويرة إلى سوس؛ ففي 24 جمادى الأولى1303هـ/1886م وجه قواد إحاحان ما وجب عليهم أداؤه من البغال للحضرة السلطانية[5]، كما أبلغ خليفة القائد المحجوب الكلولي السلطان بتوصله بالأمر السلطاني الذي صدر له "**بأن نأخذ في تعيين ما نابني من مائة بغلة على قبيلة حاحة كافة إعانة لحمل أثقال المحلة**"[6]، **وطلب من السلطان "أن يبدل لنا البغال بالجمال يحملون ما يحمل بموضعهم، إذ البغال في بلادنا قليلون، والجمال يوجد ويسهل أمرهم عند الناس**"[7].

وقد التمس ممثلو المخزن في إحاحان في رسالة إلى السلطان بتاريخ 14 رجب من نفس السنة، بأن "**يمن ويجود علينا بالبهائم الذي حملوا أثقال المحلة السعيدة من محروسة السويرة إلى بلاد جسيمة**"[8].

لقد عانت قبيلة إحاحان من كثرة الكلف المخزنية وعدم انتظامها، ومن تجاوزات القواد في فرضها، وهكذا ارتفعت عدد الشكاوى التي رفعتها القبائل والأمناء إلى السلطة المركزية احتجاجا على تعسف القواد في فرض الكلف وجمع المؤن، وعلى سبيل المثال كشفت الشكايات عن فرض القائد المحجوب الكلولي وخليفته على القبيلة "**ما أضر بهم من السكر والزيت والسمن والثيران ... وأن ذلك ليس بعادة ومخالف لما في ظهيرنا الشريف**"[9]. كما كان القائدين الزلطني والكلولي يقومان بفرض وجمع الأموال على القبائل، دون توجيهها للمخزن. وفي أحيان كثيرة كان القواد يجمعون تلك الأموال مقابل إعفاء أصحابها من المشاركة في الحركة[10].

وبالعودة إلى مراحل الحركة، فقد استغرقت الاستعدادات أزيد من خمسة أشهر[11]، وانطلقت من مراكش نحو عين الحجر، ثم نزلت بمدينة الصويرة لمدة خمسة أيام، ثم حلت بعدها بالرياض بإحاحان، للتزود بالمؤنة التي قدمتها قبلتي إِدَاوْكَرْضْ وإِنْكَّنْافْنْ حسبما ورد في رسالة الأمين

---

[1]- ن. ر.

[2]- رسالة القائد عدي النكنافي إلى السلطان المولى الحسن، مؤرخة بـ 5 جمادى الثانية 1303هـ/1886م، خ. ح. ر.

[3]- رسالة الوزير محمد الصنهاجي إلى أمناء الصويرة، مؤرخة بـ 30 جمادى الثانية 1303هـ/1886م، مح. الصويرة، رقم 5، م. و. م.

[4]- رسالة الأمين أحمد حشموط إلى السلطان المولى الحسن، مؤرخة بـ 20 رجب 1303هـ/1886م،خ. ح. ر.

[5]- رسالة عدي النكنافي إلى السلطان المولى الحسن، مؤرخة بـ 24 جمادى الأولى1303هـ/1886م، مح. ح، رقم 112. خ. ح. ر.

[6]- رسالة خليفة القائد الكلولي إلى السلطان المولى الحسن مؤرخة بـ 28 جمادى الثانية 1303هـ/1886م. خ. ح. ر.

[7]- ن. ر.

[8]- رسالة عدي النكنافي والمحجوب الكلولي ومحمد البوزيادي وأحمد الزلطني إلى السلطان المولى الحسن، مؤرخة بـ 14 رجب 1303هـ/1886م، مح. ح، رقم 95 (707). خ. ح. ر.

[9]- رسالة السلطان المولى الحسن إلى الأمين إبراهيم بن محمد الكلولي، مؤرخة بـ 15 شوال 1302هـ/ 1885م، خ. ح. ر. كناش رقم. 364.

[10]- رسالة السلطان المولى الحسن إلى القائد أحمد الزلطني، مؤرخة بـ 4 شوال 1302هـ/1885م، خ. ح. ر.

[11]- شفيق أرفاك، م.س، ص. 391.

حشموط إلى السلطان بتاريخ 2 رجب 1303هـ/1886م[1]، ثم استأنفت الحركة سيرها نحو سْميمُو، وبعدها مرت بقبيلة إِمْكَرَادْ، ثم تَبْصْرِيتْ بواد أَيْتْ تَامْرْ، ثم أَغْرُوضْ، ثم تَامْرَاغْتْ، فأكادير، لتباشر سيرها في اتجاه السوس إلى أن وصلت أَكْلميم[2].

وتمكنت الحركة السلطانية إلى سوس من تحقيق مقاصدها، فأسهمت في توسيع الإشعاع المخزني وتركيزه في السوسين الأدنى والأقصى، ووضع حد للتسرب الأجنبي عبر السواحل الجنوبية بمساعدة ممثلين محليين ومخزنيين. ولعل الطابع السلمي للحركة وتواصلها مع الساكنة كان له دور كبير في تحقيق مقاصد الحركة الثانية إلى سوس[3].

وفي طريق عودة المحلة السلطانية من سوس، قرر السلطان المولى الحسن تطويع قبيلة إِدَاوْتَنَانْ التي لا تنالها الأحكام السلطانية إلا لماما، وإدماجها في الخدمة المخزنية،بسبب التهديدات التي شكلتها القبيلة على الطريق التجارية الرابطة بين الصويرة وأكادير. فقامت قوات المخزن بمحاصرة القبيلة ومهاجمتها من جميع الجهات. وأثناء الهجوم لقي المخزن مقاومة عنيفة بمنطقة أيت وَأَنْكْرِيمْ، فشن هجوما من جهة أَزْرَارَكَ بناحية قبيلة مْسْكِينَة، وتمكنت قوات المخزن من دخول قبيلة إِدَاوْتَنَانْ من منطقتي أَسِيفْ بِيكَ وتزِّكِي نْشْرْفَا. واستطاع الحاج مسعود المتوكي إخضاع قرية دُوتَمَا بعد قتال دام ثلاثة أيام، أما قوات القائد أحمد الزلطني فقد هاجمت قبيلة تَانْكْرْتْ، وقد صور لنا القائد المذكور الخراب الذي ألحقته قواته بالقبيلة، بالقول: **"وحرقنا ديارهم، وشتتنا زروعهم، ومزقنا أشجارهم ونهبنا أموالهم"**[4]. وتمكنت السلطة المركزية من تطويع القبيلة بعد أسابيع من القتال، وإجبار سكانها على تقديم الهدايا ودفع المؤن للمحلة المخزنية[5].

عين السلطان المولى الحسن على قبيلة إِدَاوْتَنَانْ القائد مبارك بوعشرة، وقد وصفه روبير مونطاني بأنه عضو في مجلس إنفلاس، ورجل دين لا علم له بالسياسة. وبمجرد مغادرة الحركة السلطانية القبيلة تمت محاصرة دار القائد وقتل على يد السكان. لتعود إِدَاوْتَنَانْ إلى سابق عهدها خارج طاعة المخزن[6].

ويدعي أهل إِدَاوْتَنَانْ أن السبب في مغادرة السلطان للقبيلة هو الخوف من حامي القبيلة سيدي إبراهيم بن علي" أوتغانمين، ودليلهم في ذلك هي المؤن التي خلفها السلطان وراءه بعدما جمعها من السكان[7]، ولا يتفق محمد المختار السوسي مع هذه الأقاويل وإنما يؤكد أن الطبيعة الجبلية للقبيلة وصعوبة تضاريسها لعبت دورا حيويا في تحصين القبيلة من هجمات المخزن[8].

وبعدما أنهى المخزن مهمته في قبيلة إِدَاوْتَنَانْ توجهت الحركة السلطانية صوب قبيلة إِمْتُوكَا (مْتُوكَةَ) لتأديب القائد مسعود المتوكي، الذي كان يتسبب في المتاعب للسلطة المركزية نتيجة صراعاته المستمرة مع قواد القبائل المجاورة كإحاحان والشياظمة. ولما حلت الحركة السلطانية في تراب قبيلة إِمْتُوكَا، لقيت حفاوة الاستقبال والترحيب من طرف القائد المتوكي، وبالغ في التعبير عن سعادته وفرحته لقدوم السلطان، فقدم له هدايا ثمينة تضم خيولا وقطعا ذهبية وأثوابا وغيرها[9]، كما قدمت زوجات القائد الهدية إلى زوجة السلطان، وكانت نساء القائد المتوكي ما بين 25 و30 إمرة، وكل واحدة منهن قدمت **"جلد جدي مدبوغ محشو**

---

[1]- رسالة الأمين أحمد حشموط إلى السلطان المولى الحسن، مؤرخة بـ 2 رجب 1303هـ/1886م، خ. ح. ر.

[2]- انظر خريطة حركتا الحسن الأول إلى سوس (1882 و1886م).

[3]- شفيق أرفاك، م.س، ص. 397 و400.

[4]- رسالة القائد أحمد الزلطني إلى السلطان المولى الحسن، مؤرخة بـ 18 شوال 1303هـ/1886م، راجع: دانييل شروتر، م.س، ص. 362.

[5]- محمد المختار السوسي، **خلال جزولة**، ج4، مطبعة المهدية، تطوان، (ب-ت)، ص ص. 88-89.

[6]- Montagne (Robert.):**Organisation Sociale et Politique des Tribus Berbères Indépendants Les Idaoutanan**, Reuve de Etudes Islamiques, Cahier 1, Paris, 1927, p. 231.

[7]- محمد المختار السوسي، م.س، ص. 88.

[8]- نفسه.

[9]- لويس أرنو، **زمن لمحلات السلطانية: الجيش المغربي وأحداث قبائل المغرب ما بين 1860 و1912**، ترجمة محمد ناجي بن عمر، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2002، ص. 55.

بالذهب"[1]. وربما كان لهذا الاستقبال وقع في نفس السلطان، فقرر العفو عن القائد مسعود المتوكّي[2]. وهذا ما يومئ أن القائد مهما بلغت حدة تعسفاته ضد القبيلة والجيران فإنه ينال رضى المخزن عن طريق الهدايا والعطايا التي يقدمها للسلطان، والضرائب والكلف المخزنية التي يجبيها لصالح للمركز.

وختاما يمكن القول، أن الحركات السلطانية كانت تسعى لتهدئة القبائل المتمردة وضمان الأمن والاستقرار في الجنوب المغربي، فحرصت على القضاء على التمردات والحد من الصراعات المحلية بين القواد والقبائل، كما سعت جاهدة للحد من التسرب الأجنبي عبر الثغور الجنوبية خاصة بعد معركة تطوان سنة 1860م، لهذا نظمت حركتين إلى سوس الأولى سنة 1882م والثانية سنة 1886م، كشفت عن المشاركة الواسعة للسكان، وسلميتها، والتواصل المستمر بين المخزن والقواد.

[1]- نفسه، ص. 56.
[2]- نفسه.

تقديم:

تعتبر قصبة دبدو بجهة الشرق من المغرب إحدى أهم المعالم التاريخية والأثرية التي تزخر بها المنطقة، غير أن غياب الاهتمام بها سواء من ناحية الأبحاث العلمية وكذلك عمليات الاصلاح والترميم يجعلها تتوارى عن الأنظار لتعرف مختلف أسوارها انهيارا بتداخل مجموعة من العواملمنها المناخيةو البشرية، علما أن هذا الموقع الأثري يعتبر من البقايا التاريخية القليلة التي تعود للمرينيين، بل وشاهدا حضاريا على الفن المعماري الذي ميز هذه الحقبة، وقد بنيت قصبة بني مرين بدبدو فوق هضبة مطلة على المدينة وصفها شارل دوفوكو بقوله: "توجد هضبة في القمة وبها قصبة مرتفعة أبراجها سائرة في الانهيار ومئذنتها شامخة"[1] .

1- الموقع الجغرافي لقصبة دبدو:

تقع القصبة المرينية بالجهة الجنوبية الغربية من المدينة، فوق مرتفع عال جدا "يبلغ 1260 م فوق سطح البحر"[2]، على هضبة تنتهي من الجهة الشمالية الشرقية بحافة شديدة الانحدار، أما في الجهة الجنوبية فتنتشر سلسلة صخرية ذات انحدار شديد منيعة باستحكاماتها الطبيعية أي أنها محصنة تحصينا طبيعيا، وهو ما يوضح أهمية اختيار مواقع تشييد القصبات خاصة خلال الفترة المرينية، هذا الموقع الجغرافي التي تميزت به القصبة أهلها لتحظى بنصيب مهم من الاهتمام من طرف سلاطين بني مرين.

2- السمات العسكرية للقصبة:

تشكل قصبة دبدو النواة الأساسية للمدينة الحديثة لدبدو ، والمتتبع للشأن التاريخي بالمنطقة يلاحظ

---

[1]- شارل دوفوكو،" **التعرف على المغرب 1883-1884**"،ترجمة المختار بلعربي ، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1419هـ-1999م ، ص. 236.

[2]- عبد الرحمان الحرادجي،مادة"**دبدو" ضمن معلمة المغرب**، المجلد12، مطابع سلا، (1421-2000)،ص . 3967.

أن هذه القصبة روعي في عملية تشييدها بدرجة كبيرة الجانب الأمني انطلاقا من موقعها الجغرافي وصولا إلى مختلف مكوناتها ، وهو ما سنقوم بتوضيحه من خلال هذا المقال ، وكما هو معلوم"فالاجتماع الإنساني ضرورة يفرضها تطور المجتمع، وترجمة لرغبة أفراده في الانتقال من حالة البداوة وما يطبعها من غياب الاستقرار والأمن إلى حالة الحضارة، وهذا الاجتماع هو المدينة، أو ما اصطلح عليه ابن خلدون" بالعمران"[1]، .

أ.دور الأسوار في تحصين القصبة:

تعتبر الأسوار بمثابة الحائط الذي يطوق الساكنة داخل القصبة ويحميها من هجمات الأعداء، وقد ارتبط إنشاء الأسوار بالوظيفة التحصينية للقصبة لصد كل الأخطار التي تهدد أمن واستقرار ساكنتها، هذا الأمر جعل سلاطين الدولة المغربية يولون اهتماما كبيرا لإنشاء أسوار منيعة ومتينة، خاصة وأن ابن خلدون جعل من الأسوار شرطا يجب توفره لبناء المدن، "ويكون ذلك في ممتنع من الأمكنة إما على هضبة متوعرة من الجبل فيصعب منالها على العدو"[2].

هذا الشرط الذي أشار إليه ابن خلدون" السور الحصين"[3]، يجد صداه في أسوار قصبة بني مرين بدبدو، التي شيدت في موقع جغرافي وعر وبهندسة معمارية يغلب عليها طابع التحصين المنيع، هذا قد يبدو أمرا عاديا إذا ما نظرنا إلى الظروف السياسية التي كانت سائدة في المنطقة إبان الصراع المريني العبد الوادي، مما جعل مشيدي القصبات في المجال الحدودي يراعون بنسبة كبيرة الجانب الأمني في دفع الخصوم من خلال "متانة الأسوار" المعتمدة على "السمك" الذي يصعب من مأمورية اقتحامها من طرف العدو، وما تزال هذه الأسوار رغم توالي القرون على تأسيسها قوية الدعائم رغم انهيار أجزاء مهمة منها، كما أن المعاينة الميدانية تؤكد طريقة بنائها"بالتابية" الطين الممزوج بالجير واستعمال تقنية "الدك" أكسبها مناعة وحصانة جعلتها تقف في وجه عوامل الإتلاف عبر قرون، هذه العملية في البناء استعملت في مختلف القصبات التي تؤثث تاريخ جهة الشرق، نظرا لقلة تكلفتها وسهولتها على استعمال الحجر في البناء.

وأثناء تشييدهم لقصبتهم بدبدو اعتمد المرينيون في تجسيد رغبتهم في تحقيق الأمن والاستقرار على تسييج قصبتهم بأسوار متينة لازالت بعضها ماثلة لحد الساعة على اعتبار السور أحد أهم مكونات القصبة وفي هذا الصدد يشير العلامة ابن خلدون "السور الحصين لضمان أمن وحماية سكان المدينة... جدار سميك تحاط به القصبة ويتوفر على أبواب"[4].

و لهذا الغرض الأمني تم تدعيم هذه القصبة بالأسوار السميكة، وقد تكون أيضا الأدوار الدفاعية والعسكرية التي كانت تلعبها هذه القصبة وراء هذا الاهتمام بهذا النوع من البناء خلال فترات الصراع التي طبعت تاريخ المنطقة إبان العصر الوسيط بين المرينيين والزيانيين.

لكن في حقيقة الأمر أن التلاشي والزوال الذي عرفته مختلف أطراف أسوار قصبة دبدو، يشكل حجرة عثرة في عملية البحث خاصة وأن بعض الأجزاء من هذه الأسوار اندثرت ولم يعد لها أثر، وبالضبط" الواجهتان الشمالية والغربية"[5].

---

[1]- عبد الرحمان بن خلدون،**" العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم، والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر"**، جزء 1، المقدمة، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى، ، بيروت، 1992، ص. 44.

[2]- ابن خلدون،**"مقدمة"**، نسخة محققة لونان، دار الفكرة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2010، ص.330.

[3]- عبد الرحمان بن خلدون،**" العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم، والبربر ومن عاصرهم من دوي السلطان الاكبر"**، جزء 1، المقدمة، دار الكتب العلمية الطبعة الأولى، ، بيروت، 1992، ص. 370.

[4]- ابن خلدون، نفسه، ص. 370.

[5]- ملاحظة ميدانية.

- أسوار قصبة دبدو أكثر سمكا وصلابة مقارنة بقصبات أخرى من شرق المغرب ومنها قصبة السعيدية، حيث لا يزيد طول كل

وفي إطار تناول الحديث عن أسوار قصبة دبدو من طرف أحد الباحثين يشير "كانت قصبة دبدو على شكل مضلع رباعي يحيط بها سور يبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار وهو مبني بالكلس الممزوج بالطين الأحمر وهذه الطريقة في البناء تسمى محليا "باللوح" أو "التابية[1]"، كما تتخلل السور ثقب ذات أحجام متساويةتنتهي في الأعلى بحافة مسننة مما يضفي على السور جمالية نادرة، وقد كانت هذه الأسوار وبدون شك بحكم متانتها وموقع القصبة بمثابة الجدار أو الخط الذي يصعب تخطيه وتجاوزه، ويعبر عنها العلامة ابن خلدون في مقدمته بقوله: "نجد آثارا كثيرة من المباني العظيمة تعجز الدول عن هدمها وتخريبها مع أن الهدم أيسر من البناء بكثير، لأن الهدم رجوع إلى الأصل الذي هو العدم، والبناء على خلاف الأصل، فإذا وجدنا بناء تضعف قوتنا البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم، علمنا أن القوة التي أسسته مفرطة القوة"[2].

هكذا لعبت أسوار القصبات دورا رياديا في دفع المضار عن الساكنة رغم تعرضها في العديد من المرات للتحرشات المعادية، وشكلت عنصر أمان وحزاما معماريا يصعب تخطيه بالنسبة للعدو، خاصة إذا ما استحضرنا الظروف التي واكبت نشأة هذه الأسوار

ومن خلال المعاينة الميدانية لمختلف أسوار القصبة قمنا بتسجيل بعض الملاحظات وهي كالتالي:

* الملاحظة الأولى: أن أغلب الأسوار خاصة على الجهة الشمالية اندثرت ولم يبق إلا بعض المخلفات منها، والتي هي الأخرى على وشك الانهيار كما تم توضيح ذلك من خلال الصورة الأخيرة.

* الملاحظة الثانية: أن أسوار الجهة الجنوبية المقابلة للقمة الجبلية لعين تافرنت، لازالت تقاوم مرور الزمن رغم علامات الانهيار البادية عليها.

* الملاحظة الثالثة: زحف البناء العصري على مختلف الأسوار الداخلية لقصبة بني مرين.

* الملاحظة الرابعة: تأثر واضح على الواجهة الداخلية للقصبة عبر مختلف أسوارها، حيث ساهمت الأنشطة الفلاحية داخل القصبة في تغيير ملامحها وإتلاف معالمها .

ورغم مرور عدة قرون على تشييد هذه المنشأة إلا أنها لازالت تحتفظ ببعض أسوارها والمدعمة بأبراج للمراقبة، شاهدة على تاريخ حضاري عريق للمنطقة هذا ويتميز سور القصبة بالمتانة الشديدة فهو مشيد بتربة الكلس الممزوجة بالطين الأحمر، أما أساساته فهي مبنية بالحجارة، ويحيط بالسور خندق عميق، يسميه سكان المنطقة "بتاحفير[3]"، وتجدر الإشارة إلى أن تقنية البناء اللوح المحلية لا زالت ساكنة المنطقة تستعملها في ميدان المعمار جيلا بعد جيل، ويصل علو سور القصبة 8 أمتار، وتمتد أسوارها على طول 1،5 كلم.

عموما يبقى سور القصبة المرينية بمنطقة دبدو أهم معالم المدينة التاريخية والحضارية، ويوضح ما توصل إليه الإنسان المغربي في فترات متقدمة من التاريخ من تفنن

ضلع من أضلاعها عن مائة متر"،[5] ويتراوح سمكها ما بين 70 و 80 سنتمتر، ويصفها بعض الدارسين الأجانب كونها عبارة عن أسوار مربعة طول ضلعها حوالي 100 متر وارتفاعها حوالي 6 مترات.

[1]- اسماعيلي عبد الحميد، **"تاريخ وجدة انجاد في دوحة الأمجاد"**، الجزء الأول ، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1985، ، ص. 76.

[2]- ابن خلدون، **المقدمة**، نسخة محققة لونان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2010، ص. 329.

[3]- ملاحظة ميدانية.

-ونؤكد على أن قصبة دبدو أكثر حصانة من مجموعة من القصبات على صعيد شرق المغرب مقارنة بمجموعة من القصبات في شرق المغرب ومنها قصبة السعيدية ،هذا وعند الغوص في هندسة القصبة أي قصبة السعيدية نجد أن أسوارها قد أوغلت في سطح الأرض بمقدار يزيد عن 1.5 m وسمكها يزيد عن 1.30 m انطلاقا من القاعدة، وعلوها يزيد عن 6 إلى 7 أمتار، كما شيدت القصبة على مساحة بلغت 16900 m2 على شكل مربع طول كل ضلع فيه 130متر مربع.

في التشييد والبناء، لكن وللأسف أن وضعية الأسوار تدعو للقلق بسبب غياب عمليات الصيانة والترميم.

ب - وظيفة أبواب القصبة:

لاشك أن الباب يعتبر أحد العناصر المعمارية الأساسية في تركيبة أي بناية مهما كان دورها، وعرفت مختلف قصبات شرق المغرب إنشاء العديد من الأبواب التي لا زالت تحتفظ بها لحدود الساعة، كما تعرضت أخرى للإندثار، ولم تشد قصبة دبدو عن هذه القاعدة علما أن "الباب هو أحد العناصر المعمارية الأساسية فهو يوصل ما بين داخل المباني وخارجها"[1] ،وتعددت الوظائف والأدوار التي قامت بها هذه الأبواب انطلاقا من الوظيفة الأمنية والدفاعية من خلال الحماية من كل خطر خارجي، سواء بالنسبة للعدو القادم من خارج البلاد أو الناتج عن الصراعات القبلية التي كانت سائدة بمختلف مناطق المغرب، كما أن هذه الأبواب تؤدي أدوارا اقتصادية حيث كانت" تؤدى بها المكوس، وأدوارا دفاعية لحماية البناية من التهديدات الخارجية[2].

وقد كانت القصبة المرينية بدبدو مدعمة بأبواب تلعب نفس الدور الوقائي في الحماية و الاستراتيجي من ناحية التزود بالمواد خاصة في وقت الحروب، البابان هما " باب تافرنت من الناحية الجنوبية و باب تمزلفت من الناحية الشرقية"[3]، فالأول لا زال موجودا و يؤدي إلى عين تافرنت ويحتمل أن يكون هناك باب ثانوي أو ما يعرف" بباب لغدير[4]"، و من تم قد يكون استمد تسميته أي من عين تافرنت الطبيعية، كما أنه يعتبر ذا موقع مهم انطلاقا من كونه بعيدا عن الأنظار و من تم يمكن القول أنه كان يستغل في وقت الشدة والحصار.

ونضيف إلى أن الوعاء الجغرافي للقصبة لا يسمح إلا بوجود بابين كما هو الشأن في بعض القصبات، (الباب الجنوبي باب تافرنت) والباب الشمالي الذي يطل على دبدو، فباب تافرنت يسمح بالذهاب إلى عين تافرنت وجبال الكعدة خصوصا وأن سكان القصبة كانوا يعتمدون على مياه هذه العين، أما غرب القصبة وشرقها فالخندق عميق جدا وواسع لا يسمح بتوفير ممرات.

وكانتأبواب القصبات بصفة عامة "خاضعة لبوابين مكلفين بمراقبة تنقل الأشخاص من وإلى المدينة نهارا والقيام بالحراسة ليلا إلى جانب السهر على ضبط أوقات فتح الأبواب وإغلاقها، كما كانت خاضعة لجباة الأبواب الذين كانت مهمتهم تتعلق بمراقبة مرور البضائع والمنتجات من أجل أخذ مستحقات الجباية عنها"[5]، وتأخذ مختلف أبواب هذه القصبات أشكالا بيضاوية مقوسة أو مستطيلة أو على شكل مربع.

هكذا تعددت وظائف وأدوار هذه المعالم المعمارية التي تحتوي عليها القصبات بين ما هو دفاعي اقتصادي جبائي لترسم لنا ملامح تنظيم معماري فني جميل يؤثث هذه الفضاءات الأثرية.

ج - أدوار أبراج المراقبة:

---

[1]- عبد العزيز توري،مادة **"باب"** ، **ضمن معلمة المغرب**، الجزء الثالث، مطابع سلا، 1991، ص . 945.

- ولا أدل على ذلك قصبات السعيدية وعيون سيدي ملوك ودبدو ، وتختلف أشكالها بين المستطيلة والبيضوية والمربعة كما تختلف من ناحية الحجم ، أبواب صغيرة (لغدير) ، وأبواب كبيرة رئيسية.

[2]- الفرخ حميد ، **"تطور المجال الدفاعي المغربي"**،أعمالندوة وطنية بمدينة تاوريرت "تاوريرت واد زا القصبة: التاريخ والمجال والتنمية"،فريق البحث في الكتابة التاريخية وتقنيات الإعلام والتواصل بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، 14 و15 ماي ،2007، ص.45.
، ص.45.

[3]- الاسماعيلي عبد الحميد، **تاريخ وجدة انجاد في دوحة الأمجاد"**، الجزء الأول،م س، ص.76.
مينة المغاري، مادة ،**"القصبة"،ضمن معلمة المغرب**، مجلد

[4]- 19،نشر مطابع سلا،(1425- 2004) ،ص . 6633 .

[5]- محمد رابطة الدين، مادة **"باب"** ، **ضمن معلمة المغرب**، الجزء الثالث، مطابع سلا، 1991، ص . 949.

إن الوظيفة الدفاعية والعسكرية للقصبة المرينية بمنطقة دبدو و استراتيجية موقعها الطبيعي الواقع على منطقة جبلية، عززت بوجود عدد من الأبراج المدعمة للقصبة من أجل أداء وظيفة دفاعية محكمة.

ولا زالت مختلف قصبات جهة الشرق (ومنها قصبة دبدو)، تحتفظ بمجموعة كبيرة من هذه النماذج المعمارية التي تعتبر من أهم مكونات القصبة، وقد تكون هذه الأبراج ذات وظائف دفاعية وعسكرية محضة، وفي هذا الإطار يرى بعض الباحثين أن البرج "مصطلح معماري عسكري أنشئ لمهمة الدفاع وأن البرج الصغير يعني البستيون Bastion وهي كلمة أعجمية، وقد انتشر هذا النوع من البنايات في القرن السادس عشر"[1]، فإذا كان هذا النوع ذا وظيفة دفاعية عسكرية، فإن ظهوره لم يكن فقط مع القرن 16م، بل هناك قصبات في مختلف أنحاء المغرب تعود إلى الفترة المرينية على الأقل لا تزال تحتفظ بمجموعة من هذه الأبراج (ومنها على سبيل المثال قصبة دبدو وتاوريرت، والبرج بناء عال ومرتفع يشكل دعامة أساسية في بناية القصبة وقد انتشر هذا النوع من المعمار العسكري بالمناطق الساحلية والداخلية كذلك، ،مما يظهر لنا قيمته التاريخية والدفاعية داخل منظومة القصبة من حيث المراقبة وتحصينها من الهجمات الخارجية القادمة عن بعد (خطر أجنبي أو الناتجة عن تمردات القبائل الخارجية عن سلطة المخزن فيما يسمى ببلاد السيبة، وتأخذ الأبراج المدعمة للقصبة المرينية بدبدو الأسماء التالية:

"برج الحبس، برج المقبرة و برج الشافة، برج بركون، برج ارفيقة"[2]، هذه الأبراج كانت مخصصة للمراقبة والكثير منها تعرض للهدم والإهمال.

إن الوظيفة الدفاعية والعسكرية للقصبة المرينية بمنطقة دبدو واستراتيجية موقعها الطبيعي الواقع على منطقة جبلية، عززت وجود عدد من الأبراج و الأبواب المدعمة للقصبة من أجل أداء وظيفة دفاعية محكمة.

شكلت هذه الأبراج أداة مهمة لمراقبة تحركات "العدو" الداخلي و الخارجي، خاصة القبائل المناوئة لحكم بني مرين في المنطقة، كما أنه لا شك أن تكون هذه الأبراج قد ساهمت في رصد تحركات بني عبد الواد أثناء صراعهم على المنطقة مع أبناء عمومتهم المستقرين بدبدو، وكذلك المناوشات التي كانت تحدث بين أهل القصبة والساكنة المجاورة لاستغلال مياه عين تافرنت، وقد اعتبرت الأبراج إحدى أهم مكونات القصبة، بحيث تأخذ أشكالا هندسية مستطيلة و من ناحية ثانية أكثر صلابة و تماسكا مقارنة بباقي أسوار القصبة.

ولنا أيضا في أبراج فاس النموذج الحي للأدوار العسكرية التي اطلعت بها أبراجها فالبرج الشمالي أو برج النار، "والذي بني عام 1582م على يد المنصور الذهبي لعب أدوارا عسكرية هامة منذإنشائه تمثلت في إخماد الثورات والفتن الداخلية وصد الهجمات التي تستهدف المدينة، ولعل أهم أسباب إنشائه هو إيقاف المد العثماني القادم من الجهة الشرقية حيث يمكن البرج الشمالي من مراقبة فاس بأكملها والإحاطة بمداخلها ومخارجها إضافة إلى الهضاب المحيطة بها "[3].

وعن أهمية هذه الأبراج تشير بلمقدم في سياق حديثها عن القصبات الإسماعيلية، "وكانت كل قصبة مسورة ومجهزة بأبراج مربعة أو مستطيلة في أحد جوانبها "[4].

ح- الخندق بجانب القصبة:

[1]- محمد حجي ،مادة **"باستيون"، ضمن معلمة المغرب**، المجلد الرابع، ،مطابع سلا،1991، ص . 1236.

[2]- العلوي الإسماعيلي، **"تاريخ وجدة انجاد في دوحة الأمجاد"**،الجزء الأول، مرجع سابق، ص . 76.

[3]- يوسف الحلوي، مقال **"أضواء على مفاخر المغرب المنسي"، جريدة المساء**، العدد 1984، السبت والاحد 09-2013/02/10،ص .19.

[4]- رقية بلمقدم، مادة **"القصبات الإسماعيلية"، ضمن معلمة المغرب**، مجلد19 ، مطابع سلا، 1425-2004، ص . 6632.

إن الزائر لهذه المعلمة التاريخية – قصبة دبدو- التي تضرب جذورها في أعماق التاريخ، وهو يحاول استكشاف بعض الخبايا التاريخية التي لها علاقة بالقصبة بصفة خاصة والمدينة بصفة عامة، يلاحظ انتشار مجموعة من الخنادق والكهوف خاصة بجانب القصبة، فالعنصر البشري الذي عمر المنطقة ربما رأى في سياسة الخنادق والكهوف عنصرا هاما لدفع المضار عن القصبة وتوفير الأمن والاستقرار للمجتمع الدبدوبي، هذا كان بطبيعة الحال إلى جانب التحصين الطبيعي الذي شيدت القصبة من أجله.

وربما أن سياسة الخنادق كانت وقائية وخطة إستراتيجية تمكن من الدفاع عن القصبة في حالة حدوث أي طارئ، خاصة إذا ما استحضرنا الحروب التي دارت بين بني مرين وبني عبد الواد للسيطرة على مجموعة من المواقع شرق المغرب ومن ضمنها دبدو، التي عرفت أوج ازدهارها خلال هذه الحقبة التاريخية من العصر الوسيط.

ونجد بمحاذاة القصبة خندقا عميقا يصل تقريبا 20 مترا طولا و10 أمتار من حيث العرض، وقد يكون العامل وراء حفر الخندق جنوب القصبة هو العامل الطبيعي نظرا لوجود الجبال في الجهة الجنوبية وهي أكثر ارتفاعا من القصبة ، لهذا كان لا بد من عزل القصبة عن الجبل.

كان يستغل كواجهة لرد هجمات الأعداء ويرى أحد الباحثين:" أن الخندق الذي يحيط بالسور من الجهة الجنوبية للقصبة يشبه إلى حد كبير ما كان يسميه الرومان بالليمس، وهذا طرح فيه فرضية التأسيس الروماني للمدينة، معتمدا على روايات محلية من اليهود والمسلمين[1].

لكن هذا الرأي قد يبدو بعيدا عن الواقعية على اعتبار أنه لا يستند على أدلة تاريخية مادية صحيحة، ونرى أن هذا الخندق وغيره تم حفره على عهد بني مرين إبان الصراع مع أبناء عمومتهم شرق المملكة للسيطرة على المغربين الأقصى والأوسط، وكذلك استغلاله في الدفاع عن القصبة من خلال الصراعات التي كانت سائدة في المنطقة بين ساكنة القصبة والقبائل المجاورة، ويرى بعضهم في إطار حديثه عن هذه المغارات المحادية لقصبة دبدو "أن هذه المغارات تعتبر بمثابة شاهد تاريخي وسياج كان يحمي قصبة بني مرين من شر الهجمات الخارجية على عهد بني مرين"[2].

وعليه يمكن القول أن هذا الخندق اعتبر بمثابة نقطة استراتيجية في الدفاع عن القصبة، إلى جانب الأسوار المكونة لها بل في نظرنا قيمة إضافية لنجاعة الدور الدفاعي الذي لعبته هذه القصبة خاصة خلال الصراع المريني الزياني.

خـــــلاصـــــة:

يتضح من خلال دراستنا للسمات العسكرية لقصبة دبدو المرينية، من خلال الأسوار والأبراج والأبواب والخندق ، أننا أمام منشأة معمارية محصنة تحصينا دفاعيا متنوعاً.

ومن خلال زيارتنا الميدانية لهذه الآليات الدفاعية، خلصنا إلى مجموعة من الملاحظات نجملها في ما يلي:

أسوار القصبة تختلف بين مختلف جهاتهاوهي مبنية بتقنية "التابية" التراب الممزوج بالجير معززة ببابين الأول في الواجهة الشرقية وهو عبارة عن مدخل كبير في اتجاه داخل القصبة والثاني شبه مستطيل تنفتح به القصبة على المحيط الجبلي ، وتتعزز هذه المنشأة المعمارية بأبراج

[1] - Nahum sloush,**"Les juifs de Debdou"**, **Revue du monde musulman**, Ed Ernest Leroux, Paris 1913, p. 5.

[2]-Mamoun Naciri,**"Plan d'amenagement et de sauvegarde de la Kasbah de Debdou"**, Rapport Justificatif, Mai, 2009, p .05.

مرتبة على الأسوار وهي في مجملها ملتصقة بأسوار القصبة، وقد اتخذت أشكال مستطيلة مبنية بنفس مواد بناء القصبة، وقد كان دورها للمراقبة والدفاع.

أما الخندق فكان دوره مميزا في الجانب الدفاعي وخلق حاجز فاصل بين القصبة ومحيطها من الجهة الجنوبية، ونشير في الأخير إلى أن هذه المكونات التي أشرنا إليها قاسمها المشترك هو الدفاع والتحصين.

- توصيات حول الاستراتيجيات الواجب اتخاذها للحفاظ على التراث المعماري للقصبة

- ضرورة وضع نصوص قانونية لحماية المواقع الأثرية.

- ضرورة تخصيص ميزانية من طرف المؤسسات المسؤولة عن التراث من أجل صيانة المواقع التاريخية.

- حماية الآثار هي مسؤولية الجميع للحفاظ عليها بالنسبة للأجيال القادمة في إطار تنمية مستدامة.

- ضرورة ترميم الآثار قبل فنائها لأن زوالها يعني طمسا للحضارات السابقة.

- ضرورة تدخل وزارة الثقافة من أجل معاينة أوضاع الآثار بالإقليم (نموذج قصبة بدبدو).

- تكوين جمعيات المجتمع المدني للتحسيس بأهمية الآثار.

- ضرورة وضع الآثار في خريطة كل مخطط تنموي.

- العمل على نشر الوعي أن هذه الآثار ثروة قومية يجب على كل شخص بل يتحتم على كل واحد حمايتها.

-عدم هدم المواقع الآثرية وحلول المباني العصرية محلها.

- سن عقوبات زجرية في حق كل من يعمل على إتلاف الآثار وتشويهها وإلحاق الضرر بها.

- ترميم القصبة المرينية بدبدو ومختلف مرافقها عاجلا.

- إجراء أبحاث آثرية بالقصبة ومحيطها لصياغة تاريخية مثلى.

- العمل على وضع ترميم قصبة دبدو ومرافقها ضمن برنامج التنمية المستدامة للقصور والقصبات .

- إعادة الاعتبار للقصبات ليس بصفتها مآثر ولكن كفضاء للعيش يهم هوية المغاربة بشكل عام.

جمعية الرحالة
لهواة المشي بطنجة

مقاطعة المصينة

محاضرة :

طنجيس والطرق الرومانية بشمال المغرب

د.محمد حبيبي
أستاذ باحث بجامعة عبد المالك السعدي

الجمعة 13 يوليوز 2018 - على الساعة 18:00 مساءً

المكان: المندوبية السامية لقدماء المقاومين واعضاء جيش التحرير
مندوبية السوق د بارا

الدعوة عامة

مدخل أولي:

التفكير في درس الاجتماعيات برحاب المدرسة المغربية ضمن سياقات اجتماعية وتربوية وسياسية شديدة التحول والانفلات، مُتمردة على كل أشكال الوصايات المعرفية الكلاسيكية، مُنفلتة من كل الايقاعات البيداغوجية الرتيبة، يغدو راهنا أمرا يطرح اشتباكا عميقا مع عدة مكونات متداخلة في ما بينها، مع المادة المعرفية أولا من حيث مواكبة انشغالاتها الابستمولوجية الحادثة في مستويات جامعية أجنبية، من حيث المُدرس وضرورة تكوينه الدائم والمستدام لتجويد أحد مداخل المنظومة التربوية ثانيا، ومن حيث المُتعلم وضرورة تفكيك دينامية محيطه السوسيوثقافي والذهني ثالثا، لمادة قُدر لها أن تقود قاطرة بناء منظومة القيم الانسانية، ومدخلا نحو صناعة الفرد المتصالح مع ذاته ومجاله، الآمل في التسلح بأدوات مفاهيمية ونقدية قد تساعده في تحديد أزمة المعنى وسبر خبايا هذا الواقع المعقد، في فهم هذا العقل الإنساني الذي أصبح مفرطا في انغلاقيته وكليانيته، في استيعاب هذا المشهد الإنساني الغارق في ظلاميته ودوغمائيته[1].

فتح نقاش حول درس الاجتماعيات في سياق مدرسة تتجاذبها رهانات قوية مرتبطة بتوغل قيم العولمة النيوليبرالية، يبقى مغامرة محفوفة بمخاطر كبرى، جعلت من المدرسة في العالم تمتح من عمق الداروينية المتوحشة، تلك التي تجعل البقاء للمتوحش، عبر مدرسة المعدلات العالية والعلامات المرتفعة، التي تضمن الولوج بانسيابية سريعة نحو المعاهد الكبرى، وترمي بالفاشلين نحو غياهب الضياع.

ثمة أسئلة كثيرة تعتمل ضمن خارطة انشغالات درس الاجتماعيات داخل المدرسة المغربية، بما هو درس قادر على تفكيك وهدم كرنوزوفيات التفكير المُغلق، وإعادة بناء سردية جديدة ومتجددة لأسئلة الإنسان والانسانية في عالم متحول، في لحظية تربوية تتسم بطغيان الهشاشة والتسطيح، تجعل من

درس الاجتماعيات بروافده الثلاث يسير بدون بوصلة فاقدا للمعنى، مُرتكنا في أقبية الظلام، أوَ ليس انغلاق المعرفة يقود بالضرورة نحو انغلاق الواقع بتوصيف إدغار موران[1]؟ (ادغار موران، تربية المستقبل، المعارف السبع الضرورية لتربية المستقبل، ترجمة عزيز لزرق ومحمد منير الحجوجي، دار توبقال للنشر، منشورات اليونسكو، الطبعة الأولى، 2002.)

هل لا يزال درس الاجتماعيات قادرا على إنتاج المعنى بالنسبة للإنسان المعاصر بالمعنى الفلسفي؟ هل يستطيع أن يُحصن المُتعلم من خطابات توثين العقل ونعيمية العولمة الاستهلاكية والحداثة المادية والثورة التقنية؟ هل قُدر للمدرسة المعاصرة في زمن الميديا الحديثة أن تخون العقل الأنواري، وتنزلق في تشعبات الحداثة من إنسية مفرطة وديكتاتوريات شمولية وحروب عالمية ونزوعات استعمارية[2]؟ (- محمد التهامي الحراق، أزمة المعنى وسؤال الدين، مجلة أفكار، العدد19، أكتوبر 2017، ص14-15.)

لربما في زمن الانهيار الناسف للمعنى، تغدو الحاجة ملحة لإعادة بلورة مفهوم درس الاجتماعيات، للإجابة عن سؤال المعنى المفقود في النظام العام الأشياء بالمعنى الأنتربولوجي، برؤية إنسية جديدة قادرة على إنقاذ المُتعلم من العزلة والتعاسة ومظاهر الإحباط، من كل أشكال الإقصاء التي يتعرض لها في جل مؤسساته الاجتماعية.

هل أصبح خطاب المادة يحمل أدوات الإقناع في ذاته، يحمل صلابة في بنائه؟ هل درس الاجتماعيات قادر عن الإجابة عن اشكالات تقع في خط التماس مع مباحث نظرية قريبة، عن جنون العقل، عن سؤال المعنى والوجود، عن فوضى الحواس وتنميط الذوق، عن الإنسان ذو البعد الواحد بتوصيف هربرت ماركوز؟(هربرت ماركوز، الانسان ذو البعد الواحد، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات دار الآداب، الطبعة الثالثة، 1988، ص 14)

هل يستطيع سَدنة المادة وحواريوها على الأقل أن يناضلوا من قلب أدوات اشتغالهم في كسر تمثلات وأقانيم رافقت وسترافق المُتعلمين عن المادة في المدرسة وحتى الجامعة ومنهما إلى المجتمع؟ هل فقد آل الزمن والمجال عصا قيادة العلوم الاجتماعية، منسحبين من معركة رهان القوة لفائدة تلك القراءات العُصابية المتصلبة؟

أن نتقاسم جميعا هَم التفكير في مادة معرفية مُتموجة ضمن سياقات إجتماعية وسياسية فارقة يصير قلقا ابستمولوجيا وديداكتيكيا، وانشغالا أنطولوجيا يفرضه واقع الحال والمآل، ضمن لحظية زمانية مطبوعة بتراجيديات حضارية وإنسانية صعبة، استطاعت أن تقضم مكتسبات وإواليات ناضل من أجلها جيل الرواد، وتخلى عنها طوعا أو كرها جيل المُدرسين الجدد، فهل يعيش درس الاجتماعيات اليوم زمن الردَّة الابستمولوجية والديداكتيكية؟ هل حان الوقت لفتح نقاش عميق حول مشهد تربوي يشهد الجميع على دراميته في إنتاج اللامعنى والفوضى الخلاقة؟

قد لا يعتبر الأمر حكم قيمة يغالي في تعميد الأحكام، بقدر ما يتعلق الأمر بمُعاينة امبريقية تمتح من عمق الواقع وهواجسه، لعله زمن النكوص كما يسميه سيغموند بومان، حيث لم يعد الانتساب إلى المادة شرف وحظوة معرفية، مقابل جاذبية مباحث وتخصصات اقتصاد السوق والماركتينغ المعرفي Miguel Benasayag, la critique du bonheur,2016, P19)

- هندسة الكتاب:

كتاب درس الاجتماعيات من التخطيط إلى التنفيذ للباحث عبد الرحيم الضاقية، الصادر سنة 2017، عن مؤسسة افاق للنشر بمراكش، في حوالي278 صفحة، بقدر ما يعتبر سفرا افتراضيا في رحاب حياة درس الاجتماعيات من الابتدائي نحو الثانوي، وتفكير مُعمق ورصين في ممارسة بيداغوجية، تطرح علامات فارقة في التساؤل والبحث، تستقي مادتها من عمق المراجعات المنهاجية والابستمولوجية، بقدر ما يعتبر سفرا واقعيا وميدانيا، يجر وراءه سنوات مديدة من تراكم المعاينة والتجريب، في وضعيات وسياقات متنوعة ومغايرة، تتخذ عملية ذهاب وايابva et vien في الإحاطة بمداخل الممارسة

الصفية، عبر فتح نقاش مثمر وفاعل بين جل المتدخلين بشأن بنية خطاب مادة الاجتماعيات، ونقل هواجسها الديداكتيكية من البحث في المتن المعرفي، نحو البحث في بنية الخطاب الديداكتيكي، وهو في اعتقادي ورش لا يزال جنينيا في منجزنا الديداكتيكي.

الكتاب عبارة عن وثيقة تجريبية، بلغة تقنية ميدانية تتقمس مضمونها من عمق المراجعات الحادثة في منهاج المادة وتوجيهاتها التربوية، بنوع لا تخلو من مواكبة معاصرة لمتون ومضان البحث الديداكتيكي بالجامعات الغربية، وتراكمات البحث الديداكتيكي بالمغرب، مما يضفي عليه لمسة خاصة، قد تسهم في عملية اخصاب حقل ديداكتيك الاجتماعيات بمداخله الثلاث، وتساهم في عملية توليد متجددة من نظريات وفرضيات ومفاهيم واشكالات بحثية وطرائق جديدة.

يقف قارئ المتن الديداكتيكي حول مادة الاجتماعيات عند تراكمات نظرية وتجريبية هشة من خارج الوثائق الرسمية التي تعنى بها، قد لا ترقى إلى مستوى الانتظارات، ولعلَّ مرد ذلك قد يعزى إلى نظام الفصل المؤسساتي القائم بين كليات الآداب والعلوم الانسانية وبين وكلية علوم التربية، وكذلك من حيث غياب المواكبة النقدية من طرف الممارسين في الميدان للإنتاجات الديداكتيكية المغربية وحتى الأجنبية، بسبب كليشيهات مُضمرة أحيانا وواضحة في أحايين أخرى، ومن جهة ثالثة بجنينية البحث الديداكتيكي والتربوي بالمغرب.

2- مضامين الكتاب:

يبتغي كتاب درس الاجتماعيات من التخطيط إلى التنفيذ محاولة إقامة مصالحة بين العُدة الوثائقية ذات الحمولة المعرفية القوية، وبين الممارسة الديداكتيكية ذات الشحن المعرفي، وهي مصالحة تروم إعادة الاعتبار للممارسة الفصلية، بما هي سفر من حياة درس إلى درس قابل للحياة[1]، قابل للتكيف مع مختلف الوضعيات الديداكتيكية، متكيف مع متغيرات الفصل الدراسي، ومجتمع تتعدد وسائطه وحوامله المعرفية.

يتطلب هذا المنحى تحويل درس الاجتماعيات من رهان للقوة إلى قوة الرهان، من استشعار بمسؤولية درس الاجتماعيات في تكوين ذاتية المتعلم، وتعزيز ذاكرته الفردية والجماعية، ووعي بأهمية المجال وقيم المواطنة في تحصين الذات الانسانية من غلواء التطرف والدوغمائية والتفكير المُعلب.

تكمن قوة الكتاب في صلابته النظرية، إن على المستوى المنهجي من خلال مواكبة النقاشات الأكاديمية التي تدور حول تدريس التاريخ والجغرافيا والتربية على المواطنة، أو على المستوى المعرفي عبر تجديد زوايا الرؤية والنظر إلى المادة من وضعيات ديداكتيكية متعددة، باعتماد منطق التجريب والنمذجة، وأيضا في طابعه الإجرائي من خلال اقتفاء أثر الوضعيات التعليمية عبر مختلف مراحلها (الإعداد/ الإنطلاق/ الأنشطة/ التقويم)، بشكل يتناغم ويتساوق مع فرضية التأسيس العملي للاشتغال بالمفاهيم، كمعالم لبناء معرفة مندمجة، يؤسس لممارسة تقويمية تتغاضى عن الكم المعرفي والشحن العقيم، كل ذلك في مدار لا يفارق جعل المُدرس قادر على التفكيك وإعادة البناء ضمن وضعيات حقيقية.

يجعل الكتاب تفعيل هذا الإجراء الديداكتيكي مستندا في تنفيذه على مبدأ الفاعلية perfectionnisme، ذلك أن اللحظة التربوية تتسم بالتداخل والتركيب، تمزج بين ثلاث مكونات فاعلة ضمن المثلث الديداكتيكي، ضمن فضاء وزمن مُحددين بشبكة استعمال زمن، فعملية التدريس بمقتضى المراجعات الابستمولوجية، وبمنطوق ووثائق الإصلاح البيداغوجي لم تعد موهبة يمكن ارتجالها ميكانيكيا كما كانت في السابق، بقدر ما أصبحت عملية متداخلة غاية في التركيب والتعقيد، تفرض التسلح بآليات استباقية ديداكتيكية وتربوية مهنية لآداء الأمانة، ولجعل التعلمات ذات معنى وقيمة في بيئة حاضنة للمفارقات وحبلى بالتشابكات.(- عبد الرحيم الضاقية، درس الاجتماعيات من التخطيط إلى التنفيذ، مؤسسة افاق، الطبعة الأولى، 2017، ص10.)

يُقدم مبحث التنفيذ جملة ملاحظات عن نماذج تركيبية عن السيناريو التنفيذي، إنطلاقا من زوايا متعددة ومركبة ومختلفة، تبدأ بصناعة التمهيد، وعملية تركيب التعلمات أو

بناء الخلاصات، عبر الاشتغال بمنطق الوضعيات التي تمتح من مرجعية الكفايات: وضعية الانطلاق، وضعية النشاط، وضعية التقويم، إضافة إلى وضعية الإعداد القبلي.

يتضمن مبحث التنفيذ تدقيقا مُفصلا عن كل مرحلة من هذه المراحل، ووصفا مجهريا عن كل مراحلها الأساسية، بشكل يتغيا تقديم نمذجة تطبيقية لكيفية بناء درس الاجتماعيات داخل الممارسة الفصلية.

يحاول الأستاذ عبد الرحيم الضاقية من خلال مبحث التنفيذ تحليل الدعامات الديداكتيكية المستعملة في بناء درس الاجتماعيات، من نصوص وخرائط وخطاطات وجداول وصور...، مُقْدما على تحليلها وقراءتها إما بشكل أيقوني أو بشكل تفكيكي، من أجل توظيفها ضمن أثر مادي مكتوب، يقوم بعملية تحويل ملفوظات أو صور إلى رموز مكتوبة أو مفهومة من طرف المنتج والمتلقي.

يعتبر الأستاذ عبد الرحيم الضاقية أن الأثر المكتوب عملية تدخل ضمن عملية كبرى أشمل، يسعى درس الاجتماعيات إلى تحقيقها، ترتبط بالمفهمة Conceptualisation من خلال تشغيل عدد من العمليات العقلية والذهنية الضرورية لبناء المعرفة، كالتلخيص وإعادة التركيب وترتيب المعلومات وربطها وتصنيفها، وكلها عمليات منهجية تكسب المتعلم القدرة على الهدم وإعادة البناء والتركيب من جديد.

من شأن الاهتمام بتقنية أخذ النقط بما هي إنتاجية معقدة ومركبة أن تستنفر عُدة مفاهيمية تاريخية وجغرافية، قد تساهم في تطوير الكفايات اللغوية للمتعلمين، وتسهل عملية إعادة الكتابة وبناء الخطاب، بشكل يضمن استقلالية ووظيفية المُتعلم بما يتساوق مع مرجعيات الإصلاح البيداغوجي

سؤال التجديد الديداكتيكي الذي يقترحه الأستاذ عبد الرحيم الضاقية ينطلق من فرضية أن درس الاجتماعيات إطار حاضن للانشغالات والتساؤلات والإشكالات المنهجية والمعرفية والأطر النظرية والابستمولوجية، التي تحيط بمعرفة الزمن والمجال والمصير وتجعله موضوعا للتعليم والتعلم، ضمن وضعية مُقايضة وتبادل معرفي تتم بين المُدرس والمتعلم سواء بسواء، تتيح مساحات واسعة من حرية إبراز ذاتية المتلقي، وتلغي الاستيلاب، وذوبان ذاتية المتعلم في ذاتية الأستاذ.

تأتي تقنية أخذ النقط كاختيار استراتيجي لدى الأستاذ عبد الرحيم الضاقية لتجويد الممارسة الفصلية والارتقاء بها نحو الحرفية، بشكل ينسجم أفقيا مع الوثائق المؤسسة لفلسفة الإصلاح البيداغوجي، وعموديا مع ضرورة تخليص التعليم من تطرف المقاربات المعرفية الاستعراضية، من خلال امتلاك المتعلم لمهارات معينة، يتم الاشتغال عليها في وضعيات محددة، تدعم بالنهاية استقلاليته الوظيفية، وتكسبه كفايات وقدرات ممتدة ومستعرضة قادرة على تعزيز تعلمه الذاتي.

يفصل الأستاذ عبد الرحيم الضاقية في الشروط التقنية الكفيلة بتنزيل تقنية أخذ النقط من خلال: العناوين/ الترقيم/ تقديم التصميم/ اختزال المعطيات... كإواليات مندمجة لتقنية أخذ النقط، عبر تحديد أهداف واستراتيجيات واضحة، والاستعداد لأخذ النقط، من خلال فرز الثانوي عن الأساسي، وإعادة تركيب المعطيات تم عملية الاختزال، وترقيم العناصر والفقرات، وأخيرا التركيب الدينامي للوحدات، أي المتن المكتوب.

يُفرد الكتاب حيزا هاما للتفكير في المفاهيم كمعالم أساسية لبناء درس الاجتماعيات، فهي عبارة عن هوية وشفرة ذهنية، كيانات أصبح يتم الاشتغال بها وعليها ضمن الدرس، تصور ذهني وتمثل عقلي لشيء أو حدث أو وضع معين، تساوقا مع التصور الجديد للمادة والنقاش الابستمولوجي الداخلي الذي جعل واضعي المنهاج يركزون على المقاربة المفاهيمية ضمن المرجعية الديداكتيكية .

الدراسات الديداكتيكية الحديثة عملت على اجتراح مفهوم التدريس بالمفاهيم، فالمفاهيم تقوم بعملية تشبيك للتفاصيل، وتقدمها على شكل رزم معرفية ومهارية تساعد على المقاربة النسقية، لأن من شأن التمكن من المفاهيم زيادة فعالية واكتساب وترسيخ المعطيات التاريخية والمجالية والحقوقية (مفهوم الديموقراطية/ مفهوم الاستعمار).

يُحلل الكتاب أنواع المفاهيم التي تهيكل درس الاجتماعيات، من حيث طبيعتها من قبيل المفاهيم الرابطة/ المفاهيم الفاصلة/المفاهيم العلائقية/ مفاهيم الأفكار الكبرى/مفاهيم ضمن شبكات... كما يستعرض المفاهيم المهيكلة لمادة التاريخ: كالزمن والمجال والمجتمع، وأيضا

المفاهيم المهيكلة لمادة الجغرافيا كالمورفولوجيا والتوطين والحركة، ثم مفاهيم التربية على المواطنة مثل مفهوم المواطنة، حيث يعتبر التدريس بالمفاهيم من المقاربات المجددة في مجال تدريسية المواد باعتبارها من آليات تعزيز الكفايات المستعرضة لدى الفاعلين، وإن كان في العمق تبني مقاربة التدريس بالمفاهيم قد تتعارض مع مقاربة التاريخ الحدثي الكرنولوجي.

وبما أن الدرس التاريخي درس مفاهيمي بامتياز، والدرس الجغرافي عبارة عن رؤية نماذجية نسقية تتجاوز رؤية الجغرافيا الاقليمية التجزيئية نحو معانقة أنساق جامعة تجعل من درس الجغرافيا درس قضايا مجالية كبرى، فإن من شأن الاهتمام بالمفاهيم بما هي إحالات عقلية وذهنية القدرة على تجديد رؤيتنا لدرس الاجتماعيات، وجعله مفتوحا على اشكالات جديدة ووضعيات مغايرة.(- مشيل فوكو، جينيالوجيا المعرفة والسلطة، المركز الثقافي العربي، ص 62-63.)

- القراءة النقدية للكتاب:

من بين القضايا الكبرى التي تتقاطع مع متن الكتاب على المستوى الابستمولوجي، والتي نلتقطها من إشارات صاحب جينيالوجيا المعرفة والسلطة مشيل فوكو في ما يخص بناء ذاكرة تاريخية وجغرافية، مؤسسة على فرضية الاشتغال بالمفهمة والاشكلة، قادرة على تحرير درس الاجتماعيات من الأسْر الأنتربولوجي[1]، بناء يوكل إليه تحقيق مهام الحس التاريخي والجغرافي وصياغة نقدية تركيبية:

1- نقد النظر إلى درس الاجتماعيات كذاكرةmémoire ، وبالتالي هدم الواقع وإعادة بنائه في براديغمات جديدة.

2- نقد النظر إلى درس الاجتماعيات كمسار منفصل ومتقطع، وبالتالي هدم فكرة الهوية الخالصة، والتخلص من ترسبات الذات والانتصار لها معرفيا.

3- نقد النظر إلى درس الاجتماعيات كمعرفة، وبالتالي هدم الحقيقة المطلقة.

من شأن الوعي بدرس الاجتماعيات بنوع من التحوير والانزياح تفتيت الموروث، وهدم التقليد حسب العروي[2]،(- عبد الله العروي، الحرية والتاريخ، العدد 6-7، 1999، ص5)، إذ لا قيمة لأي فعل معرفي كان، إذا لم يكن فعلا نقديا تجاه الذات والعالم، فعل بقدر ما ينتقد المقاربات الدوغمائية، بقدر ما ينتقد المقاربات الاحتوائية، ويسعى الى جعل المعرفة مرتكزها الأساس هي الأشكلة والمفهمة في أفق التركيب.

إننا في مواجهة مُثلث مُكون من ثلاث قوى معبئة، تتطلب التسلح بفكر نقدي مزدوج، لفهم أزمة الهوية وأزمة السلطة، لترسيخ سؤال الجدوى وقيمة التفكير وضرورة التاريخ، من أجل تعويض رهان القوة بقوة الرهان.

في غياب المثال لا يعود ثمة معنى ذاتي للفعل، على المُدرس أن يقطع مع خطابات النزعات الاسكاتولوجية التي تتغنى بالنهايات، يتعين عليه إعادة بناء نقدية للمثال، تخلصه من سجون المُطلقات، وتحرره من كل تطابق مع الواقع، عليه أن يقوم كما يقول الان باديو بفعل التثوير، بما هو تغيير يطال بنيات تفكرينا وأنماط عيشنا، يتعلق الأمر باستعادة عشق الأفكار، ومديح اليوتوبيا، والحق في الممكن وفي الحلم[3].

المُدرس كما طائر الفينيق، يحترق يوميا لكي تولد من رحم رماده ثورة معرفة، ومفاهيم تستجلب لتفكيك الواقع، يموت لكي ينعم الاخرون بنعيم الأفكار.

لا يمكن أجرأة درس الاجتماعيات من دون استحضار عميق لتحولات البنى العامة، ضمن سياق ماكرومعرفي، أضحى المُدرس مجرد أجير له ملف مطلبي، من دون أن تكون له قاعدة فكرية يرسو عليها، يناضل من أجلها، بالأمس، كان المُدرس يتسربل بتلاوين متعددة من الشعر والأدب والسياسة والفن وما إلى ذلك، المدرسة أفقدت المتعلمين الحق في الحلم، الحق في الخيال، الحلم بالفكرة، الحلم بالتغيير، الحلم بالإنسان كشعار استراتيجي من أجل رقيه ونهضته وأنسنته، لم تعد

المدرسة المغربية فضاء للحلم، بسبب استحكام المرجعية البراغماتية الليبرالية، التي تعتبر المدرسة ورشا للتشغيل.

مدرستنا الحالية التي تنعت ب "مدرسة النجاح" تعلم الحقد والكراهية، تلقن الجهل بالمجان كما يقول جاك أتالي، "كل مؤسسة تعيش صراعا من أجل البقاء فإنها تصبح مؤسسة تنتج البؤس" كما يقول نيتشه، مشروع مدرسة النجاح يشرعن الفشل الاجتماعي، إذ النجاح نجاح نخبوي، حيث الهاجس الأكبر هو الحصول على النقطة، تمجيد النقطة يصبح غاية وليس الإبداع والفكرة، يحرق التلميذ جواز سفره داخل المدرسة، يشعر بأنه منبوذ، لا يبني علاقة محبة مع ما يدرسه.

كل فشل دراسي هو بالضرورة منتج لليأس الاجتماعي، مُولد للهشاشة الاجتماعية، مدرستنا بالأمس كانت رافدا للتجويد والارتقاء الاجتماعي، اليوم لم تعد تنتج إمكانية الحق في الحلم، انسحبت من الفضاء العام، صارت جزيرة معزولة، فقدت جذورها التي تربطها بالمجتمع، أصبحت تنتج مواطنا يحمل قيم الكراهية والحقد والغش.(- عزيز لزرق، الدين والسياسة، الدعوة والثورة، دفاتر وجهات نظر، الطبعة الأولى، 2015،ص 77.)

درس الاجتماعيات الحقوقي ظل خطابا شعاراتيا لم يترسخ في البنيات الاجتماعية، لم يتم التقعير له في باقي البنيات الموازية،، التربية على حقوق الانسان تمرين يومي وبناء مستمر، يبدأ من البيت وينتقل إلى باقي الفضاءات، ينضج مع وجود جدال عمومي، وبنية حاضنة تقبل المعارضة والاحتجاج.

درس الاجتماعيات هو تجذير للتربية على المواطنة والقيم، فضاء رحب لترسيخ المواطن، وليس مجرد معارف ومتن مستعرض، درس يعتبر الحقوق مسكنا للإنسانية وليس مبنى يتساوق مع خطابات قد تغيب عنها الإرادة.

يجب أن يناضل درس الاجتماعيات يوميا من أجل عودة الثقافة إلى المدرسة، من أجل تحرير المدرسة من النزعة الداروينية المتوحشة، يجب أن يُوطن الوعي التاريخي والجغرافي كإواليات لبناء المشروع المجتمعي، درس ينتعش حيث يسود الجدال والنقد وفكر المغايرة.

استراتيجية النقد هي الرهان الأكبر لتجذير ديداكتيك الاجتماعيات، عبر المساءلة الدائمة، والتحليل المتعدد، عبر ممارسة التعليل والسجال والمناقشة، فالتاريخ مثلا قد يخسر وظيفته إذا لم يكن درسا للحياة وموطنا لاستقبال الحفاوة وكرم الضيافة.

بدوره تخلى مُدرس اليوم عن الأسئلة الكبرى، عن الانشغالات الحارقة، عن قضايا المعذبين والمهمشين، صار بلا بوصلة وأفق فكري وبلا تطلع، تحول التعليم إلى حرفة، إلى مورد رزق، لم يعد قضية انسانية، لم يعد غاية في حد ذاته، وربما هذا ما جعلنا نخسر الرهان الفكري والسياسي والمجتمعي لمجتمع لم يبلور بعد مشروعه المجتمعي.

مُدرس الاجتماعيات عليه أن يكون مُنقذا بالمعنى العميق للكلمة، عوض أن يرمي به جحيم الضحية أو جحيم الجلاد التي صنعها كيمياء المخيال الاجتماعي عنه، وضعية المصحح والمراقب والعدو الذي يرسب الأبناء، فهو إما جلاد وإما ضحية، وكلاهما صورتان مأساويتان لا تليقان بوضع المُدرس المنقذ والرسول.

صحيح أن الواقع التربوي سلطة قائمة في حد ذاته، قد تعلو فوق كل السلط الأخرى، تتعالى عن كل محاولة لنمذجة التعلمات في قالب موحد، واقع مُغلق من فرط واقعيته حسب جون بودريار، يسخر من نفسه، يتحول إلى سراب وهم جذري ، إلى استراتيجية افتراضية، من هنا تأتي مأساة المُدرسين في الإحاطة بعالم متغير ومتحول، في الإحاطة بعالم ما فوق الواقع، الذي حوّل حياة الانسانية من صورة نقلا عن صورة نقلا عن صورة.

المدرسة في عصر العولمة تتجاذبها رهانات صعبة، لم تعد المعرفة رغبة انسانية تمتح مجدها من إفراز نخبة تحمل على عاتقها تغيير الأفق الانساني (المعرفة كأنسنة للعالم)، بل أصبحت مهووسة بالصراع من أجل الهيمنة،(- نفسه، ص 114.)، ربط المعرفة بالمنفعة حولها إلى أداة لإشباع حاجات، لم تعد المدرسة وحدها موطنا للمعرفة والتعلم، أصبحت سلطتها مُصادرة من طرف الأغورا الميديائية الافتراضية، التي خلقت وعيا جديدا، صار يسحب البساط من سلطة المدرسين.

لربما أهمل التعليم المغربي أن يكون المغربي إنسانا، أهمل تكوين الانسان، تكوين العقل والوجدان، خلق تصالح مع

الحياة، خلق مناعة ذاتية داخلية من كل الانزلاقات التي تطفح على المشهد الانساني.

(جاك دريردا، الاستنزافات، لوحة عن عالم بدون ملامح، دار الجمل، 2005، ص 10.)

الهوية والذات والذاكرة والمواطنة بناءات مستمرة، وبما أن مهمة درس الاجتماعيات هي تفكيكية بالأساس، تسعى إلى فهم وتفكيك انطولوجيا الحاضر انطلاقا من الماضي، فإن درس الاجتماعيات عليه أن يخوض يوميا صراعا حيويا من أجل الوضوح، في عالم مليء بجروح العولمة، ضمن حاضر ليس على ما يرام حسب إفادة جاك دريدا[1]،كل معرفة هي بالأساس معرفة مركبة، ينبغي النظر إليها في كليتها.

على سبيل الختم:

الكتاب إغناء للمكتبة التربوية المغربية عموما، ولديداكتيك الاجتماعيات على الخصوص، إضافة مُجددة بنَفس نقدي لا يخلو من خلفية ابستمولوجية رصينة، ودُربة ميدانية مديدة من التجريب والاختبار، سفر دؤوب في رحاب درس الاجتماعيات في مختلف مراحل نموه، من رحم التخطيط إلى ولادة الأثر المكتوب والتقويم، بحث في طرائق التجديد والتحيين، وتفجير لأسئلة كبرى تظل على هامش النسيان.

صخب معرفي وعملي ينشد موقعة المادة ضمن الهندسة البيداغوجية العامة لقطاع التربية والتكوين، ضمن مشروع مجتمعي يرتكز على بناء وصناعة الإنسان المواطن، مواطن الغد، المتعدد الخلفيات والاستعدادات، ذو الخلفية التاريخية المتصالحة مع الذاكرة، ذو الارتباط المجالي.

الأكيد أن الارتقاء بدرس الاجتماعيات، والانتقال به نحو الحرفية يمر عبر تطوير كفايات مستعرضة قادرة على السير به في اتجاهات متعددة، من مرحلة التخطيط واعداد السيناريو الديداكتيكي، نحو مرحلة التنفيذ العملي، انتهاء بمرحلة التقويم، ولئن بدا الواقع يتسم بنوع من العناد والصلابة، وتختلف الوضعيات التربوية من فضاء لآخر، فإن ذلك لا يلغي بالمرة استحضار الفاعلية البشرية في عدم حتميتها، وفي جعل ميدان التربية والديداكتيك ميدانا للتجريب والممكن.

قد نساير النظريات البيداغوجية في القول أن بنية القسم بنية مركبة ومعقدة، تنفلت من كل محاولة تسييج ضمن براديغمات تربوية مُنمذجة، تتمرد على كل الإيقاعات والوصفات التجريبية، بحكم تعقد المتغيرات والتبادلات التي تتم داخل عناصر المثلث الديداكتيكي وحتى خارجه، إلا أن عملية الاستئناس بهذه المعطيات والنتف المنهجية واستثمارها كمنطلقات للتعامل الآني والاشكالي مع ميكروفيزياء الممارسة يبقى مطلبا حيويا لإقامة مصالحة مع مستجدات العقل التربوي وبناء درس إجتماعي نقدي ومفاهيمي منفتح باستمرار على حاجيات الواقع ومتطلباته.

كتاب درس الاجتماعيات من التخطيطي إلى التنفيذ رحلة تنقل في مسارات متشعبة ومتشابكة، تجربة درس معاش في الحياة، حياة مُؤطر تربوي سكنته الأسئلة الكبرى، وشغلته على مدار أكثر من عقدين، تفكير في المادة، سواء في بنيتها الداخلية، أو حتى بنيتها الخارجية، مخاض متطاحن بين عمق نظري يرتوي من معين المرجعيات الكبرى، ويبتغي التقعيد والتأصيل، وتطلع تطبيقي يحاول أن ينمذج الوضعيات التعليمية التعلمية في قالب اجرائي عملي، في مدار يظل ملتصقا بالواقع التربوي وهمومه، ومفجرا لجذوة السؤال كخيار استراتيجي لممارسة فعل الاجتماعيات.

التقديم:

لم يكن القرب الجغرافي بين المغرب وإسبانيا حافزا قويا لمد أواصر الصداقة والتقارب بين الجانبين نظرا للتنافر التاريخي وسياسة الحذر الدائم بينهما، حيث ترجع أصول تلك العداوة لما كان المسلمون بالأندلس، وما فتئ أثارها يتعلق بحروب الاسترداد الإسبانية. بالإضافة إلى أنه مع نهاية القرن 15م باشرت إسبانيا عملية إغلاق الواجهة المغربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط بتحريض من البرتغاليين المتواجدين بسبتة سنة 1415م، وذلك لدوافع إستراتيجية بالدرجة الأساس[1].

وما لبثت العلاقات المغربية-الإسبانية في جوانبها المختلفة تعرف تطورا وانكماشا؛ وهو ما تجسد خلال القرن التاسع عشر، بحكم التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي دخلت فيها أوروبا الغربية كانت على حساب الدول الفقيرة، من قبيل: المغرب. ولا يخفى على جميع الباحثين ونخص منهم ذوي السند التاريخي، مدى كثرة الآليات التي وظفتها الامبريالية الأوروبية لكسب رهان المغرب، والظفر بموقعه الاستراتيجي الهام وكذا بموارده الاقتصادية.

وعليه، اشتد الصراع بين الخارجية البريطانية والفرنسية والإسبانية على امتداد القرن التاسع عشر لكسب رهان المغرب وتوجيهه في الطرح الذي يخدم مصالح كل دولة على حدة، وهو ما تجسده بنود المعاهدات الثنائية التي رسمت الخطوط العريضة لسياسة المخزن الخارجية، حيث خصص فيها لمبدأ "الدولة المفضلة" حيزا كبيرا.

ومن المفيد الإشارة إلى مدى كثرة الطروحات التي وظفتها الدولة الأنفة للإفراد بالمغرب، بشكل أدى إلى دخولها في سياسة التسويات، كانت أهمها تلك التي أبرمت بين كل من بريطانيا وفرنسا وإسبانيا، اعتبارا لنتائجها البعيدة المدى، خاصة الشق المرتبط بالتقسيم الترابي والمصالح الاقتصادية، حيث جعلت من

[1]-Zaim Fouad ,**Le Maroc et son Espace Méditerranéen**, éditions Arabain ALHILAL, 1990 ,P.89 .

مبدأ "صيانة دولة السلطان"، الأساس القانوني الذي بنيت عليه بنودها للحيلولة دون انفراد فرنسا بالمغرب وحماية مصالح الدول الأخرى خاصة البريطانية، التي راهنت على أن يكون الحيز الشمالي المغربي بيد دولة ضعيفة، لأسباب سياسة وإستراتيجية والاقتصادية ترتبط في مجملها بحضورها بمستعمرة جبل طارق.

لازال تاريخ الحماية الفرنسية والوجود الإسباني بالمغرب في حاجة ماسة إلى المزيد من البحث والتنقيب، ذلك أن ما وجد من دراسات حول الموضوع لم تعمل على كشف جل حيثيات الوجود الاستعماري بالمغرب، حيث انصب الاهتمام أساسا على الجوانب السياسية والعسكرية في علاقة المستعمر بالعنصر المغربي، ومن هنا تأتي أهمية دراسة الموضوع من الناحية القانونية و وفق منهج تاريخي.

ومن تم شكل الجانب المذكور الموضوع الأساسي للدراسة، الذي استهدف كشف الصيغة القانونية للوجود الإسباني بالمغرب انطلاقا من المعاهدات والمواثيق التيأبرمت من أجل تقسيم التراب المغربي بين كل من فرنسا وإسبانيا. وعلاوة على ذلك شكل اتفاق 1904م الفرنسي-البريطاني المنطلق الأساسي لهذه الدراسة، اعتبارا لكونه رسم الخطوط العريضة للخريطة الاستعمارية داخل المغرب، وعليه بنيت بنود معاهدة الحماية واتفاق 27 نونبر 1912م.

تحاول كل حيثيات الدراسة تقديم الإجابة عن إشكالية الوجود الاستعماري الإسباني بالمغرب من الناحية القانونية انطلاقا من المواثيق الثنائية التي تناولت فيها الدبلوماسية الفرنسية والإسبانية والبريطانية قضية استعمار المغرب، وما يرتبط بها من قضايا تهم التقسيم الترابي وفق معايير تراعي كل أهداف الدول الأوروبية عامة والدول المذكورة تحديدا، وللحيلولة دون قيام المعارضة الخارجية وإخضاع المغرب للمنطق الاستعماري المحض.

وقد وجه الاهتمام في هذا السياق إلى كل من الاتفاق الفرنسي-البريطاني لسنة 1904م، ومعاهدة 30 مارس 1912م، واتفاق 27 نونبر 1912م، وذلك وفق منهج يراعي ضوابط الكتابة التاريخية مع الأخذ بالرؤية المقارنة للوقوف على حقيقة الوجود الاسباني بالمغرب، الذي لطالما تغافلت عليه بعض الدراسات التاريخية قائمة بالخلط المفاهيمي في التناول والدراسة لكل ما يرتبط بالوجود الاسباني بالمغرب من مقاومة وغيرها من الأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

أولا:السياق التاريخي لفرض الحماية الفرنسية والإسبانية!على المغرب.

غالبا ما نصت الكتابة التاريخية ذات الطابع المنهجي على ضرورة رصد السياق التاريخي لأي موضوع أو قضية تاريخية أخذت كنموذج للدراسة والتحليل. ومن هذا المنطلق ارتأينا وضع موضوع **"الشرعية القانونية للوجود الإسباني بالمغرب"** في إطاره التاريخي العام والخاص بغية وضع القارئ في الصورة العامة للموضوع.

وعليه، شكل المغرب بحكم موقعه الاستراتيجي وما يتوفر عليه من موارد طبيعية وبشرية محط نزاع الامبريالية الأوربية، التي اتضحت معالمها وملامحها غداة **"القرن التاسع عشر الممتد"**[1].

ولا يخفى على جميع المتخصصين في الدراسات التاريخية تلك المناورات المختلفة الأوجه -بين ما هو عسكري ودبلوماسي- التي وظفتها الدول الأوربية لنيل الامتيازات القانونية في الإيالة الشريفة، ونخص منها كل من بريطانيا العظمى وفرنسا وإسبانيا التي تمتعت بمبدأ **"الدولة المفضلة"** في سياق المعاهدات التي أبرمتها مع المخزن المغربي[2].

وقد أدت المناورات السياسية البريطانية والفرنسية والإسبانية إلى جانب الدول الأخرى التي التحقت بمسلسل السياسة

2- نالت إشكالية التحقيب حيزا هاما من الدراسة في صفوف المؤرخين المتخصصين في التاريخ المعاصر؛ خاصة الجانب المرتبط بالقرن التاسع عشر، فكانت النتيجة الخروج بمجموعة من الخلاصات الهامة أهمها تلك التي تم طرحها في المؤلف الجماعي الذي أشرف عليه المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، لكونها راعت الخصوصيات العامة والتحولات الداخلية والخارجية، وما واكبها من تغيراتشكلت منعطفا تاريخيا دخل بموجبه المغرب في تحولات جذرية كان لها تأثير على مختلف البنيات الداخلية. ومن تم فمفهوم **"القرن التاسع عشر الممتد"** يحيل على النظرة الجديدة للتحقيب الخاص بالمرحلة التاريخية، شكلت سنة 1790م المنطلق، وذلك لعدة اعتبارات تم ذكرها، بينما اعتبرت سنة 1912م نهاية لهذه الفترة لكونها تؤرخ لنهاية فترة ما قبل الاستعمار. للتعمق أكثر، انظر: مؤلف جماعي، **تاريخ المغرب تحيين وتركيب**، إشراف وتقديم محمد القبلي، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب،الطبعة الأولى، الرباط، 2011، ص.ص. 445 - 446.

3- أفا عمر، **التجارة المغربية في القرن التاسع عشر البنيات والتحولات 1830 - 1912م**، دار الأمان، الطبعة الأولى، الرباط، 2006، ص. 32 - 33- 34.

الاستعمارية إلى إضعاف المخزن المغربي، وهو ضعف اتضحت معالمه في أواخر القرن التاسع عشر بشكل أفضى إلى تدويل القضية المغربية، وهو أمر تبين بشكل جلي بانعقاد مؤتمر مدريد سنة 1880م[1].

ونظرا لكون فرنسا كانت تطمح إلى الانفراد بالمغرب في سياق استكمال مشروع بناء الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية من جهة، وتبعا لمصالح الدول الأوربية الأخرى في المغرب من جهة ثانية، طرحت المسألة المغربية على طاولة النقاش والتفاوض.

ويعد الاتفاق الودي الفرنسي الايطالي لسنة 1902م منطلقا لهذه التسويات، التي اعترفت فيه إيطاليا لفرنسا بحق الانفراد بالمغرب مقابل الاعتراف لها بليبيا. ويبقى أخطر اتفاق سري هو الذي وقع بين بريطانيا وفرنسا سنة 1904م لتصفية الخلافات الاستعمارية بين الدولتين[2]، إذ تخلت بريطانيا عن حماية استقلال المغرب الذي تمسكت به خلال القرن التاسع عشر خدمة لمصالحها الاقتصادية مقابل أن تأخذ مصر، ولرغبتها الكبيرة في الحفاظ على سياسة الباب المفتوح والإبقاء على امتيازاتها التجارية، عملت على عدم القبول بخضوع المغرب لحماية واحدة تحت ذريعة صيانة دولة السلطان بإقحام إسبانيا في المسألة المغربية، وهو ما نصت علية **المادة الثالثة** من المواد السرية الملحقة بالاتفاق، حيث تعمدت الدولتان بأن يكون شمال المغرب من نصيب إسبانيا[3]، وهكذا تتضح معالم السياسة البريطانية الرامية إلى جعل سواحل المغرب الشمالي بيد دولة ضعيفة لإبقاء على مصالحها التجارية في المنطقة وتزويد حاميتها في جبل طارق بالمواد الأساسية والأولية، ولرغبة إسبانيا في الحفاظ على مكانتها في السياسة الأوروبية كدولة استعمارية قبلت الصفقة ووقعت مع فرنسا اتفاق 7 أكتوبر 1904م.

ومن هذا المنطلق تكون فرنسا قد فتحت الطريق لاستعمار المغرب بتوقيعها هذا الاتفاق مع بريطانيا، لكن الأوضاع الداخلية في المغرب حالت دون ذلك، إذ ما أن سمع المغاربة بتوقيع الاتفاق الذي اعتبروه خيانة من طرف بريطانيا حتى بادروا إلى التصدي للعنصر الأجنبي، بشكل أدى إلى تأزم العلاقات بين مجموعة من الدول[4]. إضافة إلى دخول دول جديدة في المسرح السياسي المغربي ونذكر على وجه الخصوص ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية، التي عارضت المصالح الفرنسية في المغرب لتحقيق أهدافها الاستعمارية ذات الشق السياسي والاقتصادي.

وفضلا عن ذلك وظفت الكيدورسي (الخارجية الفرنسية) جميع آلياتها العسكرية والدبلوماسية والمالية لاستعمار المغرب، اتضحت معالم ذلك بعد تنحية بريطانيا. إذ عمل كل من سان روني طيلاندي (S. R. Taillandier)وثيوفيلديلكاسي (Théophile Delcassé) فيما بعد على دفع المخزن العزيزي للقبول بالإصلاحات ونيل القروض كوسيلة للتغلغل السلمي، لكن رفض المخزن وتشبته بضرورة عقد مؤتمر دولي لمناقشة قضية الإصلاحات، ومن بين الفرضيات التي تطرح في هذا السياق هو كون ألمانيا هي من قامت بدفع المخزن إلى طرح قضية المؤتمر[5]، لكونها كانت تطمح إلى اعتماد الورقة المغربية للعب في مسرح سياسة التوازنات الدولية وهي سياسة برزت مع زيارة الإمبراطور غليوم الثاني(Wilhem II) طنجة سنة 1905م.

ومما تجذر الإشارة إليه، أن انعقاد المؤتمر أفضى إلى ترسيخ الوجود الفرنسي والإسباني في المغرب، بشكل شكل نصرا للدبلوماسية الفرنسية بقيادة ديلكاسي على نظيرتها المغربية التي مثلها كل من محمد المقري والحاج محمد طريس، حيث نالت فرنسا الحق في تنظيم البوليس لحماية الأجانب في المغرب، وكذلك الحق في الإشراف على مالية المغرب باعتبارها الوسيلة الكفيلة لاسترجاع القروض التي اقترضها منها المخزن.

وفضلا عن ذلك، أسهمت الثورات الداخلية في تعجيل استعمار المغرب وفرض الوصاية الدولية عليه. وتبقى من بين أهم هذه

---

[1]- بن منصور عبد الوهاب، **مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب من نشأتها إلى مؤتمر مدريد سنة 1880م**، المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، الرباط، 1985، ص. 77.

[2]- بن الصغير خالد، **بريطانيا وإشكالية الإصلاح في المغرب 1886-1904م**، دار أبي رقراق، الطبعة الأولى، الرباط، 2013، ص. 674-676.

[3] - الخديمي علال، **التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب 1894-1910م حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية**، إفريقيا الشرق، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، 1994، ص. 47.

[4] - نفسه، ص. 48.

[5] - الخديمي علال، **التدخل الأجنبي...**،م. س، ص. 55.

التمردات ثورة بوحمارة التي امتدت من سنة 1902م إلى 1909م، وأبانت هذه الأخيرة عن ضعف المخزن المغربي عسكريا وماليا وسهلت التغلغل السلمي الفرنسي والاسباني داخل التراب المغربي سياسيا واقتصاديا[1].

وتعتبر حركة الريسوني من بين أهم التمردات التي عرفتها ظرفية أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، اعتبارا لمدى الأهمية التي حظيت بها من طرف المخزن المغربي والعنصر الخارجي على حد سواء. بحكم الظرفية التي تموضعت فيها المتميزة بشدة التكالب الاستعماري خصوصا الفرنسي والإسباني حول **"المسألة المغربية"**. فأحمد الريسوني أراد استغلال أوضاع المخزن المتردية للانفراد بسلطة الحيز الجغرافي الشمالي من المغرب، فوظف في ذلك آلية العنف الذي اشتدت وطأته على السياسة المخزنية وأفضت إلى عجز مالية الدولة، نظرا لعمله على اختطاف الرعايا الأجانب[2]، وتأزيم علاقة المخزن الذي كان يدافع عن استقلال البلاد ويرغب في القفز عن مقررات مؤتمر الجزيرة الخضراء خصوصا **"المسألة الأمنية"**.

وللإشارة، فإن اشتداد التكالب الاستعماري حول المغرب وفرض الحماية الفرنسية عليه في 30 مارس 1912م، جعل الريسوني يفكر في طريقة الحفاظ على الحيز الجغرافي الشمالي، فانخرط في مسلسل السياسة الاستعمارية الإسبانية التي وظفته في استعمار المنطقة وما لبثت أن تخلصت منه درء للمخاطر.

فغدا في بحث السبل الكفيلة للحماية وكان ذلك نتيجة لحصوله وأهله على الحماية الألمانية، وانتقاله إلى زرع الفتنة وتحريض القبائل على الإسبان. وللحنكة السياسية التي ميزت الإدارة الإسبانية عملت على إدراجه في سياسة القواد الكبار وإغداق المال عليه كوسيلة لضبط المجال.

كل ذلك أدى إلى إضعاف المخزن المغربي بقيادة المولى عبد الحفيظ الذي اعترف بالحقوق التي أقرتها المواثيق الدولية بشأن المغرب، وكذلك بصلاحيات فرنسا للإشراف على سياسة الإصلاحات، اعتبارا لكونها الدولة الكفيلة بحكم الجوار للإطلاع بهذا الدور، وكل ذلك من أجل الاعتراف له من طرف المجتمع الدولي بمشروعية توليه العرش.

وعلى العموم يتبين مما تقدم أن هناك مجموعة من العوامل الخارجية والداخلية التي مهدت الطريق لفرض الحماية على المغرب في 30 مارس 1912م، التي جاءت بعد تسوية الخلاف الفرنسي-الألماني سنة 1911[3].وبناء على ذلك، يبقى السؤال المطروح: هل التزمت فرنسا في سياق إبرامها الحماية بجميع القوانين والقرارات التي خرج بها اتفاق 1904م ومؤتمر الجزيرة الخضراء 1906م خاصة فيما يتعلق بتقسيم التراب المغربي؟

ثانيا:الحضور الإسباني في معاهدة الحماية الفرنسية 30 مارس 1912م.

قبل الخوض في تحليل الإشكالية المطروحة لابد من تقديم تعريف للحماية، التي تعني رابط تعاقدي يتنازل البلد المحمي بمقتضاه عن جزء من سيادته للدولة الحامية للقيام بدور المراقبة[4].

وقد عرف إبراهيم بوطالب نظام الحماية بكونها:**"معاهدة بين دولتين غير متكافئتين تستعمر بمقتضاها الدولة القوية الدولة الضعيفة وتفرض عليها معمريها ورساميلها وأساليبها الاقتصادية والإدارية والثقافية فتلحقها بأسواقها وبمجال**

---

[1]- استغلت كل من فرنسا واسبانيا وبعض الدول الأوروبية الأخرى ثورة بوحمارة لنيل الامتيازات خاصة على المستوى الاقتصادي، ونذكر كمثال على ذلك منح بوحمارة رخص الاستغلال المعدني في الريف سنة 1907م لشركتين اسبانيتين هما:

-compania Espanola de minas de Rif.
- companiadelnortedeafrica.

أنظر،التمسمانيخلوق عبد العزيز، **"وثائق عن الفتان الدعي بوحمارة"**، ضمن: **مجلة دار النيابة**، العدد 4، 1984، ص. 35-36.

[2]- من بين الرعايا الأجانب الذين قام الريسوني باختطافهم ، نذكر: الإنجليزي ولتر هاريس(Walter Harris) 16 يونيو 1903 والأمريكي بير ديكاريس(Perdicaris)وصهره فارلي(Varley) 18 ماي 1904 والإنجليزي هاري ماكلين (Harry Maclean)سنة 1907. أنظر، التمسماني خلوق عبد العزيز، **"الحركة الريسونية من خلال الصحافة العربية والأجنبية من خلال جريدة النهضة التونسية"**، ضمن: **مجلة دار النيابة**، العدد 21، 1989م، ص. 78.

[3] - هويسنطن وليام، **الحماية الفرنسية بالمغرب بين الأوج والأفول تحت قيادة الجنرال نوكيس 1936-1943م**، تعريب إبراهيم بوطالب، منشورات كلية الآداب (جامعة محمد الخامس)، الطبعة الأولى،الرباط، 2001، ص. 201-202.

[4]- احساين عبد الحميد، **"مفهوم الحماية بين النظرية والتطبيق ملاحظات مستخلصة من تجربة الحماية الفرنسية بالمغرب"**، ضمن : **ندوة الحماية المفاهيم و الإشكاليات القانونية**، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي،الرباط، 2016م، ص. 19-20.

نفوذها في العالم، فهي حيلة قانونية تستغل بها خيرات الدولة المحمية اعتمادا على أموالها وسواعد أبنائها"[1].

ويبقى التعريف الأكثر أهمية هو الذي قدمه الجنرال ليوطي (Lyautey)للحماية حيث اعتبرها **"بلد يحتفظ بمؤسساته وحكومته وإدارته بنفسه مع أجهزته الخاصة تحت إشراف بسيط لدولة أوروبية تحل محله في التمثيل الخارجي وتتولى بصورة عامة إدارة جيشه وماليته وتقوده في تطويره الاقتصادي"**[2].

دأب بعض الباحثين على الحديث عن الاستعمار الفرنسي أكثر من الاستعمار الإسباني، وعن طريقة نيله جزءا هاما من المجال المغربي، أكثر من التساؤل عن الشرعية القانونية التي أفضت إلى استعمار هذا الوطن، حتى أن الجواب عن سؤال كيف احتل المغرب وقسمت أجزاءه؟ يبقى مجهول لغير المهتمين بالتاريخ المعاصر.هذه الحيثيات تحديدا هي التي يتطرق إليها بعض الباحثين في العلوم السياسية والقانونية، وبالأخص فيما يتعلق بمسألة مشروعية دخول الاستعمار إلى المغرب.

صدرت وثيقة الحماية لأول مرة في العدد الأول للجريدة الرسمية باللغة الفرنسية سنة 1913م؛ فمن حيث الشكل يمكن القول، بأن الوثيقة هي من أوجز الوثائق المتداولة في المجال السياسي أو الدبلوماسي. فهي تقع في صفحة واحدة، وتضم تسعة فصول، تم تخصيص كل فصل لخاصية معينة. أما الاسم الذي اختير لهذه الوثيقة التي وقعت بفاس في 30 مارس 1912م فهو كالتالي **"معاهدة تنظيم الحماية الفرنسية للمملكة الشريفة"**. فباستثناء بعض الألقاب التي يتصف بها السلطان عبد الحفيظ من قبيل **"جلالته"**و**"الشريف"**، فإن الوثيقة تخلو من عبارات التبجيل والمديح، ويعود ذلك إلى أنها كتبت أصلا من قبل السلطات الفرنسية، وتم تمريرها للجانب المغربي ليس بهدف إبداء الرأي وإنما للموافقة والتوقيع.

من حيث المضمون، تم التمهيد لبنود الوثيقة بالتأكيد على أن حكومة الجمهورية الفرنسية وحكومة صاحب الجلالة السلطان الشريف قد اتفقتا على تطبيق نظام جديد لضمان الاستقرار الداخلي والأمن العام، وذلك لإدخال الإصلاحات التي ستمكن المغرب من إنجاح تنميته الاقتصادية، حيث حاول الفرنسيون إظهار الأمر وكأنه مجرد تعاون بين حكومتين تسعيان لتوفير الأمن والرخاء الاقتصادي بعيدا عن أي تصور للإكراه أو الإرغام، أي الإيهام بأن المسألة لا تتعلق باستعمار عسكري، لكن الأمر انكشف بعد الإطلاع على بنود الوثيقة وتحليلها تحليلا تاريخيا وسياسيا وقانونيا.

فرغم أن البند الأول من الوثيقة يؤكد على عنصر الاتفاق بدل الإكراه وتحديد مضامين التعاقد، فإن البند الثاني جاء ليوضح بأن الأمر يتعلق باستعمار عسكري لا يمكن أن يخطئه التوصيف مثلا جلالة السلطان يساعد على الاحتلالات العسكرية بالإيالة المغربية. فهنا الحديث واضح، بأن السلطان كف يده عن كل السلطات التنفيذية مقابل تحويل صلاحياته للعسكر الفرنسي. بل عليه أيضا مساعدة الفرنسيين على بسط احتلالهم للأقاليم المغربية ويزداد الأمر وضوحا مع فصول المعاهدة خصوصا الفصل الرابع والخامس والسادس[3].

والذي ينبغي الإشارة إليه في هذا الإطار هو اختلاف الباحثين أثناء تعرضهم لجوانب من تاريخ الوجود الفرنسي والإسباني في المغرب من ناحية المفاهيم، الذي يعود بصفة أساسية إلى عدم قراءة بنود كل من معاهدة الحماية واتفاق 27 نوفمبر 1912م. فمن المعلوم أن فرنسا قد منحت لإسبانيا حماية من الدرجة الثانية تحت ما يعرف **"بمنطقة نفوذ"** وليس بالحماية، وهنا تأتي أهمية قراءة الوثائق التي أسست للوجود الاستعماري الاسباني بالمغرب، حيث لما كانت فرنسا هي رأس الحربة بالنسبة لاستعمار المغرب، فإنها اضطرت على مضض إلى التخلي لإسبانيا عن بعض مناطق النفوذ[4].

---

[1] ـ بوطالب إبراهيم، **"مادة الحماية"**، في: **معلمة المغرب**،الجزء 11، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1989، ص. 3568.

[2] ـ بوزويتة سمير، **"الشرعية القانونية لمعاهدة الحماية الفرنسية"**، ضمن: **ندوة الحماية المفاهيم والإشكاليات القانونية**، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط،2016، ص. 53.

[3] ـ انظر معاهدة الحماية في:مؤلف جماعي،**تاريخ المغرب تحيين وتركيب**، إشراف وتقديم القبلي محمد، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الطبعة الأولى، الرباط، 2011م، ص. 606 -607.

[4]ـ نفسه، ص. 524.

ولا يخفى على جميع المؤرخين المتخصصين في تاريخ المغرب المعاصر، مدى الضعف الذي آل بإسبانيا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، مما جعلها لعبة في يد القوى الاستعمارية المهتمة "بالمسألة المغربية" خصوصا بريطانيا التي راهنت على الوجود الإسباني في شمال المغرب عوض بلجيكا كما نص على ذلك اتفاق 1904م، الذي ألزم فرنسا بقبول إسبانيا كشريك استعماري في المغرب مع التنازل لها عن مناطق معينة لممارسة سيطرتها ونفوذها[1]. وهو ما حاولت فرنسا في معاهدة الحماية الاعتراف به مع الأخذ بعين الاعتبار الحقوق التاريخية لإسبانيا في المغرب[2].

وبعد قراءتنا لبنود معاهدة الحماية الفرنسية يتضح بشكل جلي أن الحضور الإسباني ضئيل، مما يؤكد بأن المعاهدة أحادية الجانب، حيث لا نجد ذكر اسبانيا إلا في الفصل الأول الذي أقر بأن" دولة الجمهورية تتفاوض مع الدولة الاصبنيولية في شأن المصالح الناشئة لهذه الدولة من حالتها الجغرافية ومستعمراتها الأرضية الكائنة بالساحل المغربي".

وعليه، فالوضع القانوني الاسباني في المغرب استمد أصلا من معاهدة الحماية نفسها حيث خولت المادة الأولى منها لفرنسا صلاحية مفاوضة الدولة الإسبانية لتحديد الدور المنوط بها.

ثالثا:اتفاق 27 نوفمبر1912م والتأسيس القانوني للحضور الإسباني في المغرب.

لقد تم الاعتراف بمنطقة النفوذ لإسبانيا بموجب اتفاقية 3 أكتوبر 1904م التي وقعت بينها وبين فرنسا، وذلك رغبة من بريطانيا في الحفاظ على مصالحها في جبل طارق، فوجدت في إسبانيا خير من يقوم بدور الكلب الحارس لمصالحها، ثم بعد ذلك في اتفاقية 27 نوفمبر 1912م التي حدد فصلها الثاني المنطقة المخصصة لإسبانيا وشروط ممارسة الحقوق الإسبانية في هذه المنطقة[3].

ـ منطقة النفوذ: وهي قسمان المنطقة الخليفية في شمال المغرب ومنطقة طرفاية في جنوبه.

ـ مناطق السيادة: وهي تلك التي كانت تحتلها إسبانيا في المغرب قبل الحماية؛ وتشمل سبتة ومليلية وجزر النكور وكبدانة وبادس، وانضافت لاحقا منطقة سيدي إفني.

ـ المستعمرات: وتشمل المنطقة التي تمتد أساسا من الساقية الحمراء إلى وادي الذهب[4].

ومن تم نخلص أن إسبانيا لم تحصل بموجب هذه الاتفاقية إلا على الفتات والمناطق الفقيرة على جميع المستويات، بالمقارنة مع الغنيمة الضخمة التي نالتها فرنسا، حيث أن هذه الأخيرة لن تقبل بسهولة اقتسام المغرب مع جارته إسبانيا. واعتبرت نفسها هي صاحبة الحق في حمايته بتفويض شرعي وقانوني. كما أنها كانت تراقب عن كثب كل التطورات داخل المنطقة الاسبانية، وعلى أبهة تامة للتدخل وضم المنطقة في حالة عجز إسبانيا عن فرض سلطتها أو تخليها عنها[5].

يبدو من خلال بنود معاهدة الحماية وبنود الاتفاق الإسباني الفرنسي 27 نوفمبر 1912م مدى الصراع الإسباني الفرنسي حول مفهوم الحماية، فإسبانيا كانت ترغب في الحصول على التساوي مع وضع فرنسا، غير أن هذه الأخيرة لا تريد أن تعترف لها بذلك؛ وهناك ما يؤكد ذلك من خلال ما جاء في رسالة احتجاجية قدمها سفير فرنسا بمدريد يوم 23 أبريل 1914م الذي يقول "**إن اتفاق 27 نوفمبر يعترف فقط بمنطقة نفوذ، لأن الحماية تعني العلاقات بين دولتين الواحدة تأخذ من الأخرى عن طريق مراقبة علاقاتها الخارجية، والحماية تشمل مجموع البلاد وليس جزءا منها، ففرنسا هي التي وضعت المغرب تحت حمايتها بموجب معاهدة فاس والمقيم حسب البند الخامس هو الوسيط الوحيد بين السلطان**

---

[1] ـ مؤلف جماعي، **" تاريخ المغرب تحيين وتركيب"**، مرجع سابق، ص.527.

[2] ـ أحواش محمد، **"أنظمة الاستعمار الاسباني في المغرب بين الخصوصية والتنوع، دراسة مقارنة"**، ضمن: **مجلة المندوبية السامية للقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير**، العدد 15،الرباط، 2010، ص. 40-41.

[3] ـ التمسماني خلوق عبد العزيز ، **الغزو الاستعماري الإسباني لبلاد جبالة والمقاومة الشعبية من 1912 إلى 1927**، ضمن: **مجلة دار النيابة**، العدد 2، 1984م، ص. 28.

[4] ـ مؤلف جماعي،**تاريخ المغرب تحيين وتركيب**، مرجع سابق، ص. 527-528.

[5] ـ بو هادي بوبكر، **"أهمية الأرشيف الإسباني والفرنسي لدراسة تاريخ الحماية الإسبانية بالمغرب"**، ضمن: **مجلة هيسبريس تمودا**، العدد 39، الجزء 1، منشورات كلية الآداب، الرباط،2002م، ص. 137.

والممثلين الأجانب...فإسبانيا ليس لها على هذا الأساس حق الحماية...لأن تقسيم المغرب إلى مناطق حماية مختلفة سيقسمه إلى ثلاث دول منفصلة، وهذا ضد مبدأ الوحدة الترابية للمغرب تحت سيادة السلطان، فحسب العبارات الواردة في اتفاق 27 نوفمبر 1912م لاسيما في بنوده 1-5-10-11-16-17-18-22، فحق إسبانيا هو منطقة نفوذ لذلك فتغيير هذا الاسم باسم الحماية سيؤدي بفرنسا إلى إبداء تحفظات ترغب في عدم إظهارها..."[1].

بالمقابل، كانت إسبانيا تريد أن تخلق اختصاصات مطابقة ومشابهة لاختصاصات السلطانية الدينية والسياسية بالمنطقة الشمالية، غير أن فرنسا كانت تعارضها في هذا الطرح حيث كانت تحذرها من ذلك، فالخليفة بمنطقة الحماية الإسبانية هو ممثل للسلطان الذي مكنه من تفويض يمارس بموجبه سلطاته على جزء من مملكته، وفي هذا الصدد نورد ما جاء في مذكرة صادرة عن رئاسة الحكومة الفرنسية "**إن الحكومة الفرنسية لم تكن لتهتم (بهذا الأمر) لولا ما أصبح يروج في مناقشات الكورطيس خلال هذه السنة حيث صرح بعض النواب بأن السلطة المدنية والدينية للسلطان يجب أن يمارسها الخليفة بالمنطقة الإسبانية، بل إن رئيس الكورطيس مورا(Maura) صرح بأن السلطان ليست له أية سلطة روحية أو سياسية بتلك المنطقة...كما أن الجنرال برنكر خاطب الخليفة عند عودته إلى تطوان في شهر أكتوبر بالعاهل...إن حكومة يمكنها أن تستنتج من كل هذا أن الحكومة الملكية تريد من الآن أن تعطي بعض التفسيرات لمعاهدة 1912م فيما يخص خليفة السلطان بالمنطقة الإسبانية وهي تفسيرات ليست فقط منافية لمعاهدة 1912م بل تمس بمصلحة إسبانيا والمغرب...**"[2].

وتماشيا مع هذا الموقف فقد رفضت فرنسا كذلك إحداث مخزن خليفي على هيئة المخزن السلطاني، لأنها اعتبرت ذلك من حقوق السلطان التي لا يمكن تفويتها، كما أن التفويض السلطاني الذي يمارس بموجبه الخليفة سلطاته بمنطقة نفوذه لا يتضمن ذلك.

ويتضح من خلال بنود الاتفاق كون إسبانيا قد عملت جاهدة على إضفاء طابع الحماية على استعمارها للمنطقة الشمالية المغربية، وذلك بإحداث آليات ومؤسسات واتخاذ مبادرات تثبت حرية تصرفها بدءا من استعمال كلمة حماية بدل منطقة نفوذ، وإحداث مخزن خليفي يضاهي في أبهته المخزن السلطاني، وإصدار الطوابع البريدية التي تحمل صورة الخليفة تحت المظلة كرمز لسيادة، وإصدار الظهائر الخليفية، وانتهاء بتغيير الحقوق الجمركية وإصدار الضرائب دون إشعار فرنسا كما تنص على ذلك بنود اتفاق 27 نونبر 1912م. هذا إضافة إلى معاكستها السياسة الفرنسية بالمغرب وخلق المتاعب لها.

خلاصات:

لقد انتهينا بعد تحليلنا لموضوع وإشكالية الحضور القانوني لإسبانيا بالمغرب، انطلاقا مما سطر في المواثيق التي أسست للوجود الفرنسي والإسباني، ونظمت العلاقة بينهما إلى ثلة من الخلاصات والاستنتاجات نوردها كالتالي:

- كون الكتابات التاريخية التي اتخذت من الحماية الإسبانية موضوعا لها، لم تعطي الاهتمام الكافي للجانب القانوني ولم تتناوله وفق منهج تاريخي يتخذ من اتفاق 7 أكتوبر 1904م – الذي وقع بين اسبانيا وفرنسا وكان بمثابة الأرضية التي ستبن عليها اتفاقية 27 نوفمبر 1912م- كمنطلق لدراسة الموضوع.
- يتضح من خلال قراءة بنود معاهدة الحماية (30 مارس 1912م) بكونها أحادية الجانب، ومن تم يبدو لنا أنه لا يجوز إطلاق لفظة "الحماية" لنعت الاستعمار الإسباني بالمغرب، وهو خطأ دأبت الكتابات التاريخية المغربية والمقرات الدراسية بغير وعي على ارتكابه. ومن هنا تتضح أهمية قراءة الوجود الإسباني بالمغرب من الناحية القانونية.
- يتبين بعد الإطلاع على بنود الاتفاق الفرنسي الإسباني 27 نوفمبر 1912م عدم رضا إسبانيا بالمقررات القانونية التي سطرتها المواثيق التي همت تقسيم المغرب، حيث اعتبرت ما حصلت عليه ظلما نظرا لحقوقها التاريخية وامتيازاتها التي راهنة عليها عبر مسارها التاريخي العلائقي مع المغرب، ومن هنا حاولت جاهدة إضفاء طابع الحماية على وجودها، وذلك باتخاذ تدابير تفضي إلى قطع الصلات مع منطقة الحماية الفرنسية.
- بالرغم من جوانب الصراع التي طبعت تاريخ الحماية الفرنسية والوجود الإسباني بالمغرب، فإن هذا لا ينفي تقارب سياسة الدولتين، الذي اتضحت معالمه في عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، خصوصا في ما يتعلق بمواجهة النشاط الوطني والقضاء على تجربة إنشاء الدولة الوطنية.

---

[1]- بوهادي بوبكر ،مرجع سابق، ص. 139.

[2] - نفسه، ص. 140

مقدمة:

تتجه الدراسات التاريخية الحديثة المختصة بالفترة الوسيطية للغرب الإسلامي إلى ايستوغرافيا تاريخية مختلفة منهجا ومضمونا عن المصادر التاريخية الكلاسيكية التي اختصت في التاريخ السياسي الذي أشبع بحثا،من هنا كان لزاما إنعاش البحث التاريخي وذلك بتوجه الباحثين إلى مصادر كانت تبدوا لأول وهلة أن ليس لها دخل في التاريخ، غير أن مقولة شمولية التاريخ ورصده لكافة النشاط الإنساني في سائر مناحي الحياة سمحت لهذا الصنف من الايستوغرافيا من الدخول بقوة في حيز البحث وحولت رأسا على عقب مجال البحث التاريخي من شقه السياسي إلى شقيه الاقتصادي والاجتماعي بفضل ما حوته من مادة.إننا نعني بذلك النوازل الفقهية التي عبرت بصدق عن قضايا وتفاصيل وقعت في الغرب الإسلامي والأحلى من ذلك أنها طرحت قضايا جديدة في جوانب لفها الغموض,والنوازل الفقهية باعتبار أن لها خصوصية في الطرح لها مزية أخرى تجعل الباحث يتخلى عن إحدى قواعد المنهج التاريخي إلا وهو النقد والتثبت من صحة المعلومة من التحيز ذلك ان هذه الموسوعات الفقهية لم يقصد من كتابتها أنها للتاريخ وإنما كانت أجوبة لسائليها وبالتالي مثلت بصدق لسان حال المجتمع, ومن بين الموسوعات الفقهية التي تعد بحق معلمة في التراث الفقهي نذكر نوازل الونشريسي الموسومة ب" المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والمغرب" الذي جمع فيه فتاوى المتقدمين منهم والمتأخرين كما يقول في مقدمة الكتاب"جمعت فيه من أجوبة متاخريهم العصريين ومتقدميهم مايعسر الوقوف على أكثره في أماكنه واستخراجه من مكامنه"[1].أورد الونشريسي في موسوعته هذه جوانب عديدة منها جانب العبادات وبصفة اخص مراسيم الجنائز كونها حيز يستلزم تطبيق الشرع فيه,غير انه باطلاعنا على نوازل الجنائز رصدنا أمورا وقعت لا تمت إلى الشرع بصلة أو بعبارة أوضح رصدنا بدعا وهوماظهر من خلال أجوبة الفقهاء في الزجر عنها مما يبين معاناة المسلمين في الغرب الإسلامي من ضبابية في التعامل مع مراسيم الجنازة, وبناءا على هذه الملاحظات رأينا أن نقوم بدراسة حول المراسيم الجنائزية في الغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي تحذونا الرغبة في الإجابة عن عن بعض الإشكاليات التي أثارتها الملاحظات

[1]- الونشريسي،**المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والمغرب**، ج1، تحقيق محمد عثمان،عالم المعرفة للنشر والتوزيع،الجزائر،2011 ،ص145.

السابقة وعليه مامدى سيطرة البدع على ذهنيات الناس في الغرب الإسلامي؟وهل كانت مراسيم الجنائز كلها بدع أم مزيج بين المبتدع والمباح؟سنحاول إماطة اللثام عن هذا بتقسيم الموضوع إلى ثلاث عناصر مبتدؤها بالمفهوم اللغوي والاصطلاحي للبدعة ثم رصد للمراسيم الجنائزية المباحة شرعا والعنصر الأخير حول المراسيم الجنائزية المبتدعة وذيلنا البحث بمخططات بيانية.

مفهوم البدعة:

لغة: الحدث في الدين بعد الإكمال او مااستحدث بعد النبي صلى الله عليه وسلم من الأهواء والاعمال[1]و يقال ابتدع فلان بدعة يعني ابتدأ طريقة لم يسبقه إليها سابق وهذا أمر بديع يقال في الشيء المستحسن الذي لامثال له في الحسن فكأنه لم يتقدمه ماهو مثله ولا يشبهه ومن هذا المعنى سميت البدعة بدعة فاستخراجها للسلوك عليها هو الابتداع وهيئتها في البدعة وقد يسمى العمل المعمول على ذلك الوجه بدعة[2].

اصطلاحا: طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها مايقصد بالطريقة الشرعية[3].

المراسيم الجنائزية المباحة:منها ماتعلق بتلقين الميت الشهادة وهو ماتوضحه النازلة التي سئل عنها أبو سعيد ابن لب[4] عن تلقين الميت وقت دفنه إذا ورد في الشريعة؟ فأفتى له بجوازه بحكم أن أصله حديث ورد في معجم الطبراني[5]وهو مايبين حرص أهل المتوفى علىحسن الخاتمة، ويبدو أن سؤالا كهذا رغم مايتبين فيه من مستساغ ديني ألا وهو تلقين الميت الشهادة وقت دفنه، فإنه يبين حرص أهل الميت على فقيدهم أن يموت على ملة الإسلام، ويتضح من خلال جواب المفتي أن هذا الأمر كان متعودا عليه في مملكة غرناطة[6]، يستدل على ذلك قوله في الجواب " فالأصل في العمل بذلك في هذه الأزمنة"[7]مايوحي أنها عادة متأصلة في المجتمع أنذاك، ويبدو أن منشأها لم يكن في تلك الفترة فقط بل منذ القرن السادس بدليل أن إجابة المفتي وتدليله على انتشار هذه العادة مستنده على حديث ذكره إبن عبد الحق الإشبيلي[8] في كتابه "العاقبة"، ومعروف أن صاحب هذا المصنف ولد في العصر المرابطي[9].

كما كان حضور الجنازة يخضع لاعتبارات بناءا على ماكان عليه الميت في حياته من صلاح أو فساد مثلما توضحه إحدى النوازل على سبيل التمثيل حيث سئل ابن لبابه عن حكم العزوف عن جنازة من كان معروفا في حياته بالفسق والشر فأجاز له ذلك بحكم أن الترغيب إنما يكون لحضور جنازة الصالحين غيران الصلاة عليه واجبة[10]وانتشرت عادة ترك الميت لوصية تضم أمورا عن مراسيم دفنه من ذلك وصية إحدى النساء بأن يضرب خباء[11]وأن يقرأ القرآن على قبرها بالأجرة حيث أقر ابن عتاب هذا الفعل من باب وجوب إنفاذ الوصية[12].

شكلت طقوس زيارة القبور والدعاء عندها مثار الإستفسار لدى فقهاء الغرب الإسلامي حيث أورد الونشريسي ست نوازل من ذلك انتشار ظاهرة التسبيع للميت وذلك بتعهد قبر المتوفى لمدة سبعة أيام يتم فيها قراءة القرآن وقد أجازه ابن لب بناء على ماورد في شرح صحيح البخاري[13]، وإذا استعننا بمنهج التحليل النفسي يمكننا قراءة هذه النازلة من زاوية نفسية بعيدة عن أحكام الحلال والحرام، فلزوم القرب من الميت سبعة أيام من

---

[1]- سعيد بن وهف القحطاني،**نور السنة وظلمات البدعة**،مكتبة الملك فهد،الرياض،ط1 ،1999 ،ص27.

[2]- الشاطبي،**الاعتصام**، ج1،ضبط وتعليق مشهور بن حسن أل سلمان،مكتبة التوحيد،الرياض،د.ت، ،ص41.

[3]- عبد الله معصر،**تقريب مصطلحات الفقه المالكي**،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1 ،2007،ص34.

[4]- هو فرج بن قاسم بن لب التغلبي أبو سعيد،ولد سنة700ه/1382م وتوفي سنة782ه/1382 قال عنه صاحب درة الحجال"كان شيخا فاضلا متفننا انفرد برياسة العلم واليه كان المفزع في الفتيا.ابن القاضي،**درة الحجال في أسماء الرجال**،ج3 ،تحقيق محمد الأحمدي أبو النور،دار التراث،القاهرة،د.ط ،د.س ،ص265.

[5]-الونشريسي،نفسه،ج1،ص472.

[6]- اختلف في نطقها بين إظافة الألف في أولها ونطقها أغرناطة وبين نطقها غرناطة وقد ذكر ياقوت الحموي أنها كانت تنطق بالألف في مقدمتها ثم حرفتها العامة، ومعنى هذه الكلمة رمانة باللسان الأعجمي الأندلسي وهي من مدن كورة ألبيرة وأقدمها، وهي مدينة عظيمة البنيان والتحصين وبها حمامات كثيرة ويشقها نهر حدارة ولها نهر آخر يسمى سنجل، بينها وبين ألبيرة أربعة فراسخ وبينها وبين قرطبة ثلاثون فرسخا. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج4، دار صادر، بيروت،1977، ص195. مؤلف مجهول، جغرافية وتاريخ الأندلس، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، مؤسسة البلاغ، الجزائر،2013،ص164.

[7]- الونشريسي،نفسه،ج1ص 472.

[8]- أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد بن إبراهيم الأزدي، عرف بابن الخراط، ولد سنة 510ه/1116م بإشبيلية روى عن عدة شيوخ نذكر منهم أبي الحسن شريح بن محمد وأبي القاسم القرشي وأبي الحكم بن برجان، كان فقيها وعالما بالحديث ومشتهرا بالخير والصلاح والزهد والورع، انتقل إلى بجاية بعد سنة 550ه /1155م وولي صلاة الفريضة بمسجده في حومة اللؤلؤة، له عدة مصنفات نذكر منها : كتاب الأحكام، الجمع بين الصحيحين، المعتل في الحديث، الرقائق المخرجة من الصحاح، التهجد، فضل الحج، التوبة، العاقبة، تلقين الوليد، الواعي. توفي ببجاية سنة 582ه/1186م. ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، ج3، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، 1995،صص 120-121.

[9]-الونشريسي،نفسه،ج1ص 472.

[10]-نفسه،ج1،ص487.

[11]- خباء: مايعمل من بر أو صوف وقد يكون من شعر ويكون على عمودين أو ثلاثة.محمد فريد وجدي،**دائرة معارف القرن العشرين**،ج3،دار المعرفة،لبنان،ط3 ،1971،ص688.

[12]- الونشريسي،المصدر السابق،ج1،ص488.

[13]- نفسه،ج1، ص472.

يوم دفنه هي تعبير واضح عن الأسى وأثر الفراق الذي تركه الميت في أهله، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يتبين حرصهم على مساندة الميت بقراءة القرآن وأمور دينية أخرى عبر عنها السائل ب"أمور أخرى" وهو مايوحي كثرتها، وبين ثنائية الحزن والأسى عن الميت والحرص على مراعاة إلتزام الشرع في ذلك، يتبين أن أهل الميت في الغرب الإسلامي وهم يمارسون هذه الطقوس على موتاهم، يتتبعون آثارا شرعية لها سواء في القرآن أو السنة أو أقوال العلماء والفقهاء والمفتين، حيث ختم نص السؤال بأن هذا العمل إنما مارسوه بناء على أثر ذكره إبن بطال في شرح صحيح البخاري[1].

كما كان أهل الميت يزورون قبر فقيدهم في اليوم السابع من موته للترحم والاستغفار له[2] وهي تبين تعلق أهل الميت بفقيدهم، ولعل السؤال هنا يطرح نفسه لماذا اليوم السابع من وفاته؟[3].

وكانت تشد الرحال لزيارة قبور الوالدين والتنقل للغرض نفسه لقبور العلماء والزهاد والصالحين[4] والواضح من خلال السؤال عن حكم السفر لزيارة القبور مرده استشكال في حديث النبي صلى الله عليه وسلم"لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ومسجد الأقصى"[5]كما يظهر من جواب سيدي أبو القاسم العبدوسي الذي بين أن الحديث لايعترض به لأنه يفيد شد الرحال للصلاة وليس لزيارة القبور[6]كان السفر لزيارة قبور العلماء والصالحين من أجل الدعاء إلى الله تعالى و التوسل إليه بهؤلاء الصالحين لقضاء حوائجهم لاعتقادهم أن مكان دفنهم مبارك حيث أورد الونشريسي نازلتين سئل عنهما كل من أبو القاسم العبدوسي وقاسم العقباني[7] الذي حث على هذا الفعل "ومازال هذا يتكرر في الذين يقتدى بهم ومازالت تظهر العجائب في هذه التوسلات بهؤلاء السادات نفعنا الله بهم و أفاض علينا من بركاتهم"[8]. وتبين لنا هذه النازلة أن المقابر كانت تمثل متنفسا وملجأ لساكنة الغرب الإسلامي، حيث كانوا يزورون القبور من أجل التوسل إلى الله بالموتى والدعاء عند قبورهم بما يتمنونه من أمور دينهم ودنياهم[9].

من عادة أهل الميت في الغرب الإسلامي أنهم يحضرون القراء في اليوم السابع من وفاته ويصنعون طعاما لذلك قصد الترحم والإستغفار أما إن فعلوه على انه من الواجبات الدينية فهو بدعة [10]وكان يجتمع في هذا اليوم الرجال والنساء وكن يجلسن بالقرب منهم[11].

يتضح بجلاء العامل الإجتماعي في هذا الفعل كما تبين لنا أن الهدف من إقدام أهل الميت في الغرب الإسلامي من جلب القراء في اليوم السابع من وفاة الميت وإقامة مأدبة طعام لهم يكمن في الدعاء للميت، كما تعد فرصة يجتمع فيها الأقارب للترحم والدعاء لميتهم، ويبين نص الجواب أن هذه العادة عرفت إلتباسا في تصنيفها ضمن خانة الشرع أو المبتدع، ويتضح من خلال جواب الفقيه أن هذا الفعل مرتبط بالنية فمن فعل ذلك على أنه دين وشرعة فذلك يعتبر بدعة، أما إذا كانت نيته الترحم على الميت وجمع الأهل والأقرباء للدعاء له فذلك مباح من منطلق أن الأعمال بالنيات[12].

وحرص أهل الميت على قراءة القرآن وإهداء ثوابه له حيث سئل العبدوسي عن أن "هل محمل القراءة محمل الدعاء والاستغفار أو محملهما محمل الأعمال التي لاينتفع بها إلا صاحبها"[13]وأفتى له بجوازها بحكم أن الحي ينتفع بالميت كما قال ابن العربي[14] وهو مايبين أن أضرحة الأولياء كانت تشهد إقبالا كبيرا من الساكنة للدعاء عندهم والتوسل إلى الله إليهم ولايخلوا هذا الفعل من رمزية تبين أن ساكنة بلاد الغرب الإسلامي كانت شديدة التعلق بالتصوف ورواده المتمثلين في الأولياء الصالحين أو المتصوفة[15].

ووردت نازلة بخصوص البناء على القبر حيث كان السؤال عن كيفية بنائه لا عن حكمه[16] وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن بناء القبور كان يأخذ أشكالا مخالفة للشرع كبناء القباب و في الشرع وهو تسنيمه بالبناء والحائط القصير من غير تسقيف إذا كان البناء في حريم مخافة الدفن حوله

---

[1]-نفسه ،ج1 صص472-473.
[2]- نفسه،ج1،ص478.
[3]- نفسه،ج1 ص478.
[4]- نفسه،ج1،ص479.
[5]-**صحيح البخاري**،ج1،ص398.
[6]-الونشريسي،نفسه،ج1،ص480.
[7]- هو أبو الفضل وأبو القاسم شيخ الإسلام ومفتي الأنام اخذ عن والده الإمام أبي عثمان ودرس العلوم حتى وصل درجة الاجتهاد.قال عنه المازوني"شيخنا سيخ الإسلام علم الأعلام العراف بالقواعد والمباني أبو فضل العقباني،توفي سنة854ه/1451م.احمد بابا التنبكتي ،**نيل الابتهاج بتطريز الديباج**،إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة،منشورات كلية الدعوة الإسلامية،طرابلس،1989،ص ص 365-366.
[8]- الونشريسي،نفسه،ج1،ص481.
[9]-نفسه،ج1،ص479.
[10]-الونشريسي،المصدر السابق،ج1،ص ص 476-477.
[11]- نفسه،ج1،ص486.
[12]-نفسه،ج1ص476.
[13]-نفسه،ج1،ص479.
[14]- نفسه،ص481.
[15]-نفسه،ج1،ص481.
[16]- ابن رشد،**فتاوى ابن رشد**،ج2،تحقيق وتقديم المختار بن طاهر التليلي،دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط1 ،1987 ،ص1244.

بالمجاورة لئلا يتكشف عليها"[1]ويستفاد من هذا الجواب أن من دواعي البناء هذا أن يعرف قبر المرأة ويفصل عن القبر الذي بجوارها فربما يؤدي حفر قبر جوارها إلى أن ينبش تراب قبرها ويمكن إعتبار ذلك من موجبات حرص عليها أهل الميت وهو ماجعلهم يحرصون على البناء على القبر حتى لايختلط عليهم عند زيارتهم له، وواضح من خلال نص الجواب أن البناء على القبور كان يتخذ أشكالا مخالفة للشرع، فكان يتجاوز ذلك إلى تسقيف القبر وبناء القباب عليه بدليل أن ابن رشد أفتى بهدم قبر لالشيئ إلا لأن بناء القبر ارتفع بعشرة أشبار[2].

كان تراب المقابر يحمل من طرف العامة للتبرك به وللاستشفاء من الأمراض ماينبىء بانتشار رهيب للأوبئة والأمراض وشبه انعدام الطب ماأدى بهم للتحول إلى القبور للإستشفاء والمبالغة في ذلك حتى إن الونشريسي انزعج لانتشار هذا الفعل بالرغم من جوازه إذ أن الناس بالغوا في نقل تراب قبور الأولياء والصالحين"من هذا القبيل ماجرى عليه عمل العوام في نقل تراب ضريح الشيخ أبي يعزى و تراب ضريح الشيخ أبي غالب النيسابوري للاستشفاء من الأمراض المعضلة"[3].

المراسيم الجنائزية المبتدعة

كان الإعلان عن الوفاة يتم من خلال المسجد الجامع الذي الذي يشهد إقبالا واسعا حيث يصعد المعلن إلى منار المسجد في ربع النهار ويتلوا آيات من القران ويذكر اسم الشخص المتوفى وتوقيت جنازته[4]والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل كل من مات ينعى من المسجد الجامع؟أم المشهورون منهم من أهل العلم والأغنياء؟المعروف انه نعي ميت يكون معروفا لدى فئة شرائح كثيرة من المجتمع لهذا نرجح أن هذا النعي كان للخواص أصحاب الشأن الرفيع، ومن الواضح من خلال نص النازلة أن الموت كان ذلك الحدث الذي يحتل حيزا في ذهنية مجتمع الغرب الإسلامي، فلم تكن بالحدث العابر وهو مانستشفه في استخدام منار الجامع للإخبار بموت أحدهم بل ويكون ذلك في وقت يكون الناس في ذروة نشاطهم أي في ربع النهار بمعنى صباحا، ولايكون الإعلان من طرف المؤذن فنص السؤال لم يوضح ذلك بل جاء بلفظ "أحدهم"، وقد يكون من أهل الميت أو من مقربيه، وقبل أن يستهّل إعلان خبر الوفاة يقرأ شيئا من القرآن الكريم، وذكر السائل أنه بعد قراءة القرآن "يذكر نحو مايفعل المؤذن بالليل"[5] ، وهي عادة كانت منتشرة في بعض المناطق وقد اتفق الفقهاء على تصنيفها في خانة البدع، ويقول عنها ابن الجوزي في كتابه تلبيس إبليس " وقد رأيت من يقوم بالليل كثيرا على المنارة فيعظ ويذكر، ومنهم من يقرأ سورا من القرآن بصوت مرتفع فيمنع الناس من نومهم ويخلط على المتهجدين قراءتهم، وكل ذلك من المنكرات"[6]، ثم يذكر إسم المتوفى وتوقيت جنازته وطقوس أخرى لم يذكرها السائل مكتفيا ب"أشياء كثيرة من نحو هذا"[7].

كما انتشرت بدعة أخرى تمثلت في النداء على جنازة الغريب حيث وردت نازلة عن حكم الشرع في هذا فكان جواب الفقيه بأنه بدعة منكرة[8]وعند انتقال الميت إلى رحمة الله كان يبادر أهله بإيقاد المصابيح لسبعة أيام في البيت الذي توفي فيه[9] وربما تعبر هذه البدعة عن تأثر أهل المتوفى بفقيدهم لدرجة تانيس أنفسهم بإيقاد المصباح توهما بوجوده في البيت هذا وما إن يعلن عن الوفاة حتى يسارع بضرب الفسطاط[10] تحسبا لقدوم الأهل والمعزين[11]وكان مجتمع الغرب الإسلامي يبدي تعاطفه وتضامنه مع أهل المتوفى بالرغم من أن بعض العادات لاأصل لها في الشرع وإنما يفعلها بحكم العادة ويقبلون عليها لابدافع مخالفة الشرع وإنما عن طيبة قلب حيث سئل القابسي عن حمل الطعام لمن مات له ميت[12] كون أهله لايطبخون الطعام في يوم وفاته، كما كان يصنع أيضا في اليوم الثالث من الوفاة لكن من طرف أهل الميت[13].

انتشرت في الغرب الإسلامي الكثير من البدع التي تتعلق بمراسيم تجهيز الميت ودفنه من ذلك قراءة سورة يس عند غسله مثلما توضحه النازلة التي سئل فيها أبو إسحاق الشاطبي الذي أجاب عنها بأنه لايجوز قراءة القران في مكان إزالة الاقذار[14] وكان الميت يستر بالحرير حيث أنكر الفقهاء هذه البدعة لما فيها من إشغال قلب المصلي بها والقصد السيئ من ستر الميت بالحرير من اجل المفاخرة والرياء وإظهار الغنى واليسر لدرجة أن البعض منهم كان يستأجره لعدم قدرته على

---

[1]- الونشريسي،نفسه،ج1،ص477.
[2]-نفسه،ج1،ص477.
[3]- نفسه،ج1،ص490.
[4]- ابن لب الغرناطي،**تقريب الأمل البعيد في نوازل الأستاذ أبي سعيد ابن لب الغرناطي**،ج1،تحقيق حسين مختاري و هشام الرامي،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1، 2004 ،ص76.
[5]- الونشريسي،المصدر السابق،ج1 ص476.
[6]- ابن الجوزي، **تلبيس إبليس**،دار الجوزي،القاهرة،2011،ص126
[7]- الونشريسي،نفسه،ج1،ص476.
[8]-نفسه،ج1،ص496.
[9]-نفسه،ص ص 482-483.
[10]-بيت من شعر ،محمد فريد وجدي،المرجع السابق،ج7،ص288.
[11]- الونشريسي ،نفسه،ج2،ص457.
[12]- نفسه،ج1، ص498.
[13]-نفسه،ج1،ص498.
[14]-نفسه،ج1،ص487.

شرائه[1]وكانت توضع على نعوش النساء أقنعة وثيابا صقلية للرياء والمفاخرة[2].

ترسخت بعض البدع التي تخص اعتقادات سادت في الغرب الإسلامي عن الميت من ذلك أنهم كانوا يخرجون الميت الذي كان في حياته على دين وعبادة بالزغاريد والولاويل بحكم انه انتقل إلى الجنة[3]بل انه انتشرت عادة تزكية الميت على صوت واحد وذكر محاسنه [4] وهو مايدعم الرأي السابق الوارد في النازلة السابقة، غير أن نص هذه النازلة اقتصر على الذكر على صوت واحد أمام الجنازة، فأي ذكر يقصد السائل؟ هل ذكر الله أم ذكر من نوع آخر؟ يزول الإلتباس بالتمعن في جواب النازلة، حيث ذكر المفتي أن ذكر الله والصلاة على نبيه لها أوقاتها بحيث تصنف في خانة المبتدع إذا ذكرت في الجنازة، ولم يقتصر المشيعون للجنازة على هذا فقط بل كانوا يزكون الميت خاصة من طرف أهله جلبا للسمعة والرياء مثلما جاء في نص المفتي " وكان ولي الميت يزكي ميته بذلك الفعل من قبل نفسه ليعتقد ذلك له ولميته[5].

واذا كان طبيعيا أن يقع العامة في البدع بحكم أن ليس لهم علم بدقائق الأمور في الشريعة الإسلامية نرى أن بعض طلبة العلم وقعوا فيها من ذلك وصية احدهم بان تدفن معه إجازته العلمية وقد أجاب الفقهاء بعدم جوازها لان الإجازة قد يذكر فيها اسم الله[6] ولنا أن نتسائل عن رمزية هذه الوصية التي تدل على تعلق طالب العلم في الغرب الإسلامي بالعالم الأخروي، ومن ناحية أخرى لنا أن نتسائل فصاحب الوصية هو شيخ من شيوخ العلم يوصي بدفن إجازته معه ألا يفتي نفسه فهو على قدر من العلم؟ وحتى الموصى لهم يتضح من خلال توجههم بالسؤال للمفتي أنهم لم يثقوا في وصية الشيخ.وكان الموتى يدفنون في توابيت[7]مطلية بالزعفران[8]وتبين إحدى النوازل إن الميت كان يحمل من بيته إلى المقبرة وسط التبشير والتهليل والتنذير على صوت واحد[9] ونستشف منها أن الجنازة كانت تشهد توافدا كبيرا من الناس، وهي إشارة إلى رمزية الموت في ذهنية ساكنة الغرب الإسلامي ومايمثله في مخيالهم الجمعي من إنتقال إلى عالم الآخرة ولاأدل على ذلك من أن نص النازلة بين أن الناس يهرعون في شكل هيستيري على صوت واحد يذكرون الله ويصلون على النبي-صلى الله عليه وسلم- على أن النازلة لم توضح لنا صيغة الذكر والصلاة وهل يذكرون آيات معينة متعلقة بالموت والدار الآخرة أم آيات عامة؟ غير أن مقام الموت يجعلنا نستند إلى أنهم كانوا يذكرون عبارة " لاإله إلا الله" فنص النازلة صريح فقد جاء به أنهم حين يحملونها يجهرون بالتهليل وهذا الأخير صيغته ترديد قول وحدانية الله السابقة الذكر، ويبدو أنهم يستغلون فرصة الجنازة للتبشير بعاقبة الصالح والتنذير بمآل الطالح، مثلما جاء في نص النازلة أنهم يجهرون بالتبشير والتنذير، وهنا نطرح سؤالا آخر عن المقصود من التبشير والتنذير، فهل يكون ذلك بصفة عامة أم يقصدون بذلك الميت؟ كون معظم من يحضر جنازته يكون على معرفة بالميت ومإذا كان على صلاح أوفساد، ويكشف لنا نص الجواب أن هذا الفعل مبتدع، ذلك أن الأصل في آداب اتباع الجنائز هو إلتزام الصمت والتفكر والإعتبار، فلماذا كان الناس يجهرون على صوت واحد؟ هل هو استغلال لهذا المأتم من أجل التنفيس عن ضغط كامن في النفوس؟[10].

وكان يصلى على الميت ووضع جثته خلف المامومين[11] والوقوف عند القبر للتعزية وهذه بدعة لان الشرع أمر كما قال الونشريسي"أن السنة أن ينصرف الناس بعد موت الميت مع وليه ثم يعزوه عند منزله"[12].

بدع زيارة القبور

أورد الونشريسي خمس نوازل حول زيارة القبور والبدع التي تصاحبها في مجتمع الغرب الإسلامي:

1-زيارة المقابر في الأعياد فقد كان شائعا في الغرب الإسلامي بدعة زيارة المقابر أيام عيدي الفطر والأضحى والمولد النبوي الشريف لاعتقادهم أنها أيام مباركة"فان سئلوا عن ذلك قالوا هي أيام خصها الله بما خصها"[13]ويبدو أن زيارة القبور في الأعياد يكتسي رمزية في ذهنية ساكنة بلاد الغرب الإسلامي،ذلك أنه تخصيص زيارة قبور موتاهم هو تعبير عن تعاطف واستمرارية ذكراه في نفوسهم، فكأنهم بزيارتهم هذه يقولون لفقيدهم لازالت ذكراك بيننا حتى في الأفراح[14].

---

[1]- نفسه،ج1،ص501.
[2]-نفسه،ج1 ،ص496.
[3]-البرزلي،**جامع مسائل الاحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**،ج1،تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة،دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط1, 2002 ،ص508.
[4]- الونشريسي،المصدر السابق،ج1،ص474.
[5]-نفسه،ج1،ص474.
[6]- نفسه،ج1 ،478.
[7]- صندوق من حجر أو خشب توضع فيه الجثة.مجموعة من المؤلفين،**المعجم الوسيط**،مكتبة الشروق الدولية،القاهرة،2004،ص81.
[8]-الونشريسي،نفسه ،ج2،ص457.
[9]- نفسه،ج1،ص473.
[10]-نفسه،ج1 ص473.
[11]-نفسه،ج1،ص482.
[12]-نفسه،ج2،ص457.
[13]-الونشريسي،المصدر السابق،ج1،ص482.
[14]-نفسه،ج1،ص481.

2-تصبيح القبر ذلك أن أهل الميت كانوا يتعهدون قبر فقيدهم كل صباح وذلك لسبعة أيام متتالية بعد دفنه وهذه البدعة كما قال الشاطبي كانت تسمى المأتم وهو الاجتماع عند المصيبة[1] .

3-قراءة القران صباح القبر وذلك بزيارة القبر الميت في صباح اليوم الأول من دفنه ويقرا أجزاء من القران الكريم جماعة هناك[2]ووردت نازلة أخرى حول نفس البدعة تؤكد ما سبق حيث كان نص السؤال "هل تجوز قراءة القران على القبور كما يفعله الناس اليوم"[3] ومن الواضح أنها كانت جد منتشرة بالرغم من أن الشرع صنفها من بين البدع.

خاتمة تعتبر مراسيم الجنائز إحدى الجوانب التي اختلطت فيها الأمور كثيرا وصعب فيها على العامة في الغرب الإسلامي من تمييز المبتدع من المباح بحكم أنه لم ترد في هذه المراسيم نصوص شرعية مباشرة وإنما استنبطت أحكامها من بعض السنن التي ثبتت في كتب الأحاديث النبوية غير مفصل صحتها من ضعفها وبالتالي معظم الأحكام كانت من اجتهادات فقهاء سابقين، والملاحظ أن الكثير من البدع التي انتشرت كانت تمثل عادات السكان وهو ما شكل صعوبة في امتثالهم لفتاوى الفقهاء وهو ماتبين من خلال النوازل التي قمنا بإحصائها حيث سجلنا 34نازلة منها 14 مباحة و20 مبتدعة ما ينبئ بان مجتمع الغرب الإسلامي عانى من ضبابية في التعامل مع أحكام الجنائز.

الجدول رقم 01: عدد النوازل المتعلقة بطقوس الدفن في كتاب المعيار المعرب

النوازل	عددها	نسبتها المئوية
المباحة	14	41%
المبتدعة	20	59%

رسم بياني يوضح نوازل طقوس الدفن المباحة والمبتدعة:

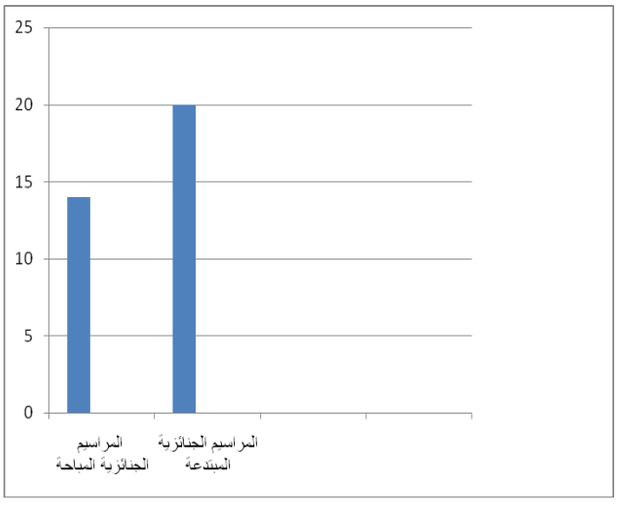

[1]-نفسه،ج1،ص487.ونفس النازلة طرحت على أبو الحسن القابسي حيث أجاب"مامعنى هذا" أي أنها بدعة.المصدر نفسه،ج1،ص498.

[2]-نفسه،ج1،ص494.

[3]- نفسه ،ج1،ص487.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

1. ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج3، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، 1995.
2. ابن الجوزي، تلبيس إبليس،دار الجوزي،القاهرة،2011،ص126
3. ابن القاضي،درة الحجال في أسماء الرجال،تحقيق محمد الأحمدي أبو النور،دار التراث،القاهرة،د.ط ،د.س،ج3 .
4. ابن رشد،فتاوى ابن رشد،تحقيق وتقديم المختار بن طاهر التليلي،دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط1 ،1987،ج2.
5. ابن لب الغرناطي،تقريب الأمل البعيد في نوازل الأستاذ أبي سعيد ابن لب الغرناطي،تحقيق حسين مختاري و هشام الرامي،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1، 2004 ،ج1.
6. احمد بابا التنبكتي ،نيل الابتهاج بتطريز الديباج،إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة،منشورات كلية الدعوة الإسلامية،طرابلس،1989.
7. البرزلي،جامع مسائل الاحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام،تحقيق وتقديم محمد الحبيب الهيلة،دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط1 ,2002،ج1.
8. الشاطبي،الاعتصام،ضبط وتعليق مشهور بن حسن أل سلمان،مكتبة التوحيد،الرياض،د.ت،ج1 .
9. مؤلف مجهول، جغرافية وتاريخ الأندلس، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، مؤسسة البلاغ، الجزائر،2013.
10. الونشريسي،المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والمغرب،تحقيق محمد عثمان،عالم المعرفة للنشر والتوزيع،الجزائر،ط1 ،2011 ،ج1
11. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، دار صادر، بيروت،1977.

المراجع

1. .محمد فريد وجدي،دائرة معارف القرن العشرين،دار المعرفة،لبنان،ط3 ،1971،ج3،ص688.
2. سعيد بن وهف القحطاني،نور السنة وظلمات البدعة،مكتبة الملك فهد،الرياض،ط1 ،1999 .
3. عبد الله معصر،تقريب مصطلحات الفقه المالكي،دار الكتب العلمية،بيروت،ط1 ،2007.
4. مجموعة من المؤلفين،المعجم الوسيط،مكتبة الشروق الدولية،القاهرة،2004.

مجلة ليكسوس

ⵜⴰⵙⴷⴰⵡⵉⵜ ⵏ ⵍⵉⴽⵙⵓⵙ

مجلة إلكترونية متخصصة في التاريخ والعلوم الإنسانية

الترقيم الدولي المعياري للمجلة: ISSN: 2605-6259

www.lixus-magazine.net
lixus.magazine@gmail.com